كتاب اليوم

ملكة تبحث عن عريس

رجاء النقاش



نوفمبر 2005



نوفمبر 2005

رئيس مجلس الإدارة

محمد عهدى فضلى

رئيس التحـــرير

نـــوال مصطفـى



ملكة تبحث عن عريس

وحكايات أخرى عن النساء

رجاء النقاش



دار أخبار اليوم

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

يصدر عن دار أخبار اليوم أول كل شهر

أسسه مصطفى أمين

وعلى أمين سنة ١٩٥١

العدد رقم/ ٤٧٥

نوفمبر ٢٠٠٥

٦ شارع الصحافة - القاهرة

تليفون : ٥٨٠٦٢٣٥

تليفاكس: ٥٧٨٤٤٤٤

الغلاف

اهداء من الفنان :

عمرو فهمى

تخفيض ١٠٪ من قيمة الاشتراك لطلبة المدارس والجامعات المصرية

أسعار البيع في الخارج



الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية	٧٢ جنيهاً
الدول العربية	٣٣ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا	٤١ دولاراً أمريكياً
أمريكا وكندا	٤٧ دولاراً أمريكياً
باقى دول العالم	٦٢ دولاراً أمريكياً

العنوان على الإنترنت

www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى

ketabelyom@akhbarelyom.org

https://t.me/khatmoh

هدية غالية.. من كاتب فريد..!

ماذا لو تحول القلم فى يد كاتب إلى قيثارة تعزف لحن النبل والإخلاص للقيمة الجميلة، والمعنى العميق؟
ماذا لو حفرت السطور تاريخا بديعا لإنسان جميل عاش عمره يبحث، وينقب، ويحفر ليعثر على الكنوز المخبوءة فى بطون الكتب، وقصص البشر؟
ماذا لو وهب فارس وقته، ومنح فكره لمغامرة الكتابة التى تحمل هدفا ورسالة وجاهد ألا تدفعه مغريات الحياة ومكاسبها الزائلة عن الدائرة الوحيدة التى نذر لها حياته، وموهبته وإبداعه؟
ماذا لو أصبحت متعته الخاصة ونزوته الفريدة هى ممارسة الكتابة والقراءة؟ وتضاءلت كل الأضواء البراقة من حوله ليبزغ فى قلبه وعقله شعاع أخاذ لا ينطفىء أبدا؟!
ماذا لو لخص رجاءه من الدنيا فى نقش حروف لا تموت؟!
ماذا .. وماذا .. وماذا لو تجسد هذا الحلم الرومانسى النبيل فى رجل صفته الأولى: إنسان. أما الثانية والثالثة وحتى

العاشرة فهى: إنسان!

ثم ماذا؟ ثم كاتب.. مفكر من طراز رفيع.. نادر يكتب لنا فيمتعنا ويثقفنا، ويحركنا فى آن معا. ينكب على قراءاته فى أقدم الكتب وأحدثها، ويعكف على البحث والتأمل ليعطينا خلاصة الخلاصة. ويسجن نفسه فى كهفه الخاص حتى لا تفتنه متعة أخرى، ولا تفترسه غابة الحياة بشهواتها العديدة عن هدفه الأول.. ورسالته النبيلة.

● ● ●

هناك نوع من البشر يقفون فى المنطقة الوسطى بين البشر والملائكة.. ولا شك أنهم قلة فى هذه الحياة، لكن المؤكد أنهم «صناع الحياة». وكاتبنا القدير الذى أتحدث عنه هو واحد منهم.

فرغم أنه أديب، مبدع. وناقد فنان يعيد إبداع ما يكتب عنه فى قراءة عميقة فنية بديعة إلا أنه يؤثر فى قرارة نفسه الدور الثانى عن الدور الاول ويفضل أن يقدم إبداعات الآخرين وأن يضعهم فى دائرة الضوء والاهتمام على أن يعكف على عمل إبداعى خاص به هو.

ولعل من بين العشرات الذين قدمهم كاتبنا القدير بل كتب لهم شهادة ميلاد حقيقية فى عالم الكتابة والابداع الشاعر العربى الفلسطينى الشهير محمود درويش. فكان أول من كتب عنه، وقدمه لقراء العربية كنجم فى سماء الأدب، ومملكة الشعر.

ولو عددنا الأسماء التى أخذ بيدها، ولايزال هذا الكاتب الفريد لما أسعفتنا الذاكرة، ولا منحتنا المساحة المحدودة

رفاهية الإسهاب.

●●●

معذرة عزيزى القارىء.. سأضطر إلى الاختصار والايجاز حتى أتركك تستمتع بهذه الصفحات الممتعة الغنية بالمعنى والمغزى والاسلوب الرشيق واللغة الجميلة للمفكر القدير الاستاذ رجاء النقاش.

لكنى وقبل أن انهى تلك المقدمة القصيرة أود أن أروى فى إيجاز شديد قصة هذا الكتاب الذى خص به رجاء النقاش سلسلة «كتاب اليوم» التى أشرف برئاسة تحريرها.

اتصلت بكاتبنا الكبير عندما توليت هذه المسئولية التى اعتبرها رسالة مهمة اتمنى من الله أن يوفقنى فى ادائها وكعادته مع كل كاتب ملتزم يحمل الجدية والرغبة فى تقديم ما يثرى حياتنا الثقافية شجعنى بكلمات يملؤها الامل والحماس وأوصانى بالصبر والاصرار لتحقيق هدفى فى النهوض بتلك السلسلة العريقة «كتاب اليوم».

ومنحنى حماسه الجرأة فى أن أطلب منه عملا يخص به «كتاب اليوم»، فطلب منى أن امهله بعض الوقت ليفكر فشكرته وانتهت المكالمة الهاتفية بيننا، لكن حلمى بأن يهدينا كتابا بقلمه لم ينته ولم يتوقف لحظة حتى قرأت خبرا فى الجرائد قذف قلبى بطلقة حزن من العيار الثقيل!

عرفت أن استاذنا القدير هذا القلب الكبير الذى يمشى على قدمين قد أصابه مرض قاس وانه يمر بأزمة صحية صعبة، حزنت كما لم احزن منذ زمن، وقلت فى نفسى لماذا؟! ثم عدت الى ايمانى وقلت: يارب اشفه.. وخفف عنه

آلامه، فمثله فى الحياة قليلون.

ولدهشتى.. أفاجأ باستاذنا القدير يرد على التليفون عندما تركت له على «الانسر ماشين» رسالة تحمل جزعى وفزعى، أفاجأ به يرد مكالمتى بصوت ملىء بالايمان والامل متدفق بالانسانية ويطمئننى وكأنه يريد ان يخفف من قلقى وألمى لما اصابه. ويقول لى: سوف ابدأ مشوار العلاج قريبا.. وإن شاءالله سيكون هناك أمل كبير فى الشفاء.

ولم يكتف بذلك.. بل ألقى بخبر آخر أذهلنى، ولجم لسانى قال وعندى خبر جميل لك.. لقد عكفت على كتاب كنت قد بدأته منذ فترة وكان يحتاج منى لبعض الوقت لأكمله، وبالفعل اجتهدت فى ان انتهى منه قبل ان ابدأ خطة العلاج التى وضعها الاطباء. حتى يمكننى أن أسلمه لك لتنشريه فى «كتاب اليوم» وسوف ارسله لك اليوم!

تجمدت الكلمات على لسانى.. لم استطع أن أقول له إلا: شكراً.. شكراً يا أستاذ رجاء!

وكانت هدية رجاء النقاش إليكم.. إلى كل قرائه الذين أحبوه، وتأثروا بحروفه.. سطوره وكتبه. وهديته الغالية لى أنا شخصيا لتمثل اضافة مهمة لسلسلة «كتاب اليوم».

وبقى أن أترككم مع سطور كاتب فريد.. وإنسان من الصعب أن يتكرر..!

نوال مصطفى

المقدمة

هذا الكتاب هو مجموعة من الصور والحكايات، والبطل الأساسى هنا هو: المرأة. المرأة التى تعمل، والمرأة التى تضحى، والمرأة المليئة بالأسرار، والمرأة التى تحب الرجال، والمرأة التى لاتحب الرجال، وغير ذلك من ألوان النساء اللاتى نقرأ عنهن فى كتب الأدب أو كتب التاريخ أو اللواتى نعرفهن ونراهن أمامنا يعملن ويقتحمن الحياة ويحاولن مواجهة الدنيا بسحرهن أو بذكائهن أو بما يملكن من حيلة وبعد نظر. والحقيقة أن هذه الصور والحكايات التى أبطالها سيدات وآنسات من كل الألوان وكل الأزمان وكل البيئات، إنما تستطيع أن تقول لنا شيئا واحدا لاشك فيه عند الجميع، وهو أن المرأة هى الحياة، فكل مشاعر الإنسان وعواطفه ترتبط بالمرأة، وكل التجارب والمشاكل تبتدئ بالمرأة وتنتهى إليها. والمثل الفرنسى يقول: "فتش عن

المرأة". ومعنى هذا المثل واضح، فهو يقول لنا إننا إذا وجدنا أى مشكلة تستعصى على الفهم والتفسير، فعلينا أن نفتش عن المرأة الموجودة المختفية وراء هذه المشكلة. وعندما نجد المرأة التى فى المشكلة، فإن معنى ذلك أننا وجدنا المفتاح، وهنا تجد المشكلة حلها وتعطينا تفاصيلها وتظهر أمامنا بوجهها الواضح، فنستطيع أن نصل إلى ما كان غائبا عنا وعلينا من الفهم والتفسير.

والمثل الفرنسى هو مثل يوحى بشئ من عدم الثقة فى المرأة. إذ أن الذين أطلقوا هذا المثل يريدون القول بأن المرأة هى صانعة المشاكل فى هذه الدنيا. وأن جميع المشاكل الصعبة لابد أن تكون قد صنعتها امرأة بيديها، أو أن تكون المشكلة هى من صناعة رجال خلقوا هذه المشكلة بسبب امرأة من النساء. فالمرأة مدانة حتى دون أى محاكمة، ودون الاستماع إلى الدفاع من جانبها أو من جانب أحد من أنصارها، وقد يسارع هؤلاء الأنصار إلى الدفاع ويقولون ذلك القول الطريف القديم: رفقا بالقوارير !. على اعتبار أن النساء هن قوارير قابلات للكسر السريع.

أنا لست من أعداء المرأة الذين يرون أنها تقف وراء كل مشاكل الحياة، ولست أيضاً من أعداء المرأة على طريقة توفيق الحكيم، فقد كان الحكيم يقول إن على المرأة أن تصنع "صينية البطاطس" وليس لها أن تشارك الرجل فى معارك الحياة العملية. وكان توفيق الحكيم يخشى المرأة أيضاً من جانب آخر، هو أنها يمكن أن تشغل الرجال، خاصة إذا كانوا مثله من أهل الفن والفكر، عن العمل وتشتت عواطفهم

وأفكارهم، فالحب للمرأة لايكون وراءه إلا ضياع الرجال.

أنا لست من أعداء المرأة هؤلاء ولن أكون. فنماذج النساء اللواتى عرفتهن علمتنى أن أحب المرأة وأن أحترمها وأن أعرف لها قدرها ودورها فى الحياة، وقد كانت أمى فلاحة لا تقرأ ولا تكتب ولكننى رأيتها على مدى سنوات حياتها القصيرة، حيث توفيت فى الأربعين من عمرها وكنت أنا عند وفاتها فى الثالثة والعشرين وأنا أكبر إخوتى الثمانية... رأيت هذا الأم البسيطة التى لم تدخل مدرسة غير مدرسة الحياة والفطرة والذكاء الطبيعى... رأيتها تتحمل من المتاعب والأهوال مالا تتحمله الجبال، وذلك حتى تسهر على تربية أبنائها ورعاية أسرتها فى ظروف بالغة الصعوبة والقسوة. وهذا النموذج وحده قد رسم فى قلبى وعقلى نموذجاً لا أنساه أبدا للمرأة التى تعمل أكثر مما يعمل الرجال، وتتحمل وتصبر، ثم تضحى عند الضرورة حتى تصل إلى تلك النقطة الخطيرة التى يصبح للتضحية فيها اسم آخر هو : الموت.

ذلك هو شعورى نحو المرأة وإيمانى بدورها فى الحياة. ولا أظن أننى أختلف فى هذا الشعور والإيمان مع غيرى من الناس، فالكل يؤمنون أن المرأة هى روح الحياة وهى المحركة لها والقادرة وحدها على أن تغرينا بالفرح فى هذه الدنيا فنتمسك بها، رغم أننا نعرف أن نهايتها لا تسرنا ولا ترضينا. ولكننا بفضل المرأة، فى صورها المختلفة، ننسى هذه المشاعر أو نتناساها، أى نفتعل النسيان.

لعل فصول هذا الكتاب المتنوعة المختلفة يكون وراءها هذا الشعور العميق الذى أحس به، وخلاصته أن المرأة هى روح

الدنيا وهى المحركة للعمل والأمل فيها، وأن النساء لهن فى الجرأة والشجاعة والتضحية والصبر وقوة الإرادة ما ينفى عنهن تلك الصفات التى أشاعها بعض أعداء المرأة، مثل قولهم إن المرأة هى صانعة المشاكل، وأن وراء كل أزمة فى الحياة الخاصة والعامة امرأة . ذلك هو كلام أعداء النساء ولست منهم.

وبعد ... فيسعدنى كثيراً أن أقدم هذا الكتاب ليظهر فى سلسلة "كتاب اليوم" التى تحظى بالكثير من الشعبية والاحترام، وخاصة أن الكتاب يظهر ضمن هذه السلسلة العزيزة فى مرحلتها الجديدة التى بدأت بشائرها الطيبة السعيدة تطل علينا وتقدم إلينا أجمل الوعود.

رجاء النقاش

أول أغسطس ٢٠٠٥

الفصل

1

ملكة تبحث عن عريس

■ ١٤ يوماً سعادة فى ٥٠ سنة سلطة!

■ أغرب شروط الزواج وضعتها العروس «الملكة»!

■ كيف تحول الارتباط العاطفى إلى موضوع سياسى!

كثيراً ما نتصور أن " الملوك" و " الملكات" وأصحاب المناصب العليا فى هذه الدنيا يعيشون فى سعادة كاملة، وأن كل شئ سهل بالنسبة لهم، ويكفى أن يعلنوا رغباتهم فى أى أمر من الأمور حتى تتحقق هذه الرغبات وهذه فكرة شائعة بين الناس، ولكنها فكرة غير صحيحة وغير واقعية، فالملوك والملكات، وكل الذين يشبهونهم من "أولياء الأمور" فى المجتمعات الإنسانية على مر التاريخ، لديهم ما يعانون منه أشد المعاناة، وكثيرون منهم يعيشون فى قلق شديد، ويشعرون بقيود قاسية تفرضها الحياة عليهم، رغم أنهم يحتلون مواقع عالية جداً، ويملكون سلطات واسعة تتيح لهم - نظريا- أن يتصرفوا كما يشاءون. ولعل من أجمل ما يصور هذا التناقض بين السلطة المطلقة والقيود التى تحيط بها والهموم التى تنشأ عنها، تلك القصة الواقعية التى ترويها لنا كتب التاريخ العربى عن "عبد الرحمن بن محمد" المعروف باسم "الناصر لدين الله ".

والذى عاش بين سنة ٨٩١هـ وسنة ٩٦١ ميلادية. وكان واحدا من أعظم الملوك العرب فى الأندلس واستمر حكمه ما يقرب من خمسين سنة متصلة، وأصبحت عاصمته "قرطبة" فى عصره وبفضل جهاده المتواصل أعظم عاصمة ثقافية متحضرة فى العالم كله، فى ذلك العصر، أى منذ حوالى ألف سنة، وكان فيها سبعمائة مسجد وثلاثمائة حمام، ولم تكن المساجد مجرد أماكن للعبادة بل

كانت إلى جانب ذلك معاهد علم وبحث ودراسة. أما الحمامات فكانت مظهرا قويا من مظاهر التحضر والنظافة والصحة العامة.

هذا الحاكم الجبار الذى حكم بلاده خمسين سنة، وانتصر على أعدائه جميعاً، وجعل من عاصمته "قرطبة" منارة للحضارة والثقافة والفنون والعمران فكانت لاتقل عن باريس فى العصر الحديث.. هذا الحاكم القوى الاستثنائى فى سلطانه ونجاحه وهيبته، تقول لنا كتب التاريخ عنه إنه ترك ورقة بخطه يعد فيها أيام السرور التى صفت له دون تكدير أو حزن، فكانت هذه الأيام السعيدة فى حياته كلها أربعة عشر يوما.. !

أربعة عشر يوما من السعادة خلال خمسين سنة من السلطة الكاملة، والحكم القوى الناجح، هذا ما سجله الناصر بخطه على ورقة من أوراقه، وهذه القصة البسيطة التى يؤكد التاريخ صحتها تكشف لنا أن السلطة مهما علا شأنها وارتفع قدرها لا تعنى أن صاحبها سعيد فى كل أيامه، وأنه يستطيع أن يفعل كل ما يريد، وأن قلبه يخلو من الهموم والأحزان.

وليس ببعيد عن ذاكرتنا ما حدث للأميرة " ديانا" التى نشأت فى أسرة عريقة هى أسرة "سبنسر" وهى من أكبر العائلات الإنجليزية قدراً وأهمية تاريخية، وهى عائلة توازى فى مكانتها عائلة الملكة، وكانت "ديانا " كما هو معروف للجميع فتاة جميلة بريئة الوجه محبوبة من الناس فى كل مكان، وتزوجت "ديانا" من "تشارلز" ولى عهد إنجلترا، الذى كان الزواج منه حلم كل فتاة إنجليزية. فتشارلز أمير له مستقبل ملكى، وهو شخصية قوية ومثقفة وله شعبية واسعة فى بلاده لأنه جاد ومجتهد ويحاول دائما أن يشارك فيما ينفع بلاده وأهله. وبعد زواج " ديانا" من " تشارلز" وهبها الله طفلين جميلين. وبذلك فإن كل عناصر السعادة قد توافرت للأميرة " ديانا" ولكن الذى حدث هو العكس تماما، فقد كانت حياتها مليئة بالتعاسة وسوء الحظ، حتى وصل بها الأمر إلى محاولة الانتحار،

ثم انتهت رحلتها فى هذه الدنيا نهاية مفجعة عندما ماتت فى حادث سيارة "عبثى" منذ سنوات قليلة.

لم تحصل "ديانا" على السعادة رغم وصولها إلى القمة فى كل شئ: الجمال والأصل العائلى والسلطة والأمومة الناجحة والثروة والشعبية الساحقة ولعل " ديانا" لو كتبت أيام سعادتها خلال عمرها القصير وهو "ستة وثلاثون عاما" لما بلغت هذه الأيام فى عددها ستة وثلاثين يوماً!.

وتاريخ إنجلترا بالتحديد ملئ بهذه النماذج التى تؤكد هذا المعنى. فالسلطة حتى فى قمتها لا تعنى تحقيق السعادة لصاحبها، لأن السلطة وما يصاحبها من جاه وثروة ونفوذ لا تعنى السعادة، فالسعادة قد تكون متاحة لإنسان بسيط لا يملك من جاه الدنيا شيئا، ولكنه يملك الصحة والعمل المتواضع والقدرة على أن يتزوج من فتاته التى يحبها دون عوائق أو صعوبات، ويعيش بعد ذلك داخل الحد الأدنى من مطالب الحياة المادية، ولكن قلبه يكون عامرا بالحب، ونفسه ممتلئة بالرضا والشعور بالأمان. أما إذا كان ملكا مثل "هنرى الثامن" ملك إنجلترا القوى فى أوائل القرن السادس عشر، فإنه يقرر الانفصال عن زوجته "كاترين" لأنه يحب امرأة أخرى ويريد أن يتزوج منها، والديانة المسيحية لا تسمح له بالجمع بين زوجتين. ولا بالطلاق لأسباب غير جوهرية والسبب الذى قدمه الملك للطلاق هو أنه يحب امرأة أخرى، وهو سبب مرفوض من الناحية الدينية. ويحاول الملك هنرى الثامن، أن يحصل على فتوى دينية تبيح له الطلاق، فيتصدى له صديقه وكبير وزرائه توماس مور "١٤٧٨-١٥٣٥" فيحاكمه الملك ويقرر اعدامه إذا لم " يوافق" على طلاقه من زوجته، ويقبل " توماس مور" الإعدام ويفضله على أن يقدم لصديقه الملك " شهادة زور" بأن الدين يسمح له بالطلاق دون مبررات من مرض زوجته أو خيانتها الثابتة له، أو غير ذلك من الأسباب التى تجعل الطلاق شرعياً فى العقيدة المسيحية. ويتم

إعدام "توماس مور" بالفعل، ويحقق الملك ما يريد، ويطلق زوجته، ولكن الملك لم يحصل على ذلك بسهولة ويسر، ولم يشعر بالسعادة الشخصية التى كان يحلم بها. لأنه دفع فى سبيل ذلك ثمنا غالياً هو إعدام صديقه العظيم " توماس مور" وكان إعدامه جريمة كبرى سوف تظل وصمة عار فى تاريخ الملك "هنرى الثامن" إلى الأبد، حيث اعتبرت الكنيسة الإنجليزية "توماس مور" شهيدا، واعتبرت الملك هنرى الثامن فاسقا مارقا خارجا على الدين.

وفى العصر الحديث تبرز قصة أخرى فى التاريخ الإنجليزى، هى قصة الملك "إدوارد الثامن" عم الملكة اليزابيث الذى أصبح ملكا على أنجلترا سنة ١٩٣٦، وأحب امرأة أمريكية مطلقة مرتين اسمها "واليس وورفيلد" وهى مشهورة باسم "الليدى سمبسون" ولكن رئيس الوزراء الإنجليزى فى ذلك الوقت واسمه " ستانلى بالدوين" عارض زواج الملك من امرأة مطلقة واعتبر رئيس الوزراء هذا الزواج "مخالفاً للأصول الدستورية فى إنجلترا" وكان على الملك " إدوارد الثامن" أن يختار بين عرشه وقلبه. فاختار القلب وتزوج من "الليدى سمبسون" وتنازل عن العرش. فالعرش ليس له قيمة إذا كان قلب الملك مجروحاً وتعيسا، ولم يندم الملك على فقدان العرش، لأنه كان يعيش مع المرأة التى أحبها، ويجلس فوق عرش قلبها، وهو عنده أجمل من كل عروش الدنيا، وتوفى ادوارد الثامن سنة ١٩٧٢ وهو فى الثامنة والسبعين راضيا عن حياته، غير نادم على فقدان عرش الإنجليز.

على أن أطرف القصص التى تصور تعاسة الذين يصلون إلى قمة السلطة دون أن يتمكنوا من الحصول على سعادتهم الشخصية بسهولة هى قصة الملكة "فيكتوريا" التى عاشت اثنين وثمانين عاما حيث ولدت سنة ١٨١٩ وماتت ١٩٠١، وكانت ملكة على إنجلترا لمدة أربعة وستين عاما امتدت من سنة ١٨٣٧ إلى تاريخ وفاتها ١٩٠١، وكان عصرها من أكثر عصور الازدهار فى إنجلترا، حيث امتد

الاستعمار البريطانى إلى أنحاء كثيرة من الأرض فى عهدها، وفى هذا العهد احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢. فكان عصرها الطويل عصر رخاء على بلادها، وعصر شقاء بالنسبة لشعوب أخرى تعرضت للاحتلال الإنجليزى مثل المصريين والهنود.

عندما بلغت الملكة " فيكتوريا" سن الواحدة والعشرين أخذت تبحث عن "عريس" يصلح زوجا لها، فقيود منصبها كملكة لإنجلترا لا تسمح لها أن تختار "عريسها" على هواها، مثلها فى ذلك مثل أى فتاة أخرى قد تكون فلاحة بسيطة أو عاملة فى مصنع، والمشكلة هنا هى أن "فيكتوريا" "ملكة" على إنجلترا، ولابد أن يكون زوجها خاضعا لشروط قاسية، قبل أن تسمح الملكة لنفسها بالزواج منه، فهذا الزوج سوف يكون أبا لأبناء " فيكتوريا". وهؤلاء الأبناء سوف يرثون العرش ويتولون السلطة العليا فى البلاد فلابد أن يكون الزوج حاصلا على رضاء الحكومة الإنجليزية، وأن يكون خاضعاً للشروط القاسية لهذه الحكومة، والتى ينبغى أن تتوافر فى "عريس الملكة".

فما هى هذه الشروط التى كانت فى حقيقتها شروطا عجيبة وقاسية؟!.

أمامنا مسرحية قصيرة طريفة للكاتب الإنجليزى لورنس هاوسمان "١٨٦٥-١٩٥٩" تصور لنا مشكلة الملكة التى تبحث عن "عريس" لها، فيتدخل فى بحثها واختيارها رئيس وزراء بريطانيا اللورد ملبورن " ١٧٧٩-١٨٤٨"، وفى هذه المسرحية يصور الكاتب الفنان "هوسمان" ماتعانيه الملكة الشابة فيكتوريا فى بحثها عن "العريس" الذى يرتاح إليه قلبها، ولكن الأمر ليس فى يديها، فزواجها ليس مسألة عاطفية وشخصية خاصة بها، بل هو موضوع سياسى يتصل بأمن الدولة ومستقبلها.

وقد كان لدى الملكة " فيكتوريا" من الذكاء ودقة الإحساس ما يجعلها تفهم هذا الأمر وتقدره وتعرف أنه ضرورة لا مفر منها

مادامت تجلس على عرش إنجلترا ،ولكنها كانت تشعر بالتعاسة كامرأة شابة، من أبسط حقوقها الإنسانية أن تختار بنفسها حبيب قلبها وشريك حياتها بدون تدخل من أحد . لقد كانت تحلم بالحرية العاطفية التى هى من حق كل فتاة عادية ولكنها ليست من حق ملكة إنجلترا .

وفى مسرحية هاوسمان عن زواج الملكة "فيكتوريا" نجد تصويراً حيا لمشكلة الملكة وهى تبحث عن عريس، تريده هى أن يملأ قلبها بالحب والعاطفة، ويريده رئيس وزراء إنجلترا قادرا على أن يكون مناسبا فى صحته وقوته وعائلته وثروته لأن يصلح أبا لأبناء سوف يصبحون ملوكاً لإنجلترا . أى أن الملكة "فيكتوريا" كانت تبحث عن "عريس" لها بمنطق عاطفى خالص.

أما رئيس الوزراء "ملبورن" فهو يريد أن يكون الاختيار سياسياً أولاً وقبل كل شئ.

وبين العاطفة والسياسة وقعت الملكة فى حيرة بالغة وإن كانت مصممة بينها وبين نفسها على أن يكون " عريسها" من اختيار رئيس وزرائها، وليس من الاختيار الحر لعواطفها وقلبها .

ولنستمع إلى بعض الشروط التى وضعها رئيس الوزراء "ملبورن" للعريس الذى يليق بالملكة كما جاء على لسانه فى مسرحية الكاتب الإنجليزى "لورنس هاوسمان" والترجمة هنا للكاتب الكبير الراحل عباس العقاد .

يقول اللورد " ملبورن" رئيس الوزراء للملكة :

" إن المزايا التى يمتاز بها "العريس" الذى يليق بجلالة الملكة هى ولاريب مزايا فريدة أو مزايا خاصة. ولعلى لا أخالف الحقيقة إذا قلت إنها يجب أن تكون مزايا غريبة. فمن الواجب أولا أن يكون من سلالة ملكية، ومع هذا يجب ألا يكون وارثا مباشرا أو مرجحا لعرش من العروش . لأن وراثته ربما أدت يامولاتى إلى بعض المشاكل السياسية. والعريس اللائق بصاحبة الجلالة ينبغى فوق

أصالته الملكية وبعده عن وراثة العرش أن يكون أميراً من بيت لاهو بالصغير المفرط فى الصغر، ولا هو بالخطير المفرط فى الخطر، إذ لابد لنا أن نتجنب المخالفات المعقدة. وينبغى على هذا العريس بعد ذلك كله أن يكون من أبناء العقيدة "البروتستانتية" وهى عقيدة الإنجليز. فليس فى مقدورك أن تتزوجى" كاثوليكيا" إذ أن قانون البلاد يمنع من ذلك، ثم ينبغى كذلك أن يكون " العريس" شابا، حتى يصبح شريكا مناسبا لصاحبة الجلالة. وينبغى أن يعرف اللغة الإنجليزية وأن يتعلمها إن لم يكن يعرفها، وأن يكون صالحا لاقتباس العادات والتقاليد الإنجليزية. وهذه الصفة الأخيرة هى أصعب الصفات جميعاً لما هو معروف من تحرج الإنجليز مع الأجانب. " أى أنهم لا يحبون الأجانب ولا يسمحون لهم بالاختلاط معهم".

" ثم لابد لهذا العريس أن يملك بعض الثروة وإن لم تكن عظيمة. فإن البرلمان الإنجليزى سوف يتكفل بعلاج هذا الجانب الاقتصادى، ومن الضرورى أن يكون العريس صاحب " وجاهة" تليق بمقامه.

وأن يكون على جانب من الذكاء ولكن على غير جانب عظيم منه. إذ أنه لو كان عظيم الذكاء فسوف يتدخل فى الأمور السياسية وهذا ممنوع".

"وكذلك ينبغى أن يكون العريس صحيح الجسم سليم التكوين، منحدرا من "أصل أصيل" .. وهذا أصعب ما يواجهنا الآن فى اختيار العريس المناسب لجلالتك. إذ أن " الأصل الأصيل" فى الأسر الأوروبية المالكة يعتبر من أندر الصفات".

وهنا قالت الملكة " فيكتوريا" فى سخرية لرئيس وزرائها: "إننى لا أكاد أفهم ما تقول فى هذه النقطة الأخيرة. إذ أن عبارة " الأصل الأصيل" تصح على الماشية، ولا تصح على الإنسان"!!

فيرد عليها رئيس الوزراء:

"نعم يامولاتى فإن الأصل الأصيل فى معنى من معانيه ينطبق

على الماشية، ولكنه ينطبق أيضا على البشر وعلى ما ينحدر من الأباء إلى الأبناء، ونحن نجدها فى الوصية الثانية من الكتاب المقدس، حيث تنبئنا هذه الوصية أن خطايا الآباء تتسلل إلى الأبناء. وكذلك الفضائل ولهذا كان الزواج بين الأمراء الأقارب غير محمود العاقبة.وإذا رجعنا إلى بعض الفروع من أسرتكم يامولاتى فإننا نجد الاختلاط بين الخطايا والفضائل - لسوء الحظ - أمراً واضحاً أشد الوضوح".

وعندما تشير الملكة "فيكتوريا" إلى اثنين من أقاربها وتقول : إنهما جميلان ويبدوان فى أتم صحة، يقول لها رئيس الوزراء - فى أدب شديد:

" هذا فى الظاهر يامولاتى. فالتقارير الطبية التى عندى عنهما تقول بغير ذلك أى أن مظهرهما القوى الجميل يخفى بعض الضعف وبعض الأمراض".

ثم يقترح رئيس الوزراء على الملكة اقتراحاً غريباً وهو أن تدعو الذين يرشحهم للزواج منها إلى "البلاط" واحدا واحدا ولا تقولى لهم شيئا، ثم وهنا تقول الملكة:

"إننى أنا التى سوف اختار "العريس" فى نهاية الأمر. أليس كذلك؟".

فيقول لها رئيس الوزراء فى "نفاق انجليزى" شديد الإتقان: " نعم أنت التى تختارين ياصاحبة الجلالة. وعموما ليس هناك ضرورة للزواج أصلا إذا كنت لا تريدين ذلك".

وهنا تقول الملكة:

... لكن لابد من الزواج، هكذا كانت أمى تقول لى فى كل حين".

فيرد عليها رئيس الوزراء قائلاً: إن مسألة لها مثل هذه الخطورة لا يصح الأخذ فيها بكلام الأمهات ياصاحبة الجلالة. وأى محاولة للتأثير على جلالتك فى الاتجاه الخاطئ سوف تدفعنى يامولاتى للاعتراض".

ثم نقرأ فى نهاية المسرحية هذا الحوار الطريف:
الملكة: اسمع يالورد ملبورن، إننى لن أقبل معارضة تتصل بعواطفى واختيارى للعريس الذى يناسبنى أن معارضتك لن تؤثر فى رأيى على الإطلاق.
رئيس الوزراء: فهمت يامولاتى. وأنا أشاركك شعورك، ولا يمكننى أن أقول كلمة أخرى غير ذلك. وأترك المسألة فى نهاية الأمر إلى حسن رأيك، وإلى ضميرك.
الملكة: أوه .. ما أكرمك يالورد ملبورن، وكم أتعلم منك!
رئيس الوزراء: بل كم أتعلم منك أنا يامولاتى لقد خدمت ملكين قبلك كانا اكبر منك سنا. إلا أننى لم أخدم أحدا يصغى إلى المشورة مثلما تفعلين يامولاتى بكل هذه الحكمة ثم يقول اللورد "ملبورن" فى آخر حديثه مع الملكة:
" إننى أتوسل إليك ياصاحبة الجلالة أن تفكرى فى أمر "عريسك" بجدية.. إن مصير انجلتر يامولاتى معلق فى يدك الصغيرة".
وينحنى رئيس الوزراء على يد الملكة فيقبلها ! وهكذا تنتهى هذه المسرحية الطريفة التى كتبها "لورنس هاوسمان والتى لم تكن بعيدة عن الحقيقة، فخيال المؤلف هنا لم يفعل شيئاً أكثر من تقديم صورة حية متقنة للواقع الذى كانت تعيش فيه الملكة فيكتوريا عندما كانت تبحث عن عريس.
ولقد انتهت القصة الواقعية بأن اختارت الملكة ابن خالها الأمير "البرت" وتزوجته سنة ١٨٤٠، وكانت تحبه حباً شديدا، وأنجبت منه تسعة أبناء وبنات، وعندما توفى زوجها سنة ١٨٦١، وكانت فى الثانية والأربعين رفضت أن تتزوج بعده ولبست عليه ثوب الحداد طوال السنوات الأربعين التى عاشتها بعده،ولم تخلع ثياب الحداد عليه حتى ماتت.
وهكذا انتصرت الملكة " فيكتوريا" على القيود الكثيرة الصعبة

التى كانت موضوعة أمامها وهى تختار " العريس" التى يناسبها ويطفئ ظمأ قلبها وحرارة عواطفها، وليس العريس الذى يرضى رئيس وزرائها "ملبورن" ويتفق مع شروطه القاسية التى فرضها على الملكة وهى تختار "عريسها".

وانتصرت الملكة بعد معركة عنيفة وقتال شرس ضد الشروط الصعبة التى أرادت أن تحرمها من الاختيار العاطفى الذى يرضيها ويناسبها.

وهكذا فإن أى فتاة عادية فى هذه الدنيا، ربما كانت أكثر حرية من هذه الملكة، لأن هذه الفتاة تستطيع أن تختار عريسها كما تشاء، ولن يتصدى لها أحد ليفرض عليها أن تختار حبيب قلبها حسبما يملى الدستور البريطانى غير المكتوب على كل من يجلس فوق عرش الأنجليز. فالفتاة العادية هنا هى الملكة فقد كانت امرأة سجينة، ولولا ذكاؤها ودهاؤها وحيلتها لوقعت فى "الفخ" وتركت رئيس وزرائها يختار لها عريسها كما يشاء.

والملكة "فيكتوريا" هى الجدة "الثالثة" للملكة اليزابيث ملكة بريطانيا الآن.

ولكى تكتمل صورة الملكة فيكتوريا فاننا نستطيع أن نقرأ هذه الكلمات الموجزة التى كتبها عنها الأديب الكبير توفيق الحكيم حيث يقول فى كتابه" من البرج العاجى".

" يدهشنى فى حياة الملكة فيكتوريا تلك الإرادة التى استطاعت بها أن تفصل بين "واجبها" كملكة تحكم و "قلبها" كامرأة تحب .. إنها كانت مشغوفة بزوجها الأمير "إلبرت" ومع ذلك أقصته فى قسوة عن دفة الملك وشئون الحكم، وهو الرجل الذكى الواسع الإطلاع، فكانت تدرس هى معضلات الدولة وتتركه وهو يقتل الوقت بالقراءة وعزف الموسيقى..

آه .. ما أحوجنى أنا إلى مثل هذه المرأة التى تتركنى أقرأ وأكتب وأسمع الموسيقى، وتتصرف إلى حمل المسئوليات وحل مشاكل

العيش- شئ آخر يعجبنى فى تلك الملكة العظيمة: أنها كانت تقرأ .. إنى أحب الملوك والقادة الذين يقرأون .. تلك هى الوسيلة التى يعرفون بها حاجات شعوبهم.. لقد قرأت فيكتوريا بعض قصص "ديكنز" التى يصف فيها شقاء الطبقات الفقيرة، وأحسست وهى فى أبراج قصرها ما يعانيه ألوف البشر، يطؤهم ظلم الارستقراطية الجامحة بعرباتها الفخمة .. فأدركت من خلال سطور ذلك الأديب كيف أن فى بلادها عالما آخر مهملاً يئن من الجوع والبؤس، ولا يلتفت إليه أحد . فتركت الملكة الكتاب وقامت صائحة مرتاعة لا يهدأ لها قرار، حتى مدت يدها إلى أولئك البؤساء فرفعت عن أعناقهم نعال الفئة الباغية، وأطلقتهم يعيشون فى هواء الحرية والرخاء كما يعيش الأدميون" .

الفصل

2

المرأة

التى أعجبت أحمد بهاء الدين

- **شجاعة العــقل بمعناها الجميل هى: القدرة على تقبل الأفكار الجديدة.**
- **الحب فى معناه العميق هو الرغبة فى الإكتمال.**
- **عظمة المرأة دائماً هى قدرتها على العطاء.**

الكاتب الكبيــر الراحل أحـمـد بهـاء الـدين هو واحـد من الـذين ينطبق عليهم - بحق وصدق - ذلك القول الشائع بأنه رحل بجسده وأنه باق بيننـا بروحـه وعـمله. ونحن كـثـيـرا مـا نـردد هذا القـول لنخـفـف عن أنفسنا أو عن أهلنا وأصـدقـائنا ألم الفـقـدان لعـزيز راحل، فهـذا النوع من الكلمات هـو "اسبرين" يخفف الآلام ويجعلنا أكثر احتمالا لها، لأن الحقيقة هى أن فقدان الأعزاء فى هذه الدنيا هو أمـر شـديد القسـوة، ولا عـلاج له إلا الصبـر عليـه، لأننا لا نملك أمامه حيلة، ولا نستطيع إعادة الحياة إلى هؤلاء الذين رحلوا، فتلك قدرة إلهية، وليست قدرة إنسانية.

ومع ذلك فـمن المؤكد أن هناك شـخصيات تظل حية بعد رحيلها، ونظل نتعامل معها على أنها موجودة بيننا، نحس بها ونرجع إليها ونهتم برأيها ومشورتها فى الأمور الصعبة. ومفكر كبير مثل أحمد بهاء الدين يظل بيننا بعد رحيله حياً وقادراً على التأثير فينا، فقد قـضى حيـاته كلها وهـو يقـرأ ويفكر ويجـرب، ثم يسـجل ذلك فى كتـابات واضـحـة سـهلة شديدة العذوبة، وهى كـتـابات قـائمـة على معـرفـة واسـعـة وبصيـرة ذكيـة جداً، تستطيع أن تضع يدها بسـرعـة على الأمـور الجـوهـرية وتسـتبـعـد الأشـيـاء الثـانوية والسـطحـيـة والتى ليس لها قيمة حقيقية.

سـأله أحـد الصـحـفـيين مـرة : من أنت ؟ فـأجاب: أنا قـارئ. قـرأت

كثيراً، وأتمنى أن أستطيع تقديم كل ما قرأته إلى الذين يقرأون بإخلاص وأمانة.

وكلمتا الإخلاص والأمانة تمثلان أحمد بهاء الدين خير تمثيل. فقد كان دائماً حريصا على البحث الجاد عن الحقيقة، ثم هو بعد ذلك شديد الحرص على أن يقول رأيه فى إخلاص وأمانة. وهناك صفة أخرى كان بهاء يتميز بها هى الشجاعة، وشجاعته لم تكن من النوع التقليدى الذى يلقى بصاحبه إلى الصراعات والصدامات المختلفة، بل كان تعريفه للشجاعة تعريفا مختلفا، فهو يقول عن نفسه: إن الفضيلة التى يحب أن يتمسك بها هى الشجاعة العقلية والمعنى الشائع للشجاعة عندنا هو أن المرء لا يخاف، بالمعنى المادى لكلمة الخوف، ولكن المعنى الذى أقصده للشجاعة هو ألا يخاف الإنسان من الأفكار الجديدة، والحقائق الجديدة، والفضيلة التى أسميها باسم شجاعة العقل لها أهمية كبيرة، خصوصاً فى هذه الفترة من حياتنا فالعالم من حولنا يتغير بسرعة.

ومعنى ذلك أن هناك أفكاراً جديدة تواجهنا كل يوم ولابد أن يكون لنا موقف منها.

والحق أن بهاء كان يتميز بهذه الفضيلة التى تحدث عنها، وهى شجاعة العقل بمعناها الجميل الذى أشار إليه، وهو القدرة على تقبل الأفكار الجديدة مادامت أفكاراً نافعة ومفيدة، مع عدم الخوف من هذه الأفكار لمجرد أنها جديدة على الإنسان، وما أكثر الناس والمجتمعات الذين اضطربت حياتهم وتوقفت عن التطور والتقدم لأنهم لا يملكون الشجاعة العقلية لقبول الأفكار الجديدة وعدم الخوف منها.

ولعل موضوع المرأة هو واحد من أكثر الموضوعات التى تفجرت حولها - فى العصر الحديث - أفكار جديدة كانت تحتاج لكى يتقبلها الناس إلى قدر كبير من الشجاعة العقلية لقبول هذه الأفكار التى تخالف أفكارا أخرى قديمة ظلت ثابتة ومسيطرة على العقول لمئات

السنين. فتعليم المرأة، وخروجها إلى الحياة العملية، ومساواتها مع الرجل فى الحقوق العامة، كل هذه الأفكار جديدة علينا، وقد لقيت مقاومة شديدة عند ظهورها فى بلادنا لأول مرة فى أوائل هذا القرن، واستطاعت هذه الأفكار الجديدة أن تتغلب على المعارضة القوية ضدها، وانتصرت وخرجت المرأة إلى الحياة، وأصبحت طبيبة ومهندسة ونائبة فى البرلمان ووزيرة وكان كثير من هذه الأمور أحلاما صعبة التصديق منذ أربعين أو خمسين سنة فقط. ونحن لا نتصور الآن فى بلادنا كيف يمكن للمرأة أن توجد فى هذه المواقع التى مازالت محرومة منها. ولكن التطور الطبيعى للمجتمع سوف يجعل من وجود المرأة فى هذه المواقع أمراً طبيعياً ومألوفا فى يوم من الأيام. وسوف تلعب فضيلة الشجاعة العقلية التى تحدث عنها أحمد بهاء الدين دورها القوى فى فتح الأبواب المغلقة حتى الآن أمام المرأة.

على أن المشكلة الحائرة دائما فى قضية المرأة تتمثل فى سؤال واحد هو: هل يمكن للمرأة أن تجمع بين العمل العام وبين المسئولية عن زواج ناجح وبيت سعيد مستقر؟

من المؤكد أن مثل هذه المعادلة ليست سهلة، والإجابة عن هذا السؤال هى أيضاً من الأمور الصعبة العسيرة ولكن التجارب الإنسانية على أى حال تقدم الإجابات والحلول باستمرار وكلها إجابات وحلول تقف دائماً فى صف التقدم وعدم التراجع عما حققته المرأة فى الحياة العامة من نجاح ومساهمات إيجابية كبيرة.

وذات يوم طلبت "قارئة ذكية" من أحمد بهاء الدين أن يروى لها قصة امرأة عظيمة، كانت فى نفس الوقت زوجة عظيمة.. وكأن هذه القارئة كانت تقول لبهاء: قل لنا من هى المرأة التى تعجبك، والتى ترى أنها نموذج ناجح فى الحياة العامة وناجح ايضاً فى الزواج والأسرة والبيت. وقد أجاب أحمد بهاء الدين على هذه القارئة فى دراسة طويلة ممتعة نشرها فى كتاب له هو "مبادئ

وأشخاص" صدر حوالى سنة ١٩٥٦ وكانت دراسة بهاء تحت عنوان خطاب إلى قارئة مجهولة "وفى مقدمة هذه الرسالة" يقول بهاء : "الحب والجسد ... يكفى فى شأنهما هنا بضع كلمات. لقد روى أفلاطون فى إحدى محاوراته أسطورة تقول: إن الإنسان كان فى مبدأ الأمر جنسا واحداً. ولكن الإله الأكبر "زيوس" غضب على البشر، فشطر كل مخلوق إلى شطرين، وجعلهم ذكرا وأنثى... فالإنسان حين يحب إنما يستعيد سعادته بالتقائه بنصفه الآخر المكمل له... أى أن الحب رغبة فى الاكتمال، والحب الناجح أو الزواج الناجح هو الذى يتحقق به هذا التكامل ..

ولأن القارئة التى توجهت إلى بهاء بسؤالها كانت تطلب منه أن يروى لها قصة امرأة عظيمة فى حياتها العامة. كانت فى نفس الوقت زوجة عظيمة، فقد مهد بهاء لإجابته بالحديث عن معنى "العظمة" حيث يقول: "إن العظمة فى رأيى ليست الشهرة، فالمشهورون خليط من الساسة وأبطال الملاكمة واللصوص والوارثين والنساء غير الشريفات. وهى ليست السلطة، لأن السلطة سلاح، والسلاح قد يستخدم فى الدفاع عن حق، وقد يتم استخدامه فى اغتصاب حقوق الآخرين، وهى ليست الذكاء، لأن النصاب فى العادة أذكى من فريسته. وهى ليست الثروة لأن الثراء قد يكون غير شريف، والوصول غير الشريف قد يوصف بأى شئ إلا بأنه عظيم.. فما هى العظمة إذن؟

الإجابة التى اقترحها هى : العظمة هى الشعور بالمسئولية والنهوض بها. والمسئولية لها درجات. هناك إنسان يعتقد أنه مسئول عن نفسه فقط، وهو ينهض بهذه المسئولية كاملة، فلا يقصر فى أن يوفر لنفسه الراحة والأمن واللذة والبعد عن مشاكل الآخرين، لا يعنيه من التقدم الصناعى إلا أنه يزوده بآلة يحلق بها ذقنه لتصبح فى نعومة الحرير.. وأظن أن هذا المسئول عن نفسه ليس فى حاجة إلى اهتمامنا به.. وهناك إنسان يعتقد أنه مسئول

عن أسرته.. دنياه لا تتعدى ثلاث حجرات تسكنها زوجته وأولاده، الحياة خارج دنياه هذه كأنها تدور فى كواكب أخرى قد تحترق وتتساقط فى الفضاء دون أن يصيبه شئ وفى هذا الفريق قد نجد نوعا من العظمة. فكثيرا ما نرى رجلا - أو امرأة - يكافح ثلاثين عاما متوالية بغير كلل، لكى يظل الموقد فى مطبخه مشتعلا والإناء ملآن، وينفق ساعة كاملة يساوم فيها مساومة مضنية لكى يهبط بثمن الخضراوات مليمين يحفظهما لأسرته، فهذا النوع من العظمة، وهو نوع منتشر فى مجتمعنا نعرف من أمثلته الكثير".

وهناك نوع آخر لايقف إحساسه بالمسئولية عند حدود بيته، بل يتعداه إلى الفئة التى ينتمى إليها، أو إلى وطنه بأكمله، هذا النوع هو الذى يتكون منه وقود الثورات، أو سكان السجون، أو الباحثون عن المعرفة.

وهناك أخيرا الذين يشمل إحساسهم بالمسئولية هذا العالم بأسره، والجنس البشرى كله، وهذا النوع عادة من واسعى الثقافة الذين يرون بين أنحاء هذا العالم الواسع روابط لا يراها الآخرون. فهم يحزنون لقنبلة تلقى فى أسيا، أو لمشنقة تقام فى كينيا، ويشعرون بأنهم مسئولون، ويحاولون القيام بدور يتلاءم مع قدراتهم ومدى إحساسهم بهذه المسئولية*".

هذا هو معنى "العظمة" كما يحدده أحمد بهاء الدين، وهذا المعنى يتلخص فى الإحساس بالمسئولية وكلما اتسع هذا الإحساس وخرج من دائرته الضيقة اتسع معنى "العظمة" أيضا وازداد قوة وأصالة.

وعلى ضوء هذا التعريف الممتاز للعظمة يختار أحمد بهاء الدين نموذجا للمرأة التى أعجبته وحققت معنى "العظمة" كما يفهمه، فى زواجها وفى حياتها العامة معا.

إنها الكاتبة والباحثة والمناضلة الإنجليزية "بياتريس ويب "١٨٥٨-١٩٤٣"، فقد نشأت بياتريس فى أسرة تجارية ثرية، كانت على علاقة قوية بالطبقات الارستقراطية العليا فى انجلترا. وكانت بيت

الأسرة مكانا يلتقى فيه نجوم السياسة والمال والثقافة فى المجتمع الإنجليــزى فى أواخــر القــرن الماضى، ورغم هذه النشــأة الأرستقراطية المريحة، لم تفكر "بياتريس" فى أن تعيش أسيرة لحياة النعومة والترف التى كانت ميسرة لها، بل كانت تقرأ وتتأمل الحياة الاجتماعية حولها، فتجد أن الفقراء فى بلادها يمثلون غالبية السكان، وأنهم بدون أى ضمانات اجتماعية أو قانونية، خاصة طبقة العمال التى ظهرت فى انجلترا بعد الانقلاب الصناعى بعد اختراع "وات" للآلة البخارية سنة ١٧٦٩. وترتب على ذلك ظهور الصناعة على نطاق واسع، فأصبح مئات الآلاف يعملون فى المصانع دون تحديد أجور مناسبة لهم، ودون تحديد لساعات العمل، ودون ضمانات فى حالة العجز والبطالة، وقررت "بياتريس" يوما أن تترك بيتها وأسرتها لتعيش فترة مع أقارب فقراء لها يقيمون فى مقاطعة لانكشير الصناعية وذلك من أجل أن تدرس أحوال العمال وتعرف ظروفهم على حقيقتها، وعندما عادت إلى بيتها بعد هذه الفترة كتبت أول كتاب لها تدعو فيه إلى "ديموقراطية المستهلكين" "أى إلى تكوين جمعيات تعاونية تشترى السلع وتوزعها على الأعضاء بغير ربح".

واتجهت "بياتريس" بكل قوتها إلى العمل فى هذا الميدان الصعب الذى جذبها إليه وسيطر على كل مشاعرها وأفكارها، وركزت كل جهودها على البحث فى أحوال العمال وظروف حياتهم الصعبة، والمطالبة لهم بحقوق لم يكونوا يملكون منها شيئا فى القرن الماضى فى انجلترا، وفى أوروبا كلها، مثل تخفيض ساعات العمل، وإعانة البطالة، والتأمين الصحى، وحماية الأطفال من العمل فى المصانع، وما إلى ذلك من الحقوق التى أصبحت بفضل جهاد "بياتريس" قوانين تحمى العمال وتوفر لهم كثيراً من الضمانات المادية والمعنوية.

وفى كفاحها من أجل أهدافها التقت مع "سيدنى ويب" أحد

زعماء الجمعية "الفابية " فى انجلترا، واسم الجمعية الفابية كما يقول أحمد بهاء الدين مأخوذ من اسم قائد رومانى هو"فابيوس: كان أسلوبه الحربى يتلخص فى ألا يشتبك مع العدو فى معركة حاسمة أبدا، لأن العدو أقوى منه ويستطيع أن يقهره فى هذه المعركة الحاسمة الواحدة، ولذلك كان "فابيوس" يفضل أن يحارب عدوه عن طريق سلسلة من المناوشات الصغيرة المتوالية، حتى يصل خلال هذه المناوشات إلى النصر.

أى أن الجمعية " الفابية" فى انجلترا لم تكن تدعو إلى الثورة، إنما كانت تدعو إلى المناوشات الاجتماعية الصغيرة المستمرة حتى تحقق أهدافها بدون عنف، وهو أسلوب يعتمد على المرونة والصبر الطويل فى تحقيق الأهداف البعيدة المهمة.

ألتقت "بياتريس" فى الجمعية الفابية بأحد زعمائها وهو "سيدنى ويب" "١٨٤٩-١٩٤٧".

وكان تاريخ سيدنى ويب هو تاريخ الكفاح والكدح ضد الفقر والظروف القاسية الصعبة، وشعرت بالإعجاب الشديد بسيدنى ويب، وعبر لها هو عن حبه، وكانت تكبره بسنة واحدة، وقررت "بياتريس" أن تتزوج من هذا الرجل المكافح الفقير الذى أحبها وأحبته وشعرت بأنه الرجل الذى يمكن أن يملأ قلبها ويعطيها معنى للحياة.

وكان خبر الزواج من سيدنى ويب بالنسبة لأسرة "بياتريس" كارثة، لذلك قاطعها أهلها وقالوا "إنها تزوجت رجلا من حثالة المجتمع، بالرغم من شهرته ككاتب" وقاطعها أصدقاؤها القدماء وأساتذتها البارزون، منهم الفيلسوف الانجليزى "هربرت سبنسر" واعتبروا زواجها من سيدنى ويب نزولا بطبقتها الاجتماعية الراقية إلى الحضيض، وخروجا غير مقبول على تقاليد هذه الطبقة، وتمريغا لسمعة أسرتها فى الوحل، فقد كان "سيدنى ويب" أبنا لأسرة فقيرة جدا، وليس هناك شئ يربطها بالطبقات الاجتماعية

الراقية.

ولم تعبأ بياتريس بذلك كله، لأنها كانت مقتنعة باختيارها، سعيدة بهذا الرجل الفقير المكافح والذى ارتقى بجهده وأمانته واخلاصه إلى درجة عالية من التأثير على مجتمعه، وذلك بدفاعه المستمر عن الفقراء. خاصة العمال الذين يعانون أوضاعا سيئة كان ينبغى أن تزول وتتغير.

واختارت بياتريس " أن يصبح اسمها بعد زواجها هو" بياتريس ويب" نسبة إلى زوجها "سيدنى ويب" وتركت لقبها الأصلى الذى ينسبها إلى أسرتها العريقة، وعن طريق كفاحها المشترك مع زوجها وزملائه تم تكوين" حزب العمال البريطانى " الذى أصبح ثانى حزب فى بريطانيا، بالتساوى فى الأهمية والتأثير مع حزب المحافظين العريق، ونجح الحزب الجديد، وأصبح "سيدنى ويب" زوج بياتريس وزيرا، ثم أصبح عضوا فى مجلس اللوردات، وأصبح بكفاحه وكفاح شريكة حياته "بياتريس" من نجوم المجتمع البارزين الذين يحبهم الناس ويثقفون بهم، خاصة أبناء الطبقات الفقيرة من العمال، لقد خدمت "بياتريس" بلادها وأبناء شعبها، واختارت بنفسها الرجل الذى أحبته وتزوجته، ولم تعبأ باعتراض أهلها وطبقتها العالية، والطريف أن كل أبناء أسرتها من الطبقة الراقية لم يعد يذكرهم أحد، الوحيدة التى يذكرها الناس من هذه الأسرة دائماً هى "بياتريس" التى اختارت لنفسها طريق العمل، وتمسكت بحريتها الكاملة فى حبها وزواجها، وأعطت أعظم جهودها لخدمة العدالة الاجتماعية فى بلادها، وماتت وهى فى الخامسة والثمانين "سنة ١٩٤٣" ومات زوجها "سيدنى ويب" سنة ١٩٤٧، وهو فى الثامنة والثمانين، وقد عاشا معا حياة سعيدة منتجة، حققت الخير لانجلترا وأهلها، وأصبح اسمهما من الأسماء المحترمة فى التاريخ الإنجليزى الحديث، أما مؤلفاتهما فهى من أثمن ما يعرفه تاريخ الفكر المعاصر، لأنها كلها مؤلفات تدافع عن الحرية، وتدعو إلى

العدالة الاجتماعية، وتنادى بالحرص على كرامة كل عامل منتج يصنع الخير بيديه، ويستحق من مجتمعه أن يعطيه كل حقوقه المادية والمعنوية والقانونية.. وفى سنواتها الأخيرة كان أقاربها الذين قاطعوها بعد زواجها من سيدنى ويب، لا يكفون عن زيارتها وإعلان اعتزازهم الكامل بها، أما هى فلم تكن نادمة على شئ إلا على قرارها عند زواجها بألا تنجب أطفالا، وقد أحس أقاربها وأصدقاؤها ومحبوها بذلك، فكانوا يصحبون أطفالهم معهم لزيارتها، وكانت تقضى مع هؤلاء الأطفال أسعد أوقاتها، خاصة بعد أن اعتزلت فى بيت ريفى خارج لندن.

هذه هى المرأة العظيمة التى أعجبت أحمد بهاء..

أعجبه فيها شجاعتها واستقلالها وعدم خضوعها لتقاليد جامدة فى أسرتها الارستقراطية، وانطلاقها الحر لخدمة الملايين من أبناء مجتمعها المحتاجين إلى من يدافع عنهم ويحقق لهم آمالهم فى العدالة الاجتماعية بقوة القانون، وليس بدافع من الشفقة والصدقة.

وأعجبه فيها أنها كانت صادقة مع نفسها فى اختيارها العاطفى لزوجها، الذى أثبتت الأيام للجميع أنه كان يستحق حبها وتقديرها، وعاشت معه نصف قرن من الزمان، وكانت راضية سعيدة مؤمنة بكل لحظة قضتها معه فى حياتها الخاصة أو حياتها العامة.

الفصل

3

أزمة دولية فى غرفة نوم

- زواج السياسة والحسابات الخاطئة!
- من غرفة نوم ملكة فرنسا بدأت مقدمات الثورة الكبرى!
- لماذا ضعف الملك لويس السادس عشر أمام زوجته ماري انطوانيت؟!

"فى تاريخ الإنسانية لحظات تختلط فيها المأساة بالسخرية، وذلك لأن الحوادث والأشخاص فى هذه الدنيا لا يخضعون دائماً لقوانين منطقية ثابتة، فهناك قوى أخرى فى الحياة تلعب دورها وتترك أثرها على كل الأشياء. ومن هذه القوى الغامضة قوة الحظ والقدر، وهى قوة تؤدى عملها دون أن يكون لأحد أى سيطرة عليها، ودون أن يستطيع إنسان أن يعرف ماذا تخفيه هذه القوة من مفاجآت ليست فى الحسبان. ومن هنا كان القول بقدرة الإنسان على أن يسيطر على كل شئ فى حياته هو نوع من الادعاء لا أساس له من الحقيقة. فهناك مساحة لابد أن يتركها العقلاء للحظ والقدر. والإنسان يستطيع أن يعرف ما يملكه بين يديه بوضوح ودقة، ويستطيع أن يعرف ماهى أحلامه وأمانيه ونواياه، ولكن هل يستطيع أى إنسان مهما أوتى من القوة والقدرة أن يعرف ماالذى سوف يقابله من المفاجآت والمصادفات التى لم تخطر له أبدا على بال ؟ مستحيل" .

ولذلك كان الإيمان عنصرا ضرورياً فى حياة الإنسان، إلى جانب الاجتهاد وقوة الإرادة والإقبال على العمل بغير ملل. والذين لا يملكون فى قلوبهم أيمانا كافيا لابد أن تواجههم الأيام بغير ما يرغبون أو يحبون، أما الذى يملك الإيمان فهو يعمل ويرضى فى نفس الوقت بما تأتى به الحظوظ والأقدار. وهو يحاول دائماً أن

يجعل الأمور تمضى إلى صالحه، فإن لم يستطع فإنه لا يتوقف عن الجهد والسير فى الطريق، لعله بقوة الجهد ومرور الزمن أن يقلب الحظوظ السيئة إلى حظوظ حسنة، أو على الأقل فأنه يستطيع التخفيف من الحظوظ السيئة وآثارها على حياته.

وهذه صفحة من صفحات التاريخ يلتقى فيها الضحك بالبكاء، ويتصارع فيها الحظ الحسن مع الحظ السيئ صراعا قاسيا، ونحن جميعاً عندما نقرأ هذه الصفحة المثيرة الممتعة، نخرج منها بنتيجة واحدة هى أن السعادة الكاملة الشاملة فى هذه الدنيا غير ممكنة، فالدنيا التى تعطى للإنسان تأخذ منه أيضا، وربما يتم ذلك فى نفس الوقت ونفس اللحظة. وعلى الإنسان العاقل أن يتمسك بما يناله من خير، وأن يحاول مقاومة مايسئ إليه ويؤذيه بكل الوسائل الحكيمة ولعله بذلك يستطيع الوصول إلى التوازن الصحيح، وتحقيق القدر الممكن من السعادة فى هذه الحياة، وهى سعادة غير كاملة وغير دائمة، فأساس الحياة هو التغير والتبدل، والحظ يلعب فيها دوراً خفياً ولكنه بالغ القوة والتأثير.

والقصة التى نتوقف أمامها هى قصة زواج الملك لويس السادس عشر وزوجته الملكة أو الأمبراطورة مارى أنطوانيت وهى قصة يرويها لنا بأسلوبه الرائع الفاتن الكاتب النسوى المبدع "ستيفان زفايج" فى كتابه البديع عن "مارى انطوانيت" والذى نقله إلى العربية فى ترجمة كاملة ودقيقة أديبان لبنانيان هما الأستاذان "نقولا قربان" و "نديم مرعشلى" ونشرته دار العلم للملايين فى بيروت.

كان لويس السادس عشر وليا لعهد فرنسا، وكان فى الثانية عشرة من عمره سنة ١٧٦٦، عندما فكر جده ملك فرنسا لويس الخامس عشر فى أمر "زواجه"، واستقر رأى الملك الجد على أن يختار له أميرة من أميرات النمسا، فقد كان الصراع بين النمسا وفرنسا فى ذلك العهد صراعا قويا وعنيفا، وقد يئس الطرفان من

أن ينتصر أحدهما على الآخر، وكان على رأس الحكم فى النمسا امبراطورة قوية هى "مارى تيريز" التى تنتمى إلى أسرة ملكية عريقة هى أسرة " هابسبورج"، بينما كانت الأسرة التى تحكم فرنسا هى أسرة " البوربون"، وكان بين الأسرتين الأوروبيتين صراع طويل وعنيف، وظلت العاصمتان "فينا" و"باريس" تتصارعان بالحرب أحيانا، والمؤامرات والدسائس السياسية أحيانا أخرى، حتى يئس الطرفان من أن يتغلب أحدهما على الآخر.

وهنا ظهر الحل السحرى الأخير.

فلماذا لا ترتبط العائلتان برباط المصاهرة والزواج، وبذلك يتحقق التحالف، ويسود الهدوء والسلام؟

وهكذا فكر الملك لويس الخامس عشر، واستقر رأيه على أن يخطب لولى عهده وحفيده لويس السادس عشر أميرة نمساوية من أسرة "هابسبورج"، وبذلك يكون هناك "زواج سياسى" يضع حلا للمشكلة التى لم تستطع الجيوش حلها، ولم تستطع المؤامرات والدسائس أن تصل فيها إلى نتيجة.

والزواج السياسى كان فى العصور القديمة أحد الأساليب القوية لحل المشاكل والتغلب على الأزمات المستعصية. ولكن هذا النوع من الزواج أثبت فى كثير من الحالات، أنه حل خاطئ، لأنه ببساطة لايعدو أن يكون نوعا من "زواج المصلحة"، وزواج المصلحة يخالف الأصول الإنسانية الصحيحة للزواج الناجح، فالزواج الناجح ينبغى أن يقوم على الحب والتعاطف الحقيقى بين الزوجين، أما إذا قام الزواج على المصلحة حتى لو كانت "مصلحة عليا" كما يقال فى لغة السياسة فإنه لابد أن يكون محفوفا بالمصاعب، ولابد أن يؤدى إلى ألوان من التعاسة التى لاتخطر على بال الذين يدبرون أمثال هذا الزواج الخاطئ.

وهذا ما حدث فى قصتنا، فزواج ولى عهد فرنسا لويس السادس عشر من الأميرة النمساوية مارى أنطوانيت ابنة امبراطورة النمسا

فى ذلك الوقت "مارى تيريز" كان زواج مصلحة بين دولتين متصارعتين، وكان هذا هدفاً سياسياً خالصاً، ولم يكن فيه أى نظرة إلى رغبة الزوجين الخاصة.

ولذلك فقد تمت "خطبة" مارى انطوانيت واختيارها دون أى إرادة لها فى ذلك لتكون زوجة لولى عهد فرنسا الذى لم يرها قبل الخطبة ولو مرة واحدة، كانت مارى انطوانيت فى الحادية عشرة من عمرها وكان ولى عهد فرنسا يكبرها بسنة واحدة، أى أنه كان فى الثانية عشرة، وذلك عندما بدأت الاتصالات سنة ١٧٦٦ للاتفاق على عقد صفقة الزواج بين الأسرة الحاكمة فى النمسا والأسرة الحاكمة فى باريس، وكانت العاصمتان الأوروبيتان تحلمان باتمام مثل هذا الزواج، على أمل أن يثمر الزواج ولدا يحكم فرنسا فى المستقبل، فيكون من أصول نمساوية وفرنسية معا، وتتحقق المصالح المشتركة للدولتين على يد هذا الوليد المنتظر.

وصارت الإجراءات المعقدة حتى تم الزواج بالفعل سنة ١٧٧٠، وكان عمر مارى انطوانيت آنذاك خمسة عشر عاما، أما زوجها لويس السادس عشر، ولى عهد فرنسا، فكان فى السادسة عشرة.

وكانت الليلة الأولى لهذا الزواج مصدر انزعاج وقلق واسع فى الأسرتين الحاكمتين، وفى العاصمتين الأوروبيتين الكبيرتين.

فقد فوجئت العروس الجميلة مارى انطوانيت أن زوجها لويس السادس عشر يعانى من عجز واضح وفادح.

وقد سجل ولى العهد الفرنسى بعد ليلة زواجه الأولى عبارة واحدة تقول "لاشئ"، ولم تستطع احتفالات القصر - كما يقول ستيفان زفايج - " أن تؤثر فى العيب العضوى المحزن الذى كان ولى العهد مصابا به. وهكذا لم يكن الزواج كاملا، ولن يكتمل فى الغد، ولا خلال السنين الأولى" واحتارت الزوجة الفاتنة مارى انطوانيت ولم تعرف ماذا تفعل. وعرفت الأوساط الملكية فى باريس والأوساط الامبراطورية فى النمسا بحقيقة الأمر. وظن البعض فى البداية

"أن الضعف التناسلى لدى ولى العهد ذى الستة عشر عاما أمام زوجته الصبية الفاتنة ناتج عن الخجل أو عدم الخبرة أو تأخر طبيعى فى النمو" وأرسلت الأمبراطورة مارى تيريز لابنتها مارى انطوانيت تقول لها: " عليك أن تتجنبى التسرع، أو اقلاق المراهق الذى لابد أن هناك عقبة معنوية سببت له هذه الاعاقة". ونصحت الأم ابنتها بألا " تعتبر خيبتها الزوجية نوعاً من المأساة "ثم تقول لها ناصحة أياها: "تحاشى مطلقا اثارة الموضوع، وتوصيها " بمداعبات وملاطفات، ولكن دون المبالغة فيها، لأن الكثير من التهالك قد يفسد كل شئ ".

وتستمر المأساة على حالها عاما بعد عام دون أن يطرأ أى تغيير على هذا الوضع الشاذ " وولى العهد يبدى المزيد من الرقة نحو زوجته الفاتنة شهرا بعد شهر، ويجدد دون انقطاع زيارته الليلية لها، وتبوء كل محاولاته بالفشل كأن سحراً ملعوناً أو اضطرابا خفيا مقدرا كان يحول دون نجاحه فى علاقته الزوجية الطبيعية".

يقول ستيفان زفايج : "ظنت مارى انطوانيت بسذاجتها أن ذلك العجز ليس ناجما إلا عن التعثر والصغر، ولذلك كانت تنفى الشائعات السيئة التى تتناثر فى فرنسا كلها عن عجز زوجها الجنسى، وتضطر أمها الأمبراطورة مارى تيريز إلى التدخل، فتستدعى طبيب بلاطها وتستشيره فى موضوع برودة ولى العهد غير العادية. ويهز الطبيب رأسه قائلا: "إذا كانت الصبية الشهية اللذيذة لا تثير رغبات ولى العهد فغير نافع له أى دواء". وفى القصر الملكى الفرنسى تم استدعاء طبيب القصر واستشارته فى هذا الأمر الدقيق، فأجرى الطبيب فحصا على ولى العهد"، وانتهى إلى القول بأن عجز ولى العهد الجنسى ناتج عن عيب عضوى تافه وليس عن أسباب معنوية"، وكان الحل هو إجراء عملية جراحية لولى العهد تخلصه من عيبه وتعود به إلى الحالة الطبيعية.

ولكن ولى العهد يتردد. فقد كانت العمليات الجراحية فى ذلك

الوقت تثير الخوف والقلق وتعطى الاحساس بأن مثل هذه العمليات لابد أن تحمل معها اخطارا غير محدودة على حياة الإنسان فقد تؤدى إلى فقدان الحياة نفسها، ورغم أن طبيب القصر الملكى أكد أن العملية المطلوبة لولى العهد هى عملية بسيطة ومضمونة النجاح، إلا أن ذلك لم يدفع ولى العهد إلى الموافقة عليها.

وظل الأمر على ماهو عليه لمدة سبع سنوات متواصلة منذ أن تم هذا الزواج السياسى التعيس سنة ١٧٧٠ وحتى سنة ١٧٧٧، وكان ولى العهد قد أصبح ملكا على فرنسا سنة ١٧٧٥ بعد وفاة جده لويس الخامس عشر، وأصبحت مارى أنطوانيت ملكة على فرنسا.

وعندما قرر ملك فرنسا الجديد لويس السادس عشر إجراء العملية المطلوبة تحت ضغط شديد عليه كانت شخصيته قد أتلفتها، سبع سنوات من المعارك الذليلة، فى غرفة نومه، وكانت زوجته الملكة قد قاست فى هذه السنوات ولياليها الطويلة "أقسى أنواع التعذيب الجنسى كامرأة وزوجة".

وخلال هذه السنوات السبع كان هناك أزمة دولية تهز عرش فرنسا وعرش النمسا معا. فهذا الزواج القائم على المصلحة السياسية يوشك أن ينهار ويصبح بلا معنى ولا نتيجة، وكانت البلاطات الملكية فى أوروبا بأسرها مهتمة بالأمر فى صورة جدية،وأكثر من جدية، لأن ولادة سليل لبيت " البوربون" الفرنسى هى قضية سياسية عليا بسبب تعلق وراثة العرش الفرنسى بها. ولذا فقد كان الملوك والأمراء فى كل بلاطات أوروبا يضحكون ويهزلون فى مجالسهم ورسائلهم من لويس السادس عشر.

وهكذا أصبحت القضية معروفة وشائعة فى كل مكان، ليس داخل القصر الملكى الحاكم فى فرنسا وحدها، بل فى كل أنحاء باريس، ومنه انتقل إلى أنحاء فرنسا، ثم انتقل إلى كل العواصم الأوروبية.

وكان من الطريف فى هذه المأساة المحزنة أن فرنسا التى تتميز بنزعتها الفنية الساحرة قد حولت المأساة إلى "أغان شعبية"

انتشرت فى كل مكان، وأصبح الجميع يرددون هذه الأغانى التى تسخر من الملك والملكة، وكانت كلها أغنيات رمزية، ولكنها كانت مفهومة للجميع، فالأغانى الشعبية فى كل الشعوب تميل إلى هذا الجو الرمزى الساخر، وإن كانت فى رموزها أكثر وضوحا من أى تصريح آخر.

وبذلك عاشت فرنسا والنمسا وأوربا بأكملها فى أزمة دولية نابعة من تلك الأزمة القائمة فى غرفة نومٍ ملك فرنسا وملكة فرنسا.

وكانت سنوات الأزمة السبع سبباً فى نتائج خطيرة أخرى وذلك لما تركته هذه الأزمة على شخصية الملك وشخصية الملكة معا. فالملك لم يعد بمستطاعه أن يكون صاحب كلمة مسموعة وإرادة مطاعة أمام زوجته الفاتنة، وهل كان بمستطاع الملك كما يقول "ستيفان زفايج" أن يتظاهر بأنه السيد المهيمن، أمام المرأة التى تشاهد كل ليلة حيرته وارتباكه وتشاهد عجزه وإخفاقه؟ . إن الملك لويس السادس عشر. وهو الزوج العاجز، أصبح بغير سلاح أمام زوجته، وكلما طال أمد هذا الوضع المؤلم زاد سقوطه تحت سيطرتها وازداد انحداره بصورة تثير الشفقة حتى أصبح عبدا لها، وباستطاعتها أن تفرض عليه كل مشيئة لها، بينما هو مستعد دائماً لتعويض زوجته بتخاذل لاحد له عن تلك الخطيئة التى كان يحس فى قرارة نفسه أنه مسئول عنها".

وتطور الأمر بصورة مأساوية من ناحية أخرى، فقد اتجهت الزوجة نتيجة لما تعانيه من ضغوط نفسية وأزمات جسدية إلى اللهو والعبث والطيش على نطاق واسع، ولم تجد من يردعها، أو يردها عن هذا السبيل، فالزوج صامت ومتفرج ومطيع. ولعله كان فى أعماقه يحس بالرضا لأن زوجته تجد تعويضاً عما تعانيه فى اللهو والترف والسهر ولعب القمار والرقص والبحث المستمر الجنونى عن أحدث الأزياء والجواهر" والزوج لا يمتلك القوة الكافية للتدخل بصورة آمرة فى حياة زوجته، والحد من تصرفاتها

المجنونة العلنية. وهكذا ظل الملك لويس السادس عشر حتى بعد أن أجرى العملية الجراحية وأصبح زوجاً حقيقياً وأبا لأسرة- بعد سبع سنين من الزواج- خادما مطيعاً لزوجته مارى انطوانيت، لأنه لم يستطع من قبل وفى الوقت المناسب، أن يكون زوجها الحقيقى"، ويمد الكاتب المبدع "ستيفان زفايج" يده فى أعماق المأساة ليصل إلى هذا التحليل الدقيق والمثير فيقول:.

"إن النشاط الجنسى لدى الرجل إن خضع للاضطراب شوهد عليه الارتباك، وضعف الثقة بالنفس، والمرأة عندما تمنح ذاتها دون طائل يتولد لديها اضطراب عنيف، وتوتر عصبى. ومارى أنطوانيت بفطرتها الأولى امرأة طبيعية تماما، قوية الأنوثة، رقيقة العاطفة، خلقتها الطبيعة من أجل الأمومة الخصبة، ولم تكن فى الواقع تطمع إلا فى الخضوع لرجل حقيقى، ولكن القدر أراد لهذه المرأة الراغبة فى الحب، والجديرة به، زواجا غير طبيعى، واختار لها رجلا تنقصه الرجولة، صحيح أنها كانت فى الخامسة عشرة من عمرها عندما تزوجت، ولم يكن ضعف زوجها آنذاك ليثقل عليها، ولكن الذى زلزل أعصابها وآثار حواسها فى هذه الحالة الخاصة، هو أن ذلك الزوج الذى فرضته عليها مصالح السياسة لم يدعها تمضى تلك السنين السبع فى تعفف تام.

بل كان هذا العاجز والمترهل، يعيد الأمر والمحاولة، وفى كل ليلة دون انقطاع، ودون جدوى، فوق جسدها البض. وهكذا كانت غرائزها فى حالة إثارة دائمة طوال تلك السنين، وبطريقة مذلة لم تستطع إزالة بكارتها، وليس المرء بحاجة إلى أن يكون طبيبا للأمراض العصبية كى يدرك بأن توترها العصبى التعيس، وحركتها الدائمة، وجريها المحموم وراء اللهو والترف، لم يكن سوى النتائج التقليدية لهذا الوضع الذى جعل منها جسداً ظامئا لايجد الاشباع ولا يحس به.

ويوما بعد يوم اتسع نطاق " الأغانى الشعبية" التى تتناول هذه

القصة وانقلبت هذه الأغانى إلى أشعار فاحشة، وكانت السيدات فى البدء هن اللواتى يتناقلن من وراء مراوحهن تلك الأشعار الفاحشة، ولا تلبث الأشعار أن تأخذ سبيلها إلى الشوارع فيتم طبعها وتوزيعها على أفراد الشعب " وهكذا" يتجاوز الغباء، والمأساة الشخصية، والنتائج الناجمة عن بؤس زوجى ... يتجاوز هذا كله الحظ والقدر ليدخل ميدان التاريخ العالمى، وفى الحقيقة لم يبدأ تحطيم الهيبة الملكية فى فرنسا مع سقوط سجن الباستيل، وإنما بدأ بهذه القصة الزوجية فى قصر فرساى".

وهذا الرأى فى تحديد بذور الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ هو رأى الكاتب المبدع ستيفان زفايج.

وهكذا نرى أن هذه الأزمة السياسية قد بدأت واشتعلت فى غرفة نوم ملكية فى قصر "فرساى" بفرنسا، وقد نتج عن هذه الأزمة ضعف خطير فى شخصية الملك، لم يستطع أن يتخلص منه، حتى بعد أن تم علاجه بإجراء العملية الجراحية له ونجاحها التام، وأصبح بعدها أبا لإبنة وابن، وأصبح رجلا طبيعياً، ولكن سنوات الأزمة السبع تركت أثرها النهائى على شخصية الملك، وأصبحت الملكة مارى انطوانيت هى صاحبة الكلمة فى كل شئ، ولم يكن لديها أى قدرة على أن تدير الأمور بحكمة ووعى وثقافة وبعد نظر، فقد انقاد لها زوجها الضعيف، واندفعت هى فى مجال اللهو والترف إلى أبعد الحدود، وانطبعت شخصيتها بهذا الطابع الذى لم تستطع تغييره أو الانتباه إلى خطورته فى موقعها الحساس كملكة لفرنسا، ورغم تحذيرات كثيرة تلقتها من أمها امبراطورة النمسا وغيرها من الأقارب والمستشارين والأصدقاء، ولكنها لم تعبأ بهذا كله، واستسلمت تماما لشخصيتها التى تكونت فى ظل أزمتها الخاصة مع زوجها فى السنوات السبع الأولى من الزواج.

وهكذا كان زواج المصلحة السياسية مقدمة لانهيار النظام الملكى فى فرنسا، وقيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، ثم اعدام الملك سنة

١٧٩٣ واعدام الملكة بعد شهور قليلة وفى نفس العام.

لقد كانت هذه المأساة التاريخية الكبيرة مزيجاً من سوء التصرف، وسوء الحظ، وكانت ثمرة لتغليب المصالح المتبادلة على الأصول الثابتة للعلاقات الإنسانية الصحيحة، وخاصة فى أمور دقيقة مثل الزواج، وقد اجتمع فى هذه المأساة عناصر كثيرة متناقضة، منها الثروة والنفوذ والسلطة والجمال، ومنها الطيش وضعف الإرادة وعجز البصائر عن رؤية المصائر التى يحملها المستقبل، نتيجة للإهمال والتفريط وسوء التعبير، وخاصة فى مواقع المسئولية الكبرى التى يصبح فيها كل قرار - ولو كان صغيرا - مؤثراً على مجرى التاريخ والأحداث، ومن المدهش أن الكارثة كانت تولد وتنمو وتكبر كل يوم تحت أقدام أبطالها التعساء دون أن يروها أو يفهموا مغزاها لانغماسهم فى علاج مشكلة نشأت فى غرفة النوم، وفى الاستسلام لنتائجها العبثية على أشخاصهم، دون أن يدركوا أن هذه المشكلة الخاصة قد عزلتهم عن عصرهم ومجتمعهم، وأدت إلى عاصفة كبرى أودت بهم ووضعت رءوسهم تحت سكين المقصلة.

الفصل

4

امرأة لا تعرف البكاء..!

■ بكاء المرأة ليس دليلاً على ضعفها.. بالعكس!

■ امرأة فريدة امتلكت شجاعة السعادة فى مواجهة الموت!

■ من تمتلىء نفسه بالكراهية لا يستطيع أن يرى الضوء مهما اقترب منه!

أسهل شئ فى هذه الدنيا هو أن يبكى الإنسان كلما واجهته مشكلة صعبة. والبكاء مريح ولا شك لأنه يخفف كثيرا من النيران التى تشتعل فى النفوس عند الغضب أو اليأس أو الاصطدام بأمر لا حيلة لنا فيه، وفى هذه الحدود المعنوية فإن البكاء مفيد، ولكن البكاء بعد أن يعطينا راحة مؤقتة محدودة يبدو عديم الفائدة، فى معارك الحياة الحقيقية فليس من المفيد أن نستمر فى البكاء عندما نتألم ولكن المفيد حقا هو أن نفكر ونجتهد حتى نتوصل إلى شئ نتمسك به ويساعدنا على مواصلة الحياة رغم المتاعب والمنغصات، أما الذين يواصلون البكاء بصورة مستمرة فإنهم لن يجدوا حلا حقيقيا لما يعانون منه، بل أنهم على العكس سوف يضيفون جديدا إلى حجم مشاكلهم ويضاعفون هذه المشاكل، وليس مطلوبا من الإنسان أن يتوقف عن البكاء. فالبكاء حالة انسانية طبيعية.. ومادامت الحياة لا تخلو من الآلام فمن المنطقى أيضاً أنها لن تخلو من البكاء. ولكن المطلوب من الإنسان هو أن يسيطر على دموعه. وأن يبنى لها سدا عليا يمنعها من الفضيان المستمر وما يترتب عليه من فوضى واضطراب.

والذين تعودوا على البكاء الدائم والشكوى المستمرة قد يثيرون تعاطف الناس لبعض الوقت. ولكن الناس ينظرون إلى الباكين الشاكين على أنهم ضعفاء، وسرعان ما ينصرفون عنهم ويتركونهم يغرقون وحدهم فى دموعهم وهذا الأمر ليس صحيحا بالنسبة

للأفراد وحدهم. ولكنه صحيح أيضاً بالنسبة للجماعات والشعوب ولو ألقينا نظرة سريعة على تاريخ الإنسانية لما وجدنا شعبا واحدا استطاع أن يحقق أهدافه ويحمى مصالحه ويصون نفسه بالشكوى والبكاء، فالالمان عندما انهارت بلادهم وأصابها الدمار الشامل فى الحرب العالمية الثانية أحسوا بالحزن وذرفوا دموعا غزيرة ولكنهم أوقفوا ذلك بسرعة، لأنهم كانوا يدركون أن منطق الحياة لا يسمح بالاستمرار فى اظهار الضعف والاستسلام للاحزان، فقاموا من تحت انقاض الدمار الهائل الذى اصابهم ليعيدوا بناء حياتهم من جديد ومسحوا دموعهم،وبدلا منها بدأ العرق يسيل من جباههم وأخذوا يعملون بالليل والنهار، والآن وبعد خمسين سنة مما أصابهم أصبحوا من أقوى شعوب أوروبا بل من أقوى شعوب العالم وأصبح متوسط دخل الفرد فى المانيا أعلى منه فى البلاد التى انتصرت فى الحرب على الألمان مثل انجلترا وفرنسا، والنموذج الآخر وهو نموذج شائع ومعروف . وهو نموذج اليابان فقد ضربتها أمريكا بقنبلتين ذريتين فى أغسطس سنة ١٩٤٥ وأصابت القنبلتان مدينتين كبيرتين هما هيروشيما فى ٦ أغسطس. ونجازاكى فى ٩ أغسطس وراح ضحية القنبلتين فى لحظات مائة الف فى هيروشيما وأربعون الفا فى نجازاكى، وتعرضت المدينتان لدمار غير محدود، وتصور الناس أن القيامة فيهما قد قامت وأن العالم قد وصل إلى لحظة النهاية، ومع هذه الأهوال فقد أفاقت اليابان من أحزانها وعبرت بحر الدموع، وخرجت إلى شاطئ العمل المنتظم والجهاد المستمر وبعد خمسين سنة من مأساة القنبلتين الذريتين أصبحت اليابان الآن أغنى بلد فى العالم، وأصبح دخل الفرد فيها، وهو حوالى ٢٧ ألف دولار فى العام، هو أعلى دخل فرد فى بلاد الدنيا جميعا بما فى ذلك أمريكا نفسها.

فالقاعدة السليمة فى حياة الإنسانية ليست هى مواجهة المشاكل باليأس والدموع، ولكن القاعدة الأكثر صوابا ونجاحا هى مواجهة التحدى بالعمل والجهد والصبر على الشدائد حتى تنتهى وتزول.

ومن الأفكار الشائعة، والتى تحتاج إلى مراجعة وإعادة نظر، أن دموع المرأة أقرب من دموع الرجل، وهذا صحيح ولكن ذلك ليس دليلا على ضعف المرأة وعدم قدرتها على التحمل فالمرأة لديها كل الإمكانيات على احتمال الآلام مثلها مثل الرجل. وربما كانت قدرة المرأة على ذلك أكبر لأنها تعرف آلام الولادة التى لايعرفها الرجل، والذين نشأوا نشأتهم الأولى فى الريف المصرى مثلى يعرفون نماذج كثيرة من النساء اللواتى تحملن مشقات فى الحياة بصورة ينوء باحتمالها أشجع الرجال، وأنا أعرف امرأة من هؤلاء كانت تمت لى بصلة القرابة مات زوجها وهى فى عز شبابها ولم يترك لها مالا ولا حتى معاشا، لأنه مات فى الأربعينات قبل أن نعرف نظام التأمينات وكانت هذه المرأة جميلة وذكية رغم أنها كانت أمية، وقد تقدم العديدون للزواج منها ولكنها رفضت ذلك لأنها كانت أما لثلاثة أطفال. وقد اصرت على تعليم أبنائها حتى النهاية وجلست وراء ماكينة (الخياطة) ما يقرب من ربع قرن كامل وكانت تعمل طيلة النهار وساعات طويلة من الليل واستطاعت فى النهاية أن تحقق ما أرادت فتعلم ابناؤها حتى أتموا تعليمهم الجامعى ونجحوا فى حياتهم وتجاوزوا نتائج المأساة التى كانت تهددهم بالخطر، وهى مأساة الموت المبكر للأب، وقد عاشت هذه السيدة حتى بلغت الثمانين وكنت كلما جلست إليها أشعر دائماً أنها مرفوعة الرأس وبأنها لم تستسلم أبدا لليأس، ورغم أنها لم تقرأ كتابا فى حياتها إلا أننى وأنا اتحدث معها كنت أشعر أن لديها زادا وفيرا ورائعاً من ثقافة الحياة وخبرتها الكبيرة، فكنت أستمتع بالحديث معها واستفيد من حكمتها فائدة كبيرة وكأنها متخرجة من لندن أو باريس.

وتحدثنا الكاتبة الأمريكية "دوروثى طومسون" فى كتابها شجاعة السعادة "ترجمة السيدة تماضر توفيق" عن صديقة نمساوية لها وتقول عن هذه الصديقة أنها لم تكن تعرف الدموع " وأنها كانت تملك أجمل مظاهر الشجاعة، فقد كانت ترقد على فراش المرض فى

سويسرا عندما ذهبت لزيارتها، وهى سيدة معروفة فى أوروبا كلها بأياديها البيضاء. فقد كانت أول من عمل بعد الحرب العالمية الأولى على إرجاع الأطفال النمسويين والالمان إلى البلاد المحايدة كالسويد والنرويج وسويسرا حيث تبنتهم العائلات المختلفة ومنحتهم الحب والغذاء والكساء، كما عملت على ايواء اللاجئين بما تملك من مال وبما استطاعت أن تجمعه من أموال الآخرين، وعندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية ودخل هتلر النمسا كانت هذه السيدة فى كوبنهاجن بالدنمارك حيث أجريت لها عملية استئصال للسرطان الذى أصابها فى ثديها وتم ابلاغها بأن هتلر قد صادر كل أملاكها فى النمسا، وأنها لا تستطيع العودة إلى بلدها ولكنها تحاملت على نفسها وغادرت فراش المرض وجرحها لم يلتئم بعد وذهبت إلى باريس لتساعد اللاجئين النازحين إليها من النمسا ولكن المرض لم يرحمها وامتد إلى عظامها فأصبحت أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، وعندما جلست بجانبها انتظرت أن أرى أمرأة باكية مشفقة على نفسها ملأتها المرارة بعد ما قامت به من الأعمال المجيدة على مدى نصف قرن، وأخبرنى أصدقاؤها أنها لا تعلم ما بها وأن طبيبها أخبرها أن مرضها ليس سرطانا ولكن إلتهاب فى المفاصل وبمجرد أن تركنى هؤلاء الأصدقاء وحيدة معها أيقنت أنها هى الأخرى تخدعهم حتى لاتفسد عليهم خدعتهم وقد تركتهم يظنون أنها لا تعلم شيئاً عن مرضها الخطير. ونظرت إلى هذه الصديقة وقالت لى : إننى أعلم أننى فى عداد الموتى وأنى لن أراك ثانية بعد أن تغادرى هذا المكان ولكنى أشكرك على مجيئك لزيارتى".

ثم تقول الكاتبة الأمريكية :

"كنت منذ أن عرفت هذه المرأة أعرف أنها سيدة ذكية مليئة بالعطف والنشاط إلى أبعد الحدود. ولكن المرأة التى جلست إلى جانبها وحادثتها فى الفترات القليلة التى كانت تفيق فيها من تأثير المخدر كانت "قديسة" لم أر جلالا ورهبة وجمالا كما رأيت ذلك كله

فى وجه هذه المرأة وهى على أبواب النهاية، وكنت أنوى أثناء زيارتى لها أن أواسيها بقدر ما أستطيع على أنى كنت فى الوقت ذاته - وكانت الحرب العالمية الثانية لا تزال مشتعلة - أحس بمرارة شديدة لأنى كنت أحب ألمانيا، ثم أنى كرهت ألمانيا بعد أن تغير وجهها بالعدوان الوحشى على الآخرين، ولكن هذه السيدة حاولت أن تزيل مرارتى ... مرة بالتأنيب ومرة أخرى بالمرح، ولم يبد على وجهها بادرة واحدة للغضب، بل قالت : لقد فقدت ألمانيا عقلها، وقد حدث هذا من قبل، أنها نوبة من نوبات الجنون الألمانى سوف تنقضى ولكن عليك ألا تسلمى نفسك لشعور الكراهية، لأنه إذا كره الجميع فسوف تزداد الكوارث ولن تنتهى. ولابد أن يكون هناك مجموعة لا تكره، بل تكافح لأن الكراهية تحول دون إعادة الأمور إلى طبيعتها والأمور يجب أن تعود إلى طبيعتها والناس يتغيرون، وأنا أؤكد لك أنهم يتغيرون ..حاربى النازية وكافحيها ولكن لا تتخلى عن الأمل ولا تكرهى الألمان ووجدت أن كل ما مر بهذه المرأة أو ببلدها لم يهز عقيدتها الإنسانية ولا إيمانها بشعوب البشرية جمعاء".

وتخرج الكاتبة الأمريكية بعد ذلك من هذه القصة الإنسانية الواقعية بحكمة عامة تقول: " أنى أورد قصة هذه المرأة كمثال نادر للشجاعة والقدرة على السعادة وأنا واثقة أنه لا يوجد كثيرون من أمثالها وقد يكون من السهل أن يتكلم الإنسان وهو يواجه الموت كما تكلمت هذه السيدة، ولكن ليس من السهل أن يتكلم بنفس الطريقة وهو يمر بالحياة ومراحلها المختلفة، فالإنسان أشجع فى وجه المصائب، ولكنه كثيرا ما يفقد شجاعته عندما يواجه خيبة أمل طفيفة فى الحياة. ولكن من منا لا يرى أمامه أشخاصاً يواجهون هذا النوع من الشجاعة، وهو نوع نراه فى الأفراد البسطاء ذوى الموارد الضئيلة، أكثر مما نراه فى الطبقات المتعلمة الغنية المعقدة المتمدينة. وكثيراً ما نتساءل كيف يتحمل هؤلاء البسطاء أحوالهم ومصائبهم وعدم استقرارهم الاقتصادى، أو كيف يتحمل شخص أن يرى أمامه

أبنا مشوها أو معتوها، وكيف يتحمل البعض سوء حظهم وخيبة آمالهم وضياع مساعيهم فى الحياة. أننا نرى أمثال هؤلاء ونرى أنهم لا يفقدون الأمل أبداً. وهناك أرواح تقبل السعادة لأسباب بسيطة مثل : أن تكون الشمس ساطعة، أو أن تسمع كلمة ترحيب بها من جار لها، أو لأنها سمعت الضحكة البريئة التى يطلقها أحد الأطفال.

تلك هى الصورة الحية التى ترسمها الكاتبة الأمريكية لصديقتها التى لم تعرف البكاء فى أشد المصائب والمحن، وأخطرها محنة المرض الذى حاصرها ولم تستطع أن تنجو منه، ولكنها مع ذلك حافظت بارادتها على روحها المعنوية، وعلى إيمانها بالأمل فى مستقبل الإنسان والحياة، ولم تتوقف عن بذل جهدها لمساعدة الآخرين كلما كانت قادرة على ذلك، ورفضت السماح لشعور الكراهية أن يسيطر عليها، فالكراهية مرض مدمر للنفس ومدمر للحياة. وأجمل مافى هذه المرأة أنها رفضت أن تغرق فى بحر من الدموع، رغم أن كل الظروف من حولها كانت تبرر لها ذلك وتغريها بأن تبكى ولا تكف عن البكاء ولكنها بدلا من ذلك أخذت تعمل وتقاوم وتبعث الأمل والإيمان بالحياة فى كل من يعيشون حولها. وظلت على هذه الحالة المعنوية العالية حتى النهاية.

الذى تمتلئ نفسه بالكراهية سوف يعيش فى ظلام دائم ولن يرى فى نفسه أو فى حياته شعاعا واحدا من النور.

والذى يستسهل البكاء كلما واجهته محنة أو خاب أمله فى شئ، فسوف يغرق فى بحر دموعه ولن يصل إلى شاطئ النجاة.

أما الذين يصبرون ويتدربون على الأمل والعمل والتحكم فى دموعهم واحتمال خسائرهم التى ليس لهم فيها يد ولا حيلة، فهم وحدهم الذين سوف تمتلئ حياتهم بالنور، وهم وحدهم الذين سوف يشعرون بسعادة حقيقية نابعة من أنفسهم، وهم القادرون - فى رضاء تام - على الاستغناء عما لا يحتاجون إليه أو لا يقدرون عليه، كل ذلك دون أن يصيبهم ندم أو حسرة أو أشفاق على النفس.

الفصل

5

ما أصعب كتمان السر على قلب المرأة !

- لماذا تعجز المرأة عن كتم الأسرار؟!
- أغرب حادث انتحار فى التاريخ!
- آفة الشعور بالعظمة تقطع كل الأسباب بين مشاعر الرحمة وبين السلطان!

هل تستطيع الزوجة أن تحتفظ بأسرار زوجها عندما يقول لها: إننى أقوم بتدبير مؤامرة وسوف اشترك فى جريمة قتل تتم بعد أيام ؟!

هل تستطيع المرأة أن تحتفظ بالسر ؟ . هذا السؤال يجيب عنه الكثيرون بأن المرأة بطبيعتها عاجزة عن كتمان الأسرار. وأن السر إذا عرفته امرأة واحدة فإنه ينتشر بين الجميع ولا يصبح سرا. والذى يريد أن يحافظ على أسراره فعليه ألا يبوح بها إلى امرأة حتى لو كانت أقرب الناس إليه.

وتفسير هذه الظاهرة ليس عسيرا، فالمرأة تعرضت على مر التاريخ لأنواع من الظلم لها والضغط عليها، وكان لذلك نتيجته المنطقية، وهى أن تصبح المرأة كما جرت العادة على تسميتها "الجنس الضعيف" والضعفاء فى العادة لا يستطيعون أن يتحملوا المسئوليات الصعبة، ومن بين هذه المسئوليات مسئولية الاحتفاظ بالأسرار وكتمانها وعدم الإفصاح عنها للآخرين. ولاشك أن تطور المجتمعات الإنسانية الحديثة ساعد على تقوية شخصية المرأة، وتربيتها على الاستقلال بنفسها حتى لا تظل طيلة حياتها معتمدة على غيرها من الأزواج والآباء أو الأخوة والأبناء، وعندما تصبح شخصية المرأة قوية ومستقلة، فإنها تكون مثل الرجل تماما فى القدرة على تحمل المسئولية، وعدم الخوف منها، والمرأة القوية

المستقلة تستطيع أن تحفظ الأسرار ولا تبوح بها، أما المرأة الضعيفة الخائفة من نفسها ومن الحياة فهى التى لا يمكنها أن تحتفظ بالسر، ولا تستطيع أن تقاوم رغبتها فى أن يشاركها الآخرون فى أسرارها، واحتمال عبء الاحتفاظ بهذه الأسرار فى قلبها وحده.

على أن التاريخ يقدم لنا نماذج حية للمرأة القوية التى تستطيع أن تحتفظ بالأسرار وتصونها بصورة كاملة، وهذه النماذج التاريخية وإن كانت قليلة ومحدودة، إلا أنها تثبت أن المرأة ليست ضعيفة بطبيعتها ومنذ ولادتها، بل إن الضعف يأتيها من الظروف التى تعيش فيها والضغوط التى تقع عليها، فتصبح بالتدريج شخصية ضعيفة لا تقوى على الاحتفاظ بالأسرار، وتسارع بكشفها والبحث عن آخرين يشاركونها فى معرفة هذه الأسرار والتصرف فيها.

وهذه إحدى الشخصيات النسائية القوية التى يقدمها لنا التاريخ القديم، وهى شخصية "بورشيا" زوجة " بروتس" وبروتس هو الزعيم الرومانى الكبير الذى اختاره المتآمرون على قتل "يوليوس قيصر" ليكون قائدا لهم، بحكم مكانته العالية، وسمعته الطيبة بين الشعب الرومانى، وقد تحدث التاريخ عن شخصية "بورشيا" زوجة بروتس، وقال المؤرخون عنها إنها كانت امرأة قوية شجاعة، وإنها وقفت إلى جانب زوجها فى أصعب الظروف وعرفت أسراره الخطيرة، ولم تنطق بكلمة واحدة عن هذه الأسرار، وظلت قوية إلى النهاية، وقدمت بذلك نموذجا نادراً إلى أبعد الحدود لقدرة المرأة - إذا أرادت- على أن تحفظ السر ولا تكشفه لأحد.

كان "بروتس" زوج "بورشيا" زعيما محبوبا من زعماء الرومان فى عصر "يوليوس قيصر".

وكان يوليوس قيصر نفسه يحبه ويقدره ويثق به كل الثقة، وكان "بروتس" من أشد المؤمنين بالنظام الجمهورى فى روما والذى كان يعتمد على وجود "مجلس الشيوخ" يحاسب الحاكم، ويتابع أعماله،

ويوافق عليها أو يرفضها أو يقوم بتعديلها. وهو نظام يختلف عن نظام الاستبداد الذى يقوم على حكم فرد واحد، يملك أن يصدر ما شاء من القرارات، ويفرضها على الجميع ولا يستطيع أن يعارضه أحد، أو يرى رأياً مختلفا عن رأيه، وقد كان يوليوس قيصر نفسه حاكما جمهورياً، يعرض قراراته على مجلس الشيوخ، ولا ينفرد وحده بالسلطة دون أن يستشير أعضاء المجلس ويحصل على تأييدهم له. ولكن "قيصر" استطاع أن يحقق لبلاده انتصارات عسكرية كبرى لم يسبق لأحد أن حققها من قبله، ومع ضخامة هذه الانتصارات واتساعها بدأ "قيصر" يشعر أنه جدير بأن يخرج من النظام السياسى القائم فى روما، ويصبح ملكا على البلاد، ويضع التاج فوق رأسه، وتصبح كلمته هى العليا، ويصبح الآخرون جميعاً مطيعين له. وقد كان قيصر قويا وكانت له هيبة عظيمة، إذا تكلم سكت الجميع وأنصتوا إليه فى إجلال، ولم يجرؤ أحد على أن يرفع صوته وكان "انطونيو" - وهو من كبار أنصار قيصر ومساعديه وقادته العسكريين الأشداء - يعلن أنه " إذا قال قيصر افعل هذا، أصبح أمره نافذا على الفور".

ومع ذلك كله فإن "قيصر" كان متحفظا من أن يعلن نفسه ملكا على روما، وكان ينتظر المناسبة التى تساعده على اتخاذ القرار، ولعله كان يتصور أن انتصاراته الكبرى سوف تدفع أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى أنفسهم على اتخاذ هذا القرار من جانبهم، وبذلك يكون قد وصل إلى ما يريده بطريقة شرعية لا تتعارض مع القوانين السائدة فى البلاد. وكان "قيصر" يرى أن تنصيبه ملكا على عرش بلاده هو "مكافأة" له يستحقها بفضل انتصاراته التى لم يحققها أحد قبله، ومن ناحية أخرى كان يرى أن تحويل النظام فى الامبراطورية الرومانية من جمهورية إلى ملكية هو الحل الوحيد لوضع حد للحروب الأهلية المنتشرة فى أنحاء الأمبراطورية وما ينتج عنها من فوضى واضطراب. أى أن هدف قيصر من تحويل

نفسه إلى ملك كان هدفا يجمع بين الطموح الشخصى من جانب وخدمة المصلحة العامة من جانب آخر.

وقد أحس زعماء روما بميول "قيصر" إلى الاستبداد بالسلطة، وملأ الخوف قلوبهم من أن يفاجئهم "قيصر" بإعلان قراره وتنفيذه بالقوة العسكرية التى يملكها ويسيطر عليها، فبدأوا يجمعون صفوفهم ويدبرون مؤامرة شديدة الإحكام والقوة للتخلص من "قيصر" والقضاء عليه قبل أن يقوم بتنفيذ ما يحلم به من الانفراد بالأمر، والاستبداد بالسلطة، والقضاء على نفوذ مجلس الشيوخ وأعضائه جميعا، ولكن كيف يمكن أن تنجح هذه المؤامرة الخطيرة؟ وكيف يمكن أن يستدرج أعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم بقتل قيصر، وذلك عند حضوره للمشاركة فى جلسة من جلسات هذا المجلس والتى كان تاريخها هو ١٥ مارس سنة ٤٤ قبل الميلاد؟.

كيف يستطيع زعماء روما أن ينفذوا هذه المؤامرة الكبيرة، ضد رجل فى حجم "قيصر" يقود جيشاً قوياً كبيراً، ويحظى بإعجاب جماهير شعبه الرومانى وتأييدهم له؟

أخذ زعماء روما يبحثون عن طريقة تضمن لهم النجاح فى مؤامرتهم وتساعدهم على التخلص من "قيصر"، بقتله فى مجلس الشيوخ بيد أعضاء هذا المجلس أنفسهم، واتجه الرأى بين المتآمرين إلى ضرورة ضم "بروتس" إليهم، بل وتسليم زعامة المتآمرين له. ولم يكن هذا الأمر سهلا فقد كان "بروتس" صديقا لقيصر، وكان قيصر يحبه ويثق به، وكان "بروتس" من جانبه يحب قيصر ويعرف قيمته ويحفظ له مكانته ويحمل له الإجلال والتقدير. فكيف يمكن أن يتحول هذا الصديق القريب من قلب قيصر إلى متآمر يشارك فى قتل الرجل الذى أحبه، ولم يشعر لحظة بالشك فيه؟ لقد اعتمد المتآمرون على "ورقة " واحدة فى أيديهم هى أن بروتس كان رجلا معروفا بالاستقامة الأخلاقية، وكان رجلا من رجال المبادئ والمثل العليا. وكان النظام الجمهورى فى نظر بروتس هو النظام

الوحيد الصحيح الذى يحفظ الناس كرامتهم وحريتهم ويحميهم من الطغاة والمستبدين. كان "بروتس" صديقا حقيقياً للحرية، وكان يحمل فى قلبه عداء كاملا للاستبداد والطغيان. ولم يكن "بروتس" من الذين يظنون أن قيصر يمكن أن يخطو هذه الخطوة المهلكة، فيعلن نفسه ملكا، ويفرض على الناس حكمه المستبد، ويلبس تاجا ويجلس على العرش، ويصبح صاحب الكلمة الواحدة الآمرة والنافذة فى كل شئون العباد والبلاد. ومن هنا حاول المتآمرون أن يبدأوا عملهم فى استمالة "بروتس " إلى صفهم باستغلال هذه "الورقة" الوحيدة فى أيديهم وهى "الورقة الأخلاقية أو المبادئية"، أى تحريض "بروتس" على المشاركة فى المؤامرة، بعد إقناعه بأن قيصر قد أصبح خطرا على تلك المبادئ العزيزة على قلب "بروتس"، وبخاصة مبدأ الإيمان بالحرية، وكراهية الاستبداد، والاستعداد للدفاع عن النظام الجمهورى حتى آخر نفس فى حياته، فالجمهورية عند "بروتس" هى التجسيد الحى للحرية الصحيحة، وهى الضمان الكامل لعدم ظهور مستبدين طغاة يحكمون بأمرهم، ويرفضون مبدأ الشورى ومشاركة الشعب عن طريق مجلس شيوخه فى السلطة.

وبدأ المتآمرون" يوسوسون " فى قلب " بروتس" بما يريدون، وينبهونه إلى أن حبه لقيصر قد أعماه عن المخاطر الشديدة التى تهدد الجمهورية، وأن قيصر أصبح على وشك التحول إلى طاغية مستبد، وأصبحت روما على وشك الخضوع له وإعلانه ملكا على رأسه تاج، وله عرش وبلاط وقوة غير محدودة لا يشاركه فيها أحد.

وبدأ "بروتس" يفكر فى الأمر، ولم يكن "بروتس" من الرجال ذوى العقل الخفيف، بل كان رجلا مثقفا عميق التفكير كثير التأمل فى الأمور، ولذلك عاش فى حيرة وقلق قبل تنفيذ المؤامرة، وبعد أن كشف له المتآمرون عن خطتهم وطالبوه بالمشاركة فيها، بل وعرضوا

عليه زعامته للمتآمرين جميعا. كان "بروتس" يحمل هما كبيراً فى قلبه وعقله، وكان يشعر بصراع فى داخله يشبه العاصفة كما قال عنه أحد المؤرخين إنه كان " رجلا يحارب نفسه". فهو يحب "قيصر" ولكنه يكره الطغيان وهو مستعد للتضحية بأى شئ وبأى إنسان، حتى لو كان صديقه قيصر نفسه، إذا أحس بالخطر على الجمهورية التى يؤمن بها ويقدسها ولا يرى لها بديلا وقد أخذ يراجع معرفته بقيصر بعد أن نبهه المتآمرون إلى اتجاهه لأن يصبح ملكا لا يشاركه أحد فى السلطة، ولا يخضع فى رأى أو قرار لمجلس الشيوخ ولاحظ " بروتس" أن هناك علامات تدل على صحة الاتهام الموجه لقيصر، فقد ازدادت ثقة قيصر بنفسه حتى كاد يصبح مغرورا يضع نفسه فوق الناس وفوق الأحداث، وكان قيصر شجاعا إلى حد مخيف، ولاشك أنه عندما يقرر أن يصبح ملكا فسوف يقدم على هذه الخطوة دون أن يخشى أحد.

ألم يسمع "بروتس" من قيصر قوله : "يموت الجبان سبعين مرة قبل أن يموت، ولكن الشجاع المقدام لا يذوق الموت إلا مرة واحدة"، وسمع "بروتس" قيصر يقول" "إن الخطر ليعلم علم اليقين أن قيصر أشد خطرا منه ".

أليست هذه كلها علامات تشير إلى أن قيصر يتجه حقا إلى تحويل الجمهورية إلى نظام ملكى قائم على الاستبداد والانفراد بالسلطة واتخاذ القرارات؟

أليس هذا الموقف الذى يستعد له قيصر هو خيانة للجمهورية والحرية واعتداء عليهما لا يمكن غفرانه؟ لقد اقتنع "بروتس" بصحة ما قاله المتآمرون. ولكن هل يشترك "بروتس" فى مؤامرة لقتل صديقه قيصر؟ كيف يقابل محبة قيصر له وثقته فيه بالغدر والخيانة؟ وكيف يستطيع أن يقنع نفسه بالمشاركة فى قتل قيصر وهو يحبه ويقدره ويعتبره من أقوى الرجال فى تاريخ الرومانيين وأعلاهم شأنا، وأكثرهم نفعا لبلاده، وأفضلهم قدرة على حمايتها

وتوسيع رقعتها والانتصار على اعدائها المختلفين؟

لقد قضى "بروتس" أياما عسيرة جداً وهو يفكر فى هذا الأمر المعقد الصعب، وعاش وهو فريسة لصراع كبير يكاد يقوده إلى الدمار والانهيار.

وأحست زوجته "بروشيا" بما يعانيه زوجها من القلق العاصف، ولم يكن الأمر سهلا على زوجة محبة صادقة فى حبها مثل "بروشيا"، ولم تكن هذه الزوجة القوية الجميلة التى تنتسب لأعرق العائلات الرومانية، ويجرى فى عروقها دم النبلاء والاشراف، تستطيع أن تقف صامتة أمام ما أحسته ورأته بعينيها من قلق يعصف بحياة زوجها الحبيب ويظهر على وجهه ويؤدى به إلى الصمت الطويل، وعدم القدرة على النوم الهادئ وعدم الاستقرار فى تحركاته المختلفة، ورغبته فى أن ينعزل بنفسه على غير عادته دون أن يبوح لزوجته بما يعانيه.

كانت "بروشيا" تدرك أن زوجها يخفى فى داخله سراً كبيراً، وقد أحست بفطرتها السليمة أن هذا السر خطير وليس سرا سطحيا قليل الشأن، وأصرت على أن تعرف هذا السر، لتشارك زوجها فى قلقه، وتحمل عنه بعض همه وكان "بروتس" مترددا إلى أبعد حد فى البوح بسره الخطير، فليس هذا السر من الأمور البسيطة الهينة التى يمكن كشفها بين زوج وزوجته، أو الحديث فيه " على المكشوف".

كان " بروتس: قد توصل إلى قرار بالمشاركة فى المؤامرة ضد قيصر، وكان يبرر ذلك بقوله لنفسه إنه يحب قيصر ولكنه يحب روما أكثر من قيصر، ومن أجل روما والنظام الجمهورى الذى يؤمن به "بروتس" سوف يقود "بروتس" المؤامرة ضد حبيبه وصديقه "قيصر" ولكن "بروتس" لم يصل إلى هذا القرار بسهولة، فقد تعذب كثيراً وأحس بالقلق. وتعرض للأرق، وعاش أياما مليئة بالتمزق والهموم.

والمؤرخون يسجلون هذه الأحداث جميعا، وأهم هؤلاء المؤرخين هو "بلوتارك" وهو يونانى له كتاب مهم جداً فى أحداث التاريخ الرومانى وأسمه "شخصيات تاريخية متوازية" وفيه يتحدث عن تاريخ اليونان والرومان، وهناك إجماع على أن "بلوتارك" يعتبر "أعظم المؤرخين فى العالم القديم" وكان يتحدث عن الشخصيات التى يؤرخ لها ومنها " قيصر" و" بروتس" بأمانة ونزاهة وحرص على دقة المعلومات التى يقدمها ورغم أنه كان يونانيا معتزا بيونانيته وكان بين اليونان والرومان صراع ومنافسة، إلا أن "بلوتارك" تحدث عن الشخصيات الرومانية بمنتهى الإنصاف والتجرد. وتعود أهمية "بلوتارك" بعد ذلك كله إلى أنه ولد سنة ٤٦ ميلادية، بينما وقعت حادثة مقتل "يوليوس قيصر" سنة ٤٤ قبل الميلاد. أى أن بلوتارك قد ولد بعد مقتل قيصر بتسعين سنة وعندما نضج وبدأ يكتب كتابه كان قد مر على مقتل قيصر ما لايزيد على مائة وعشرين عاما، فالمؤرخ "بلوتارك" يعتبر إلى حد كبير أقرب المعاصرين إلى الحادث الخطير، حيث كان أبناء المشاركين فى هذا الحادث وأحفادهم لايزال بعضهم على قيد الحياة. وإذا عرفنا أن "بلوتارك" كان رجلا واسع الثقافة، ولديه ضمير علمى رفيع، وكان شديد التدقيق والحرص فى جمع المعلومات والتثبت من صحتها قبل أن يسردها فى كتابه المعروف، وقبل أن يقدم لها أى تحليل أو تفسير .. إذا عرفنا هذا كله فإننا نستطيع بذلك أن نثق إلى حد بعيد بما يقوله، وقد تحدث "بلوتارك" عن قلق بروتس وحيرته وعن الصراع الكبير الذى عانى منه فى داخل نفسه قبل أن يصل إلى قراره بالاشتراك فى مؤامرة اغتيال قيصر، بل وأن يصبح زعيما للمتآمرين فى هذه الجريمة.

وعلى أساس المعلومات التاريخية الواردة فى كتاب "بلوتارك" كتب شكسبير مسرحيته الشهيرة "يوليوس قيصر" واستطاع شكسبير بعبقريته الفنية أن يلتقط الإرشادات التاريخية المختلفة فيما كتبه

المؤرخ "بلوتارك" وينسج منها تلك المأساة الخالدة، وهى مأساة "يوليوس قيصر".

وقد توقف شكسبير فى مسرحيته، بطريقته الناعمة المليئة بالتركيز والتكثيف والموسيقى أمام العديد من المواقف فى هذه المأساة وأهمها موقفان: الأول هو "القلق" الذى استبد بقلب " بروتس" وعقله وحياته قبل أن يتخذ قراره بالمشاركة فى قتل صديقه وحبيبه "يوليوس قيصر" بحجة أن مقتل قيصر سوف يؤدى بالبلاد إلى النجاة من الاستبداد الذى يخطط له قيصر. واقتنع "بروتس" بعد صراع هائل مع نفسه أن الواجب الوطنى يحتم عليه الاشتراك فى المؤامرة، وأن الواجب عندما يصطدم بالعاطفة الشخصية فأن الإنسان ينبغى أن ينحاز إلى الواجب ويترك العاطفة جانبا. وهكذا فعل "بروتس" لأنه كان من الرجال الذين يقدسون الواجب ويرفعونه فوق كل اعتبار، على أنه لم يصل إلى هذا القرار فى سهولة ويسر، بل عانى منه معاناة روحية دقيقة وعنيفة وعاصفة. وهذا القلق هو ما يصوره لنا شكسبير فى مسرحيته حيث يقول على لسان بروتس " لا عاصم لنا من طغيان قيصر إلا موته. وليس فى نفسى أية كراهية له، ليس عندى ما يجعلنى أهجره وألقى به وراء ظهرى ناقما عليه، لولا أننى أريد الإصلاح ما استطعت، وهو يريد أن يكون ملكا علينا مما يمكنه من البطش بنا متى يشاء. إن آفة الشعور بالعظمة تقطع كل الأسباب بين مشاعر الرحمة وبين السلطان.والحق أقول : إننى لم أعهد فى "قيصر" أن هواه يغلب عقله.ولكن يبدو أن الذين ينافقونه قد هيأوا له أن يطلب علوا فى الأرض، حتى إذا بلغ أعلى الدرجات، ونظر إلى النجوم، أصبح يزدرى درجات السلم التى صعد عليها إلى السماء. إن قيصر ازداد بأسا على بأسه اليوم، ولسوف ينطلق إلى آفاق من التطرف فى بأسه لا يمكن الوقوف ضدها .. وعلينا أن نقتله قبل أن يفقس بيضة الاستبداد بما فيها من أذى وإضرار".

هذا بعض ما يقوله "بروتس" لنفسه قبل أن يقرر الاشتراك فى المؤامرة ضد صديقه قيصر. على أن شكسبير قد وقف أمام لحظة نادرة أخرى، وهى إلحاح "بروشيا" على زوجها لكى يفضى إليها بالسر الذى يقلقه ويشغل باله ويحرمه من النوم، وقد وجدته مترددا فى أن يفضى لها بالسر. إن الزوجة التى اختارها "بروتس" له كما يقول أحد الباحثين الإنجليز " لابد أن تكون جديرة بأن تشارك زوجها أسراره وأن تكون سندا له فى متاعبه " وقد طعنت "بروشيا" نفسها بخنجر فى فخذها فسالت منه الدماء أمام زوجها لتقدم إليه دليلا على قوة إرادتها وقدرتها على أن تحفظ السر، ثم توسلت إلى زوجها أن يكشف لها عن سره، وقالت له كما جاء فى مسرحية شكسبير "كلا .. يابروتس.. إن فى رأسك علة دبت فيه، وبحق ما بيننا لابد أن أعرف حقيقة هذه العلة.. هآنذا أركع بين يديك، عسى أن تلين لجمالى الذى كنت تشعر نحوه بالإعجاب والإكبار .. وأريدك أن تفضى إلىّ بما يثقل كاهلك من أسرار .. فأنا منك وإليك .. وأنا زوجتك".

وأمام هذه الكلمات القوية الصادقة اعترف "بروتس" لزوجته بسر المؤامرة التى أصبح زعيما لها، وكان هدفها قتل صديقه قيصر، وسمعت "بروشيا" السر وحافظت عليه وقالت لنفسها - كما جاء فى مسرحية شكسبير- " ألا يا قوة الإرادة كونى لى نصيرا. إن لى قلب رجل، وإن كان حظى هو "ضعف امرأة وما أشق كتمان الأسرار على قلب أنثى ". ولكن "بروشيا" كتمت سر زوجها وساندته وأيدته، وأثبتت أن المرأة إن كانت قوية وصادقة فى حبها فإنها تستطيع أن تكتم السر، وحتى لو كان سرا خطيرا مثل سر " بروتس".

ومضت الأيام فى طريقها.

وتمت المؤامرة وقاد "بروتس" المتآمرين فى مجلس الشيوخ الرومانى فى ١٥ مارس سنة ٤٤ قبل الميلاد، فقتلوا قيصر وغمسوا أيديهم فى دمه، وصرخ قيصر صرخته الشهيرة قائلا " حتى أنت يا

بروتس" وفى رواية أخرى أنه قال "حتى أنت يا ولدى"، لأن قيصر كان يحب "بروتس" ويعتبره ولده، ولا يتصور منه الغدر والخيانة.

ولم يكن مقتل قيصر حلا للمشكلة كما تصور " بروتس"، فقد اشتعلت الحرب الأهلية بين أنصار قيصر وبين الذين قتلوه وعلى رأسهم "بروتس" . وانهزم "بروتس" فى هذه الحرب، فطعن نفسه بالسيف وانتحر، وعندما سمعت زوجته "بروشيا" بهزيمة زوجها كادت تفقد عقلها وتجن، ثم اتخذت قرارا بأن يصير مصيرها هو مصير زوجها الحبيب، فانتحرت هى الأخرى، ولكن انتحارها تم بوسيلة من أغرب الوسائل وأعجبها وهى أنها ابتلعت جمرات من النار قضت عليها وأسكتت أنفاسها .ولم تنتحر بالسم كما هى عادة النساء المنتحرات، إذ أن السم لا يغير وجه المرأة ولا جسمها بعد الموت، وحتى فى الموت تحرص المرأة ألا يتعرض وجهها أو جسمها للتشويه. ولكن " بروشيا " لم تعبأ بما يحدث بعد موتها لوجهها أو جسمها، لأنها كانت تفكر فى شئ واحد هو أن تشارك زوجها الحبيب فى مصيره الأليم بعد أن احتفظت بسره الخطير ولم تبح به لأحد.

ملحوظة :

المصادر الأساسية لهذا الفصل هى :

١- قصة الحضارة للمؤرخ الأمريكى ويل ديورانت - الجزء التاسع، ترجمة محمد بدران.

٢- مسرحية "يوليوس قيصر" لشكسبير ترجمة الدكتور محمد عواد العسيلى . "

الفصل

6

زواجها باطل وقلبها مجروح

- هل يمكن أن يتحول الحب إلى صفـقةتجارية تقوم على حساب المكسب والخسارة؟!
- الحب أعادها من الموت!
- الجميع معرضون لأن ينسوا كل شيء ماعدا أنفسهم!

هل يمكن أن يتحول الحب إلى صفقة تجارية تقوم على حساب المكسب والخسارة؟ ...

فى الإجابة الأمينة عن هذا السؤال لابد أن نقول إن هذا الأمر يحدث فى كثير من الأحيان، وهو خطأ يتكرر فى حياة الناس، فالبعض ينظرون إلى "الحب" ليس على أنه عاطفة صادقة تنبع من القلوب، ولكن على أنه عملية من عمليات التجارة تتحكم فيها الجيوب، فعندما يكون الحب مصدرا للمال أو السلطة والنفوذ فهو عند أصحاب العواطف التجارية ناجح ومقبول، أما عندما يكون الحب خالصا لوجه الحب وليس فيه أى إغراء مادى، فإنه لا يكون عندهم أيضاً حب حقيقى، وإنما يكون اندفاعا خاليا من المنفعة وينبغى الوقوف فى وجهه والاعتراض عليه.

وقد عرفت الإنسانية فى عصورها المختلفة هذا النوع من "الحب التجارى" الذى يحسب العواطف بالأرقام. فالمرأة التى تؤمن بهذا الحب التجارى تبحث عن زوج غنى، وتنظر إلى ممتلكاته قبل أن تنظر إلى الرجل نفسه وإلى قلبه وعقله وصفاته وأخلاقه، والرجل الذى يؤمن بهذا الحب التجارى يفكر بنفس الطريقة، ويحاول دائما أن يبحث عن زوجة يكون أبوها صاحب مال أو سلطان. وهو لا ينظر إلى صفات المرأة نفسها، وحتى لو كانت هذه المرأة شيطانا من الشياطين، فذلك أمر غير مهم مادامت تملك ثروة، أو تملك عن

طريق عائلتها نفوذاً أو سلطة.

وقد أثبتت التجارب الإنسانية أن مثل هذا النوع من "الحب" لا يمكن أن ينجح أو يستمر. ,أنه دائم التعرض للأزمات . كما أن مثل هذا الحب لا يحقق السعادة لأصحابه بأى صورة من الصور، لأن أهدافه خارجية وليس له هدف حقيقى قائم فى قلب الإنسان وروحه وحياته المعنوية.

أعرف صديقا لى كان يفكر بهذه الطريقة ويرى أن الزواج ليس إلا وسيلة للنجاح فى المجتمع، وأن التفكير فى إقامة الزواج على أساس العاطفة الخالصة وحدها ليس سوى نوع من العبث وإضاعة العمر فيما لا ينفع ولا يفيد، وقد كان صديقى شابا جميلا وسيما، وكان يعمل فى مؤسسة ناجحة، وكان هو نفسه من الناجحين، ولكنه كان شديد الطموح، يريد أن يصعد إلى القمة الاجتماعية والمادية، فيصبح فى أسرع وقت غنيا وصاحب نفوذ كبير.ولم يكن بالإمكان تحقيق ذلك بالسرعة التى يريدها إلا إذا ارتبط بزوجة من أسرة يمكن أن تساعده على تحقيق هدفه، وهو الغنى السريع والنفوذ القوى، وكل شئ غير ذلك باطل ولا جدوى منه. والتطور الطبيعى لا يمكن أن يحقق لهذا الشاب طموحه الكبير.

وقد ظل هذا الشاب يترقب الفرصة حتى وجدها . فتقدم للزواج من ابنة مسئول كبير. وسألته يومها : هل تحب هذه الفتاة التى وقع عليها اختيارك؟ فأجابنى بانه يحبها على طريقته. فهى ابنة رجل مهم وهذا يكفيه لكى يفتح لها قلبه، ويحقق معها السعادة التى يحلم بها، لأنها سوف تكون عونا فى تحقيق التقدم الاجتماعى السريع، والثراء العاجل، وسوف يتم ذلك كله له عن طريق والد زوجته.. ذلك المسئول الكبير وصاحب النفوذ الواسع.

وتزوج صديقى من فتاة أحلامه، ابنة الرجل المهم. وبعد سنوات قليلة تغيرت الدنيا، فخرج الرجل المهم من منصبه. وكما يحدث عادة، فإن زوال المناصب يحمل معه زوال النفوذ والأهمية، ويصبح

صاحب المنصب السابق، مثله مثل بقية خلق الله، مواطنا عاديا قد يحتاج هو نفسه فى كثير من الأحوال إلى من يساعده ويعينه على أمور حياته.

وانقلبت حياة صديقى وزوجته إلى جحيم، ودبت الخلافات بينهما حول كل صغيرة وكبيرة. وكان ذلك طبيعيا، لأن الزواج قام على أساس صفقة تجارية عملية، وهذه الصفقة لم يكتب لها الدوام والاستمرار، وعندما جاءت اللحظة التى يحتاج فيها الناس إلى عواطفهم الحقيقية لتحميهم من تقلبات الأيام لم يجد صديقى شيئا فى قلبه يمده بالعون والقوة، فأصبحت زوجته عبئا عليه، وأصبح هو نفسه عبئاً عليها، وانتهى الأمر بالطلاق بعد سنوات قليلة من زواج غير سعيد، كانت نتيجته طفلين بريئين، لا يعلمان سر هذا الاختلاف الذى أنشب أظافره فى حياة الأب والأم، وأفقد الجميع معنى السعادة.

ومن يومها وأنا أرى صديقى هذا مضطرب النفس يسيطر عليه التشاؤم فى نظرته إلى الحياة، وقد تزوج مرة ثانية من زوجة عادية، ولكنه فقد القدرة على أن يكون سعيداً، بعد أن تحطمت آماله الأولى فى زواج الثروة والنفوذ.

ومثل هذه القصة تحدث كثيرا. وكل التجارب تؤكد أن الحب القائم على أساس المصلحة لا يدوم. بل إنه فى الحقيقة ليس حبا، ولكنه نوع من التظاهر الكاذب بالحب، وهذا التظاهر ينتهى تماما إذا ما تغيرت الظروف التى كانت سببا فى وجوده.

وهذه قصة إنسانية جميلة من الأدب العالمى، تؤكد هذه المعانى كلها، وتثبت أن العاطفة المخلصة، هى العاطفة الصحيحة التى يمكن أن تعيش وتستمر، وأن العاطفة القائمة على المصلحة لا يمكن أن تصمد أمام أى أزمة من الأزمات، ففى الأزمات تنكشف الحقائق، وتذوب كل الشموع الزائفة، ويجد الإنسان نفسه عاريا من كل شئ إلا ما يملكه فى قلبه من عواطف صادقة، لا علاقة لها

بأيام الرخاء أو أيام الشدائد،بل إن عواطف الإنسان الصادقة تتألق وتبدو أقوى ما تكون فى أيام الأزمات، وتصبح هذه العواطف الصادقة نوعا من الحماية القوية للإنسان فى لحظة الأزمة، وعندما تهب أى عاصفة عنيفة مفاجئة.

والقصة التى أتحدث عنها هى قصة "حياة جديدة" للكاتب الإيطالى المعاصر "دومنيكو ماريامانى"، وقد ترجمها إلى العربية الأستاذ درينى خشبة. فماذا تقول لنا هذه القصة البديعة؟

لقد استوحى الكاتب الإيطالى قصته من الأجواء التى كانت تسود إيطاليا سنة ١٤٠٠ " حيث نكبت أكثر المدن الإيطالية فى هذا العام بطاعون عظيم ذهب ضحيته كثير من السكان، وكانت قرى بأكملها تصبح خلاء من أناسها وحيوانها، وكانت مدينة "فلورنسا" الجميلة من أكثر البلدان ضحايا وشهداء".

تلك هى اللحظة التى تتكشف فيها حقائق العواطف وتتعرى فيها النفوس، فهى لحظة أزمة كبيرة، هى أزمة المرض الخطير الذى ينتشر بين الناس بالعدوى، ويجعل كل فرد يهتم بنفسه فقط، ويطلب النجاة، دون أن يعبأ بمصير الآخرين.

ذلك هو السلوك " المذعور" الذى يسيطر على الناس فى مثل هذه الظروف الصعبة..ظروف انتشار "الطاعون" والتهامه لحياة الناس فى أيام أو ساعات.

والجميع معرضون لأن ينسوا كل شئ ما عدا أنفسهم. ولا ينجو من هذه الحالة التى يسيطر عليها الذعر والأنانية إلا أصحاب العواطف الحقيقية من العشاق والمحبين، فهؤلاء يظهرون فى هذه المحنة وهم مستعدون للتضحية بأنفسهم من أجل من يحبون، ولا يعبأون بالمخاطر فى سبيل إنقاذ أحبائهم، لأن نفوسهم قد صهرها الحب، وخلق فيها لونا من الشجاعة لا يعرفه إلا أصحاب القلوب الكبيرة العامرة بالعواطف الصادقة.

وفى هذه المحنة، وفى مدينة " فلورنسا"، كانت هناك قصة حب

كبيرة بين الشاب "أنطونيو" والفتاة الجميلة الساحرة "جينفرا" وكان "أنطونيو" شابا فقيرا، ولكنه كان مجتهدا فى عمله، وقد زاده حبه لفتاته قوة على قوة، ودفعه إلى مزيد من العلم والاجتهاد حتى يجمع بين يديه بعض المال الذى يجعل أسرة حبيبته تقبله زوجا لها، وقضى فى عمله وجهاده أربع سنوات متواصلة، لا يعرف الملل ولا يشكو من جهد ولا يعبأ بالتعب، حتى استطاع بعد هذه السنوات الأربع أن يجمع من المال ما بدا له كافيا لإقناع أهل حبيبته بقبول زواجه منها، وكان "أنطونيو" يعرف أن حبيبته الجميلة "جينفرا" تبادله الحب، ولا ترى لنفسها سعادة إلا معه، ولا تتحمل التفكير -لحظة واحدة- فى أن تكون زوجة لرجل آخر.

وتقدم "أنطونيو" إلى والد حبيبته مطمئنا، ولكنه فوجئ بأن الوالد يرفضه، ذلك لأن شابا من أسرة غنية اسمه "فرانسيسكو" تقدم للزواج من الفتاة، وقد وافق الأب على ذلك، إذ لا مجال للمقارنة بين "أنطونيو" و"فرانسيسكو" فالأول عاشق ولكنه فقير ومفلس، رغم ما اجتهد فى ادخاره من أموال ظنها كافية، ولكنها فى الحقيقة لا تساوى شيئا أمام ثراء "فرانسيسكو" وثراء أسرته الكبيرة . فليذهب العاشق "أنطونيو" بعشقه إلى الجحيم، وليبحث بملاليمه التى جمعها بجهده وعرقه عن فتاة أخرى فقيره مثله، ترضى به وتقبل الحياة المتواضعة معه، وفى ذلك الزمان البعيد "سنة ١٤٠٠" لم يكن للفتاة رأى و لا إرادة فى اختيار الزوج الذى تحبه، وتتفق معه وتبادله العاطفة، وترضى به دون سواه شريكا للحياة، كانت الفتاة فى ذلك الزمان مغلوبة على أمرها، فالرأى رأى أبيها وأمها. أما هى فعليها أن تسمع وتطيع.

وهكذا كان، فتزوجت "جينفرا" الجميلة زوجا لا تحبه، وقد وعد هذا الزوج أباها بأن يفرش الأرض تحت قدميها بالورد ويغرقها فى العز والرفاهية، " وذهبت الفتاة إلى زوجها جسما بلا روح، ودمية من اللحم والدم والعظم ليس لها قلب، لأن روحها وقلبها مع رجل

آخر غير هذا الرجل.. مع أنطونيو لا مع فرانسيسكو... مع الحبيب الذى منحها وجوده، وجعلها سببا لبقائه، مع الشاب الذى يملأ جوانحها بإخلاصه، ويشعلها بآماله التى هوت فى الأرض، ولكنها كانت ثابتة فى السماء".

أما " أنطونيو" العاشق فقد " أخذ يبكى من أعماقه ويكتفى بنظرة خاطفة من حبيبته عندما يلتقيان بالصدفة فى الكنائس والمسارح والمجتمعات، واقسم بينه وبين نفسه أن يعيش على ذكرى حبيبته، وألا يتصل أبدا بامرأة من بنات حواء ما دامت "جينفرا" قد أفلتت من يده، وأصبحت زوجة لرجل آخر، وحسبه أن يعرف أن قلبها له، وأن جسمها لزوجها الذى لم يكن لها يد فى اختياره، وحسبها أن يكون وفيا لحبيبته مادامت هى قد أرغمت على شئ لا يستطيع أحد أن يرغمه هو على مثله".

إنه لن يتزوج أبداً مادامت حبيبته قد أصبحت ملكا لغيره. وهى معذورة فيما حدث لها، لأنها مرغمة عليه، أما هو فلن يكون معذوراً أمام قلبه العاشق إذا تزوج من امرأة أخرى.. لأن أحدا لا يستطيع إرغامه على ذلك.ومن هنا فقد اختار أن يعيش وفيا لذكرى حبيبته إلى الأبد.

وجاءت محنة الطاعون الذى انتشر فى البلاد، بعد زواج "جينفرا" بفترة قصيرة، " ولم تسلم جينفرا من هذا الوباء، فقد أصيبت به، وتعذبت طويلا وعجز الأطباء عن إنقاذها، فأسلموها للمقادير، وأنصرفوا عنها يائسين، ولم تمض أيام حتى وقعت فريسة لنوبات جنونية كانت تعصف بها عصفا شديداً، وتعذبها عذابا أليما، وتذيب من حولها قلوب أهلها أسفا عليها، وأغمى عليها مرة إغماءة قاسية فظن أهلها أنها أسلمت الروح، وكان هؤلاء الأهل قد ضاقوا بمرضها ذرعا، وامتلأت قلوبهم منها ذعرا، لأن أنفاسها يمكن أن تصيبهم بالعدوى، ولذلك فقد أصبحت عبئا عليهم، لا يملكون الصبر على احتماله.وكان الناس فى محنة "الطاعون" لا يتورعون

أن يدفنوا مرضاهم " أنصاف أحياء" خشية استفحال الوباء، فلما أغمى على جينفرا وطال عليهم إغماؤها استقر فى قلوبهم أنها ماتت، فجهزوها مسرعين،وحملوا تابوتها إلى مدفن العائلة، وكان قبوا كبيرا تحت الأرض بعيدا عن المدينة، فدفنوها فى احتفال بسيط، ووقف زوجها وأهلها يذرفون بعض دموعهم على ثراها ثم انصرفوا. وأقبل العاشق أنطونيو بعد انصراف الجميع ليبكى وحده من قلبه الذى دفن مع حبيبته فى قبر واحد".

ويحس "أنطونيو" أن الحياة لم يعد لها معنى بعد رحيل حبيبته، وأن الدنيا مظلمة بعد اختفاء نورها من سماء حياته، فقد كان يكفيه أن تكون موجودة فى هذه الدنيا حتى يشعر بالسعادة... أما الآن فقد رحلت ولم يعد هناك قيمة لأى شئ.

والحقيقة أن "جينفرا" لم تكن قد ماتت كما توهم القوم بل كانت - فقط - فى حالة إغماء شديد. لقد هبت المسكينة من غفوتها فى العالم الآخر، فجاهدت كثيرا حتى نهضت من تابوتها، وسرعان ما عرفت مصيرها،وفهمت ماهى فيه، فلم تذعر ولم تنزعج، مع ما كانت تضيق به من برد المقبرة وهوائها الملئ بالرطوبة وريح أكتوبر القاسية، ثم أخذت تحاول التخلص من الأكفان، وكانت تسبح باسم الله وأسماء القديسين، وتتوكل عليهم فيما هى فيه من أزمة وضيق، وكان شعاع صغير من أشعة القمر قد تسلل إلى داخل القبر من شق صغير فيه، فكان هذا الشعاع لها فى شدتها مثل بسمة للأمل الذى ضاعف جهادها فى سبيل الحياة، واستطاعت بصعوبة أن تتخلص من بعض أكفانها، وأن تخطو فى ضعف وإعياء نحو باب القبر، وتهالكت على نفسها حتى صعدت فوق الدرج، وهناك جلست لتستريح لحظة، وتستعد لما أمامها من عمل، حتى إذا أحست فى ذراعيها قوة بدأت تعالج الحجارة التى تسد باب القبر، والتى كانت تتماسك بطبقة رقيقة من "المونة" كانت لا تزال لينة رطبة، فكان من السهل على جينفرا أن تزيل جزءاً منها، بحيث أحدثت ثغرة تكفى

لخروجها فى شئ من الصعوبة وقليل من العناء وشجعها ماكانت فيه من هلع على نفسها داخل القبر، وما حققته من نجاح فى سبيل النجاة، فاحتملت برد الليل وقسوة الريح ووحشة الوادى، فأخذت تخطو بقدمين متخاذلتين فى الطريق المقفر إلا من أشعة القمر، المجرد إلا من عشب هنا وعشب هناك، حتى وصلت إلى المدينة ...".

واتجهت "جينفرا " إلى بيت زوجها "فرانسيسكو" الذى كان جالسا إلى جانب المدفأة، يجتر أحزانه لفقد عروسه التى لم يسعد بها أكثر من ثلاثة أشهر ثم خطفها منه الطاعون.

وطرقت "جينفرا" الباب طرقات خفيفة، فخرج زوجها ليعرف من ذلك الذى جاء يطرق بابه فى هذا الوقت المتأخر من الليل.

وأصيب الزوج بالذعر الشديد عندما رأى شبح زوجته وتصور أنها لم تكن هى، بل كانت روحا، فركع أمامها وتوسل أن تذهب بعيداً، فلما لم تذهب أغلق الباب فى وجهها، وعاد إلى فراشه وهو يرتعد من الخوف، وقال لنفسه إنه لابد أن يتصدق كثيرا على روح زوجته حتى تهدأ ولا تطارده مرة أخرى.

وبكت "جينفرا" وأخذت تقول لنفسها ما معناه : هل هذا هو الحب الذى كنت تظهره لى يا فرانسيسكو؟ لابد أننى كنت عبئا عليك، تسعى إلى الخلاص منه فى أول فرصة، ولابد أن حبك لى لم يكن حقيقياً بل كان مجرد مشاعر زائفة.

وتذكرت أن بيت أبيها قريب .. فاتجهت إليه. وحدث لها أمام بيت أبيها نفس ما حدث أمام بيت زوجها، فعندما رأها أبوها ورأتها أمها أغلقا الباب فى ذعر وأخذت الأم تقول : " انصرفى فى سلام أيتها الروح" وأغلقت النوافذ بعد أن كانت قد أغلقت باب البيت.

وذهبت "جينفرا" المسكينة إلى بيت من بيوت أعمامها، فلم تجد إلا نفس ما وجدت فى بيت زوجها وبيت أبيها وأمها .. !

ثم خطر لها وهى غارقة فى بحر من الأحزان أن تذهب إلى بيت حبيبها "أنطونيو"، وإن كان فى نفسها شك فى أن يحسن لقاءها، بعد أن تركته إلى غيره تحت ضغط أهلها وإصرارهم على أن تتزوج من فرانسيسكو الغنى.

ولكنها مع ذلك واصلت المسير حتى وصلت إلى بيت حبيبها بعد عناء شديد.

" وفتح أنطونيو الباب.ولم يكد يقع بصره عليها حتى تقدم نحوها بدافع قوى من الحب أومن الشجاعة، ولم يتردد كما تردد أهلها من قبل. وأخذ يحملق فيها، فلما أيقن أنها هى تنفس فى سعادة، وأرسل ذراعيه القويتين إليها، فحملها على صدره كأنها طفلة، وأخذ يصيح من الفرح، داعيا أمه وأهل بيته ليزف إليهم البشرى..." .

وبقيت عدة أيام فى بيت " أنطونيو" يرعاها رعاية كاملة، حتى استردت صحتها، وشفيت من مرضها القديم وزالت عنها آثار محنتها الجديدة.

وذات يوم، قفزت "جينفرا" من السرير فجأة و "أنطونيو" جالس إلى جانبها " فنزلت إلى الأرض، ثم أهوت على قدمى " أنطونيو" تقبلهما وتريق عليهما من دموع محبتها وشكرانها، وترجوه أن ينشر عليها جناح الطهر من مودته وصداقته، وأن ينسى إلى حين أنها حبيبته، وهى مستعدة أن تكون خادمة له، وترتضى العبودية فى ظله!!!.

وهدأ أنطونيو من قلقها واضطرابها. ثم عرض عليها، وقد استردت صحتها وعافيتها وجمالها وإشراقها، أن يعيدها إلى زوجها " فهذا واجب أحضك عليه، وإن كان فى أدائه قضاء على .. أنا" .

ورفضت " جنيفرا" هذا العرض رفضا قاطعا وقالت: أرجوك يا أنطونيو ألا تردد اسمه أمامى وإن أرغمنى أحد على العودة إليه

فسوف أشكو أمرى إلى القضاء العادل ليفصل بيننا من جديد..
سأقصد إلى كل محكمة ... إلى كل سلطة دينية ... لقد شهدوا
جميعا أننى مت، ودفنونى حية، لا لشئ إلا ليستريحوا منى . وقد
شاء القضاء السماوى أن أنهض من قبرى بمعجزة، وعدت إلى
الدنيا، ولم أمت فى القبر أشنع ميتة. فماذا يريدون منى بعد ذلك
كله؟.. " .

وأصرت "جنيفرا" على أن تتزوج زواجا شرعيا كاملا وأمام
الجميع من حبيبها "أنطونيو" .

وذهبت مع حبيبها إلى الكنيسة فى نفس اليوم الذى كان زوجها
"فرانسيسكو" يحتفل فيه بالزواج من امرأة أخرى على اعتبار أن
زوجته الأولى قد ماتت. وكان أبوها وأمها يحضران حفل زواج
"فرانسيسكو" زوج ابنتهما السابق، وفوجئ الجميع بالجميلة
"جينيفرا" تقتحم الكنيسة وتشق الصفوف وتذهب مباشرة إلى الأب
راعى الكنيسة وكانت فى غاية الجمال والإشراق والصحة
والحيوية، وانطلقت تقول فى صوت شجاع وثابت:

أما وقد ذهبتم بى إلى القبر، فوسدتمونى التراب بعد أن شهد
أطباؤكم بموتى، وبعد أن نثر القسيس زيته المقدس على جثمانى
معلنا بذلك أننى انتهيت من الدنيا، فإننى أعلن بدورى أننى لم أعد
أمت إليكم بصلة لا سيما بعد أن رفضتم جميعا إيوائى فى حين
قدآوانى ملاكى "أنطونيو" فأعادنى إلى الحياة والحب، ولولا ذلك
لقتلنى البرد والمطر أمام باب من أبوابكم، ولعدت إلى القبر عودة
لارجعة لى بعدها إلى دنياكم، ومن أجل هذا كله أقرر أمامكم وأمام
الأب الجليل سيد هذه الكنيسة، وفى هذا المكان المقدس أننى
أصبحت ملكا لحبيبى، وأننى جئت اليوم ليشهد لنا ... " .

"ثم حيت أمها، وبعض الأعزاء من ذويها واتجهت إلى أنطونيو
فضمته إلى صدرها على مشهد من الجميع ... وهنا وقف الأب
راعى الكنيسة، ونادى على الزوج "أنطونيو" و "جينفرا" فباركهما،

وكتب لهما عقد الزواج، ورفع به إلى أحد الرهبان فتلا مافيه بما لا يخرج عما ذكرت "جينفرا" من الحجج، وكان الاحتفال البسيط بهذا الزواج هو أروع يوم فى كنيسة فلورنسا منذ أنشئت ..." وهكذا انتصر الحب الصادق على الحب القائم على الصفقات، لأن الصفقات لا تبقى فى ظل الأزمات، ولكنها تنهار منذ أول صدمة.. أما الحب الحقيقى فيبقى ويكون عونا حقيقياً فى الأيام الصعبة ويستطيع أن يصنع المعجزات إلى الحد الذى يمكنه فيه أن يعيد الحياة إلى إنسانة كان محكوما عليها بالموت، فعادت بالحب إلى ما كانت عليه من جمال وقوة ونشاط، ولكنها كانت قد ملكت إرادتها وحريتها، ولم تعد قابلة للبيع والشراء من جانب أحد.

الفصل

7

ياسيدتى ..
أنت خطر على المجتمع

- لا تتقدم حياة البشر إلا برجال ونساء يتمتعون بالشجاعة!
- كائن مشوه يرتدى ثياب النساء!
- من الوهم أن نتصور أن هناك شيئاً مجانياً بلا مقابل!

لا يمكن أن تتقدم حياة البشر، إلا إذا كان هناك رجال ونساء يتمتعون بالشجاعة والصبر والقدرة على العمل المستمر من أجل تحقيق هدف نافع ومفيد. وأصحاب هذه النماذج الإنسانية هم الذين يفتحون الأبواب المغلقة، ويضيئون المصابيح المنطفئة، ويبعثون الأمل فى النفوس، ويحركون المياه الراكدة، وليس من المهم أن تكون أهداف هؤلاء الذين يكافحون من اجل السعادة الإنسانية أهدافا ضخمة، بل على العكس من ذلك، فكلما كانت أهداف الإنسان واضحة وبسيطة كان ذلك أفضل وأقرب إلى النجاح، والحياة فى آخر الأمر هى كلها مجموعة من التفاصيل الجزئية، وإذا استطاع الإنسان أن يهتم ببعض هذه التفاصيل، وحاول أن يبذل جهده فى سبيل الوصول بهذه التفاصيل إلى قدر من الإتقان، فإن الحياة لابد أن تصبح أفضل وأسهل.

وهذه قصة امرأة أمريكية اسمها " سوزان انتونى" ولدت سنة ١٨٢٠، وتوفيت سنة ١٩٠٦. وقد حددت هذه السيدة لنفسها هدفا عاما واضحا، وقررت أن تكافح من أجل هذا الهدف ولأن "سوزان أنتونى" كانت صادقة مع نفسها فقد راجعت الأمور بدقة وعناية قبل أن تبدأ رحلتها وعرفت أنها سوف تخوض معركة طويلة شاقة، وأنها سوف تتعرض للرفض والمعارضة والسخرية، شأنها فى ذلك شأن كل من يحمل رسالة جديدة ولو كانت هذه الرسالة بسيطة

متواضعة، فكل صاحب رسالة إنما يبدأ من واقع يريد تغييره وتعديله، والتغيير والتعديل هما دائماً من أصعب الأمور، لأن الناس عندما تتعود على شئ من الأشياء، فهى تستريح للعادة، وتشعر بالقلق إذا ما حاول أحد أن يمس هذه العادة بأى تغيير، ولذلك فالناس تقاوم التغيير، ولا تتجاوب مع من يحاولون التغيير إلا بعد جهد ومشقة، ففى التغيير قلق، وفى العادة المستقرة راحة واطمئنان، حتى لو كانت هذه العادة قائمة على أساس خاطئ، فالعادة الخاطئة أسهل من التغيير نحو الصواب.

وأصحاب الرسالات الذين يطالبون بالتغيير، لابد أن تكون لديهم فضائل أساسية أهمها التواضع والبساطة والقدرة على الاحتمال، وبدون هذه الفضائل فإن صاحب الرسالة أو الهدف لابد أن يتعرض إلى اليأس السريع، وذلك عندما يجد أمامه نوعا من المعارضة والمقاومة، كما أنه بدون هذه الفضائل، سوف يظهر الذى يدعو الناس إلى شئ جديد، وكأنه شخص استفزازى يريد أن يؤذى الناس، وأن يخرجهم من أسلوب حياتهم الذين تعودوا عليه، وهو بذلك يبدو "عدوانيا "، يعترض على الناس ويرفض حياتهم القائمة، ولكنه لو كان من الذين يتحلون بفضيلة التواضع، فإن الناس سوف تميل إليه وتحبه، حتى قبل أن يقوم بدعوتهم إلى شئ جديد لم يتعودوا عليه.

ولقد كانت الحكمة الإلهية كاملة وعالية عندما وقع اختيارها على "الأنبياء" الذين يحملون رسالة التغيير الشامل إلى الناس، فهؤلاء الأنبياء كانوا قبل أن يبدأوا الدعوة إلى رسالتهم من أفضل الناس أخلاقا وأقربهم إلى القلوب فكان الناس يحبونهم ويميلون إليهم حتى قبل أن يسمعوا أنهم أنبياء وهذا هو ما نجده فى حياة المسيح وحياة محمد عليهما السلام.

وإذا كان الأنبياء يقدمون أمثلة عليا فى هذا المجال، فإن كل المصلحين وأصحاب الدعوات لابد أن يكونوا من نفس الطراز، أى

أن يكونوا محبوبين مقبولين من الناس قبل أن يطلبوا من الناس الإيمان بشئ.

ونعود إلى السيدة الأمريكية "سوزان انتونى" والتى كتب قصة حياتها الرائعة الكاتب الأمريكى "أ.ك. أرمسترونج" وترجمتها مجلة " المختار" التى كانت تصدر فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية، وهذه القصة منشورة بتفاصيلها الكاملة فى عدد مايو ١٩٤٤ من مجلة " المختار" . وفى هذه القصة الواقعية نجد أمامنا حقائق ربما لم تخطر لنا على بال، فالكثيرون منا يتصورون أن المجتمعات الغربية وفى مقدمتها أمريكا كانت مجتمعات متطورة منذ وقت طويل. والحقيقة غير ذلك، فهذه المجتمعات قد ظلت حتى أوائل القرن العشرين تعانى من التخلف الشديد فى الأنظمة والقوانين والعادات الاجتماعية. ويكفى أن نقرأ ما كان يكتبه الكاتب الإنجليزى المعروف "ديكنز" عن أحوال الأطفال والنساء والطبقات الفقيرة فى انجلترا، بل وفى قلب مدينة لندن نفسها، فى أواخر القرن الماضى . ويكفى أن نقرأ روايات "ديكنز" حتى ندرك أن التقدم الحضارى والأخلاقى والإنسانى فى الغرب لم ينشأ منذ وقت طويل، بل هو تقدم حديث لا يتجاوز أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين.

وهذه صورة من أوضاع النساء فى أمريكا فى أواخر القرن الماضى، أى منذ ما لايزيد كثيراً على مائة سنة، وهى صورة يقدمها الكاتب الأمريكى "ارمسترونج" وهو يروى قصة " سوزان انتونى" فيقول: " كانت القوانين الأمريكية تجعل رب الأسرة حاكما مسيطرا على عائلته، وكانت تمنحه وحده حق امتلاك كل شئ، حتى ثياب زوجته وأموالها. ولم يكن للأم حق الوصاية على أولادها، وكان للزوج أن يحرمها من ميراثه ويتركها فقيرة معدمة، دون أن تجد فى القانون أى عون لها. وقد منعت التقاليد الأمريكية المرأة من الاشتراك فى الأعمال العامة، بل كان ممنوعا عليها أن تتحدث إلى

الجمهور فى أية مناسبة ولأى سبب، ولم يكن من حقها أن تتخطى مرحلة التعليم الابتدائى، أما الأعمال التى كان مسموحا بها للنساء فهى تعليم الأطفال أوعزف الموسيقى .. فى حدود العائلة فقط.. ذلك كان الوضع القائم بالنسبة للمرأة الأمريكية فى النصف الثانى من القرن الماضى، وهذه هى القضية التى اختارت سوزان انتونى أن تكافح من أجلها، وهى قضية " تحرير المرأة" من هذه الأوضاع السيئة وقد بدأت "سوزان أنتونى" دعوتها فى يسر وهوادة ولين، وقوبلت كما هو متوقع - بالرفض والسخرية.

ففى أحد الاجتماعات العامة وقفت " سوزان تخطب فقالت فى اتزان دون عصبية : " .. سيداتى سادتى أنا سوزان أنتونى، جئت لأطالب بقسط أوفر من الحرية لبنات جنسى وبعد أن قالت هذه العبارات البسيطة قاطعها أحد الرجال قائلا : وهل تريدين أن يلبس النساء السراويل؟ فضجت القاعة بالضحك.

ثم صاح فيها رجل آخر قائلا : ولماذا لا تتزوجين؟ ثم قذفها بطماطم أصابتها فى صدرها، كانت هذه إشارة البدء، فانهال عليها من جميع أرجاء القاعة وابل من البيض والخضراوات الفاسدة ومسحت سوزان انتونى ما أصاب وجهها وملابسها، ثم استمرت تتكلم دون أن يبدو عليها أثر من غضب أو خوف، وأخذت تطالب الحاضرين فيما يشبه التضرع أن ينصفوها وينصتوا إليها، فهدأت القاعة تحت تأثير صوتها الخالى من أى استفزاز، ولكن أكثر الحاضرين أخذوا يتسللون من القاعة، ولم يبق إلا قلة استمعوا إليها وأخذوا فى مناقشتها بعد أن انتهت من حديثها وقالت سوزان فيما بعد لبعض أنصارها : لقد كان اجتماعا حسنا وقد بدأنا نضئ الطريق. ولم يكن قذفها بالبيض والطماطم مما يثير دهشتها.

فلم تكن هذه هى المرة الأولى التى تتعرض فيها لذلك فمنذ أن بدأت كفاحها من أجل ما آمنت به، وكان ذلك حوالى سنة ١٨٤٨، عندما كان عمرها ثمانية وعشرين عاما، وهى تتعرض لمثل هذه

الاستفزازات والمضايقات، كلما وقفت تطالب بنصيب أوفر من الحرية للنساء، وقد تعودت أن يقابلها الصحفيون والوزراء والسياسيون بكثير من عبارات التهكم والاستهزاء وعاشت هذه السيدة ستة وثمانين عاما، قضت منها ٥٨ سنة تعمل من أجل هدفها الطويل المستمر الذى لم يشهد تاريخ الإصلاح الاجتماعى فى أمريكا مثيلا له.

وجميع رؤساء أمريكا من "لنكولن" وهو الرئيس السادس عشر لأمريكا إلى " تيودور روزفلت" وهو الرئيس الخامس والعشرون صافحوا هذه المرأة التى كان الإيمان يشتعل فى قلبها، وقد وقفت فوق منابر لم تقف فوق مثلها امرأة أخرى فى التاريخ.

كان بعض النساء الأمريكيات قبل ظهور " سوزان انتونى" يطالبن بحق الانتخاب للنساء، ولكن سوزان كانت تعلق على ذلك بقولها: إن حق الانتخابات ليس إلا جزءاً من تحرير شامل للنساء يخلصهم من جميع القيود والأغلال وأعلنت سوزان أنتونى برنامجا قويا وشاملا قالت فيه : أليس على النساء من المسئوليات ما على غيرهن من رجال الأمة، ألا يجب عليهن إطاعة القانون ودفع الضرائب؟ فلماذا إذن لا يكون لهن ما لسائر أبناء الأمة من الحقوق المدنية ؟ وكانت "سوزان أنتونى" لا تكتفى بالدعوة إلى أفكارها عن طريق الاجتماعات العامة فقط، ولم يكن ذلك العصر يعرف الإذاعة ولا التليفزيون لتحاول نشر دعوتها عن طريقهما، فلجأت إلى العمل بأسلوب مباشر لكسب الأنصار، وكان هذا الأسلوب شديد الإجهاد لها، بالغ القسوة عليها، فقد كانت تطوف بالمنازل وتطرق الأبواب تحاول شرح أفكارها للنساء. والغريب أنها كانت كثيرا ماتجد معارضة من النساء أنفسهن، وكانت بعضهن يغلقن الأبواب فى وجهها ويقلن لها :"اتركينا فى حالنا ... إن لنا أزواجا يعتنون بنا" !!

وواصلت "سوزان انتونى" كفاحها من أجل هدفها. فكانت تزور المدن والولايات الأمريكية المختلفة، واتخذت لعملها خطة واضحة

وهى أن تنشئ فى كل مدينة أو ولاية تذهب إليها ناديا يجمع أنصارها والمؤيدين لها حتى لو كانوا أقلية ضئيلة، ثم قدمت إلى المجلس النيابى المحلى فى ولاية نيويورك التماسا مهذبا رقيقا تطالب فيه بالاعتراف التشريعى بحقوق المرأة الأمريكية بحيث تكون هذه الحقوق منصوصا عليها فى القانون والدستور، لأنه بدون هذا النص القانونى تصبح حقوق المرأة مجرد دعوة معلقة فى الهواء، ولا يكون لها تأثير واقعى من أى نوع وعندما تقدمت "سوزان أنتونى" بالتماسها لبرلمان نيويورك، وقف أحد أعضاء البرلمان يهاجمها بعنف وقسوة ويقول لها فى وجهها : " أنت أيتها المرأة خطر يهدد المجتمع" ثم قال هذا النائب بعد ذلك فى ثقة وغرور : " إن النساء ليس لديهن من الذكاء ما يؤهلهن لفهم أمور الحياة المدنية" وهكذا أصدر هذا النائب حكما نهائيا على النساء بأنهن يفتقرن إلى الذكاء. أما صحافة تلك الفترة، سنة ١٨٥٣، فقد شنت حملة على "سوزان أنتونى" وقالت عنها إنها "كائن مشوه يرتدى ثياب النساء".

وقد تعود أعداء المرأة عندما يرونها تتصدى بشجاعة وصبر ومثابرة لقضية عامة أن يقولوا إن مثل هذه المرأة تنقصها " الأنوثة" وهى تحاول تعويض هذا النقص بالتصدى للموضوعات العامة، وكثيرا ما يقال : إن مثل هذه المرأة لا تجد من يتزوجها، ولا تملك من عناصر الجمال شيئا، ولذلك فهى تندفع فى طريق الاهتمام بالقضايا العامة كبديل لما حرمتها الطبيعة منه أى : الجمال ورغبة الرجال فى الزواج بها.

فهل كانت "سوزان أنتونى" تعانى من مثل هذه الحالة؟ على العكس من ذلك تماما، فقد كانت جميلة ساحرة، ويقول عنها مؤرخ حياتها "أرمسترونج" إنها كانت " ذات شعر أشقر متموج مفروق فى وسط الرأس، ولها فم دقيق سرعان ما تعلوه ابتسامة حلوة، وكانت أنيقة الملبس، وكان وجهها البيضاوى المستدير يكاد يضئ حين

تتكلم، أما عيناها السوداوتان فكانتا تلتهبان من حماستها المشتعلة، أما صوتها القوى الساحر، فكان يرغم الكثيرين من المستمعين إليها، والذين جاءوا بهدف المشاغبة، على أن يلتزموا الصمت عندما تبدأ سوزان فى الكلام. وقد أنهالت عليها طلبات الزواج، وكان بعض أصحاب هذه الطلبات من الذين تجذبهم أضواء الشهرة التى بدأت تحيط بشخصية " سوزان أنتونى" بعد سنوات من الكفاح. وكانت سوزان نفسها تحن إلى حياة البيت، ولكنها كانت ترى أن كفاحها يحتل المكانة الأولى فى حياتها قبل أى شئ آخر.

وهكذا .. كانت "سوزان" جميلة، وكان الكثيرون يطلبونها للزواج، فهى ليست من النساء المعقدات بسبب نقص الجمال أو ضعف الأنوثة، وهذه الحقيقة تثبت أنها كانت صادقة فى دعوتها، وأن كفاحها العام لم يكن بديلا لعدم نجاحها كامرأة. وقد أختارت "سوزان أنتونى" أن تقدم التضحية الضرورية، والتى يقدمها كل صاحب رسالة مخلصة فى الحياة فكل شئ فى هذه الدنيا له ثمن. ومن الوهم أن يتصور الإنسان أن هناك شيئا مجانيا بلا مقابل. والذين يختارون الكفاح من أجل رسالة كبيرة مثل " سوزان أنتونى" يدركون تماما أنهم لابد أن يدفعوا الثمن. وقد دفعت سوزان الثمن من سعادتها الشخصية وهو قرارها بعدم الزواج، والذى تمسكت به حتى النهاية.

فى سنة ١٨٥٧ تقدمت " سوزان" إلى المجلس النيابى فى نيويورك بالتماس جديد، بعد أربع سنوات من رفض التماسها الأول فى نفس المجلس بنفسها لتدافع عن وجهة نظرها وتحاول الإجابة عن أى سؤال يثار حول هذه القضية، وحملت معها كثيرا من الوثائق التى تستطيع بها أن تقدم الدعم الكامل لرأيها. ولكنها فوجئت فى الجلسة بتقرير يقرأه أحد النواب عن حقوق المرأة، وكان هذا التقرير مليئا بالسخرية إلى حد البذاءة وجاء فى التقرير "البذئ".. إن النساء قد حصلن من قبل على جميع حقوقهن، فهن يخترن

مكانهن من المضاجع، ويخترن ما يشأن من أصناف الطعام، وبسبب ملابسهن الفضفاضة أبيح لهن مكان أوسع من مكان الرجال"، وضج المجلس النيابى بالضحك، وخسرت " سوزان أنتونى" هذه الجولة أيضاً.

قال لها بعض أصحابها وقد رأوا جهادها من أجل حقوق المرأة يشقيها، ولا يؤدى إلى نتيجة واضحة: " أتركى هذه القضية، فهى قضية ميئوس منها".

ترد على ذلك بقولها: إن الميئوس منه هو القضايا التى ليست حقيقية، وقضية المرأة هى قضية حقيقية، ولا مجال لليأس فيها. وكانت "سوزان" لا تتردد فى اتخاذ بعض المواقف الجادة من أجل لفت الأنظار، ومن هذه المواقف أنها "انتهزت فرصة الانتخاب العام فى سنة ١٨٧١ وتقدمت إلى إحدى الدوائر الانتخابية تريد أن تعطى صوتها، ولكنهم أمروا بالقبض عليها وحبسها، فلما انتشر نبأ سجنها فى أنحاء أمريكا حدثت ضجة كبيرة، فرغم الاعتراض على آرائها فإنها كانت قد استطاعت أن تكسب الاحترام وتلفت الأنظار وتصبح شخصية مرموقة ولذلك اكتفى القاضى بتغريمها مائة دولار.

ولكنها تحدت القاضى وقالت: لن أدفع دولارا واحدا من هذه العقوبة الجائرة. وأحس القاضى أنه لو حكم باستمرار سجنها فسوف يرفع من شأنها أكثر وأكثر ولذلك أمر القاضى بالإفراج عنها.

وظلت " سوزان أنتونى" تكافح دون توقف من أجل القضية التى آمنت بها، فلما كانت سنة ١٩٠٠ كان نضالها قد عم جميع الولايات الأمريكية، وبلاداً أجنبية أخرى، وقد خطبت فى انجلترا أمام جماهير زاخرة، ودعتها الملكة "فكتوريا" لتناول الشاى معها. وفى سنة ١٩٠٤ حضرت أول اجتماع للجمعية الدولية للنساء فى برلين واستقبلها الجميع على أنها سيدة بطلات نساء الأرض وفى ١٩٠٦

وهى فى السادسة والثمانين ماتت " سوزان أنتونى" ميتة هادئة، ولكن جهادها لم يمت فأكمله غيرها حتى بلغ الذروة عند نشوب الحرب العالمية الثانية.

تلك هى خلاصة قصة هذه المرأة الشجاعة، وهى قصة تعطينا صورة حية ومثالية لهؤلاء الذين يؤمنون بهدف من الأهداف الكريمة فى حياتهم، ويعملون على تحقيقه، ويستعدون لتقبل التضحية والأذى فى سبيله.ولقد تحققت كل أهداف "سوزان أنتونى" بعد رحيلها، ولكن الجميع كانوا يعترفون دائما بأنها صاحبة الفضل الأول فى تحقيق هذه الأهداف، ففى سنة ١٩٢٠، تم تعديل الدستور الأمريكى لينص على حق النساء فى الانتخاب والترشيح، وفى سنة ١٩٤٣ أصبح من حق النساء الأمريكيات أن يعملن فى وظيفة القضاء".

إن رحلة "سوزان انتونى" هى رحلة إنسانية جميلة، نتعلم منها أن الحياة تحتاج من الجميع أن يختاروا لأنفسهم أهدافا واضحة وبسيطة يخدمونها ويؤمنون بها، على أن يكون الإنسان مستعدا وراضيا بدفع الثمن المطلوب والتضحية الضرورية.

وبصورة عامة فالذين يؤمنون بهدف جميل فى هذه الحياة يعرفون نعمة التواضع والصبر وامتلاء القلب بالمحبة وليس بالكراهية، وهم يعرفون سعادة التسامح مع الأذى الذى يتعرضون له، ويرون النور، ولو كان هذا النور آتيا من بعيد، فقد ماتت "سوزان أنتونى" فى السادسة والثمانين بعد أن قضت أكثر من نصف قرن فى الكفاح من أجل أهدافها، ولم تكن أهدافها قد تحققت جميعا فى حياتها، ولكنها كانت راضية لأنها كانت تدرك أنها على صواب، وأن كفاحها لن يذهب عبثا، وأن النور قادم.. وقد جاء النور، وتحققت كل أهداف " سوزان انتونى" جميعا.

الفصل

8

الزواج والانتحار في ليلة واحدة

- **الرقص والغناء فى انتظار القتل!**
- **قصة يوم الانتحار العالمى!**
- **من يصنعون المآسى لا يفلتون من العقاب الأليم**

لو أن العالم اختار يوما تاريخيا " للانتحار" لكان هذا اليوم هو، الثلاثين من أبريل! ففى هذا اليوم منذ ستين عاما وقع أكبر حادث انتحار فى العالم، وأسهم- أكبر الإسهام- فى إنهاء الحرب العالمية الثانية، بعد أن راح ضحيتها ما يقرب من خمسين مليون قتيل، وقد استمرت هذه الحرب حوالى ست سنوات من سبتمبر سنة ١٩٣٩ إلى أول مايو سنة ١٩٤٥ .ولم يكن بالإمكان إعلان انتهاء الحرب لولا حادثة الانتحار الكبيرة التى وقعت فى اليوم السابق، وبالتحديد: فى الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر الاثنين الموافق الثلاثين من أبريل سنة ١٩٤٥.

ففى تلك اللحظة الحاسمة من تاريخ العالم، كان الزعيم الألمانى هتلر يطلق الرصاص من مسدس داخل فمه، وإلى جانبه عشيقته "إيفا براون" التى انتحرت بالسم وكانت إيفا براون قد طلبت من هتلر أن تصبح زوجة شرعية له قبل الانتحار، واستجاب هتلر لطلب حبيبته وعشيقته، وقرر الزواج منها قبل انتحارهما معا بأربع وعشرين ساعة، ففى يوم الأحد التاسع والعشرين من أبريل سنة ١٩٤٥ شهد مقر "المستشارية" الألمانية الضخم، الذى كان به جزء واسع محصن ومقام تحت الأرض، حفلة زواج هى الأغرب والأعجب والأكثر إثارة من أية حفلة زواج أخرى فى أى عصر أو مكان، فقد كان الجيش الروسى قد وصل إلى ما لايزيد على أمتار

قليلة بعيدا عن مقر إقامة هتلر ومساعديه، وأصبح من المؤكد أن الروس سوف يصلون إلى مقر هتلر خلال يوم أويومين على أكثر تقدير. وكان هتلر قد تلقى قبل انتحاره بيوم واحد خبر إعدام زميله وحليفه الزعيم " موسولينى" وعشيقته "كلارابتاشى" وكان لهذا الخبر أوسع التأثير على نفسية هتلر، وهذا ما نقرأ له وصفا دقيقا على يد المؤرخ الأمريكى الكبير "وليم شيرر" فى كتابه الرائع "تاريخ ألمانيا الهتلرية" الذى قدم له الأستاذ خيرى حماد، الكاتب والمفكر الفلسطينى المعروف، ترجمة كاملة وممتازة له فى أجزائه الأربعة التى تصل صفحاتها إلى الألفين. يقول "شيرر" فى الجزء الرابع صفحة ٣٥٧ من الترجمة العربية:

"وصلت إلى الملجأ الذى يقيم فيه هتلر ومساعدوه آخر الأخبار التى تمكنت من الوصول إليه من العالم الخارجى، وقد روت هذه الأخبار أن موسولينى زميل هتلر فى الدكتاتورية الفاشية، قد لقى نهايته، وأن عشيقته "كلارا بتاشى" قد قاسمته مصرعه.

فقد وقعت عليها أيدى الأنصار الإيطاليين فى السادس والعشرين من أبريل سنة ١٩٤٥، ونفذوا فيهما حكم الإعدام بعد يومين اثنين، وتم نقل الجثتين ليلة السبت فى الثامن والعشرين من أبريل إلى مدينة "ميلانو" فى سيارة شحن، ثم قذفت بهما السيارة فى الميدان العام بالمدينة، وتم تعليق الجثتين فى اليوم التالى رأسا على عقب، أى من أرجلهما، على أعمدة النور الكهربائى، ثم ألقيت الجثتان فى مجرى الماء، حتى يستطيع كل إيطالى يود الثأر منهما، أن يقذف عليهما شتائمه وسبابه.وتم بعد ذلك دفن موسولينى وعشيقته فى أول مايو فى قسم المتسولين فى مقابر "ميلنو". وهكذا مضى موسولينى ومضت الفاشية معه إلى التاريخ فى مثل هذه الذروة من التحقير فى الموت. ولم يتبين أحد مدى ما عرفه هتلر من تفاصيل هذه النهاية القذرة التى حاقت بزميله وصديقه موسولينى، ولكن فى وسع المرء أن يتصور أن سماع هتلر بهذه التفاصيل قد قوى من

تصميمه إلا يسمح لنفسه أو لعشيقته إيفا براون بالوقوع فى أيدى العدو الذى يطلب منظرا جديدا يقدمه لليهود ليحول إليه أنظار جماهيرهم التى تغلب عليها - كما يقول هتلر- "نزعة هستيرية".

هذا هو وصف المؤرخ الأمريكى "شيرر" لإعدام موسولينى، ولاشك أن هذا الخبر الذى وصل إلى هتلر قبل انتحاره بيوم واحد كان عاملا جديدا مؤكدا لتصميم هتلر على الانتحار. ونعود بعد ذلك إلى هتلر نفسه وهو يعيش فى ملجئه، ويقرر أن يحقق لعشيقته "إيفا براون" حلمها بأن تكون زوجة شرعية له، ومهما تكن كراهيتنا لهتلر وما أصاب الإنسانية على يديه من ويلات وآلام، فإننا لا نملك أمام قصة زواجه من "إيفا براون" إلا أن نشعر بالاحترام للمعانى الإنسانية القائمة فى هذا الزواج، وقد تم الزواج قبل انتحار الزوجين بيوم واحد، والزوجان يعلمان أنهما قد اتخذا قرارا لارجعة فيه بالانتحار.ومع ذلك فقد كانت "إيفا براون" تحس أنه مما يسئ إليها ويخدش كرامتها أن تموت وهى عشيقة لهتلر وليست زوجة شرعية له.وقد تقبل هتلر رغبتها وحققها وأصر على إقامة حفلة زواج فى الملجأ الذى يقيم فيه.

ومن أجل إقامة هذا الاحتفال استدعى وزير إعلام هتلر المعروف "جوبلز" أحد أعضاء المجلس البلدى فى برلين واسمه "وولتر واجنر" وكان يحارب فى وحدة من وحدات " العاصفة الشعبية" على بعد عدة أبنية من ملجأ هتلر، وقد قام هذا الموظف، وهو مذهول مما يجرى أمامه، بإجراء مراسيم الزواج فى غرفة الاجتماعات... ويواصل المؤرخ "وليم شيرر"، وهو مرجعنا الأساسى فى هذا الفصل - وصفه لحفلة الزواج فيقول " الجزء الرابع صفحة ٣٤٣" : "عاشت وثيقة الزواج ولم تضع فى زحمة الأحداث، وقد قدمت لنا هذه الوثيقة جانبا مما وصفته إحدى سكرتيرات هتلر بأنه " زواج الموت". واقسم العروسان القسم المقرر فى الزواج الألمانى فى عصر هتلر والنازية وهو " اقسم أننى من أصل " أرى صاف"، كما أقسم

الزوجان هتلر وإيفا . "على أنهما خاليان من أى مرض وراثى يحول دون إتمام الزواج"، وأصر هتلر أن يتمسك بالرسميات والشكليات فى زواجه فملأ عقد الزواج بالكامل فيما عدا المكان المخصص لاسم والده واسم والدته وتاريخ زواجهما. وبدأت عروسه توقع باسمها فكتبت " إيفا بـ.." ولكنها سرعان ما توقفت لتشطب حرف " الباء". الذى بدأت به، ولتسجل اسمها على الصورة التالية "إيفا هتلر" المولودة باسم براون". ووقع اثنان من مساعدى هتلر على وثيقة الزواج كشاهدين. وبعد إتمام حفلة الزواج القصيرة، فى الصباح الباكر من يوم الأحد ٢٩ أبريل، تم إعداد حفل إفطار بمناسبة "زواج الموت" هذا، وقد أقيم الاحتفال فى جناح هتلر الخاص، وقام الخدم بإخراج زجاجات الشمبانيا من مخازنها، دعى الجميع للحفل حتى الآنسة "مانزيالى" طباخة هتلر النباتية، مع جميع سكرتيراته، وكذلك من تبقى فى الملجأ من ضباط الجيش، بالإضافة إلى "جوبلز" وزير الإعلام وزوجته،واتجه الحديث إلى ذكرى الأيام الماضية السعيدة، وظل العريس "هتلر" يتحدث كعادته التى حافظ عليها دائما، مستعرضا الأحداث الجسام فى حياته، وقال : إن هذه الحياة قد انتهت الآن. وأكد أن موته سوف يريحه، وعمت الكآبة حفل الزواج، وتسلل بعض الضيوف خارجين من الحفل وعيونهم مغرورقة بالدموع، ثم خرج هتلر واستدعى إلى غرفة مجاورة إحدى سكرتيراته، وأخذ يملى عليها وصيته وعهده الأخيرين.

أما وصية هتلر فقد جاء فيها ما يتصل بقرار الزواج من عشيقته "إيفا براون" حيث يقول: " على الرغم من أننى طيلة سنوات كفاحى، كنت أعتقد بعجزى عن تحمل مسئولية الزواج، فإننى الآن وقبل إنهاء حياتى، قررت أن أتزوج من المرأة التى جاءت بعد سنوات طويلة من الصداقة الحقيقية، طائعة مختارة، إلى برلين بعد أن تم حصارها، لتشاطرنى قضائى وقدرى، وسوف تمضى معى إلى

العالم الآخر كزوجة لى بمحض اختيارها، وسوف يكون هذا المصير تعويضا لنا عما خسرناه معا فى سنوات عملى الطويلة فى خدمة شعبى".

هذا بعض ماجاء فى وصية هتلر الخاصة، أما ما سماه بالعهد السياسى فقد جاء فيه: "من التنكر للحقيقة أن يقال إنى أو أى إنسان آخر من ألمانيا قد أردنا الحرب سنة ١٩٣٩، إن الذين أرادوها وأثاروها هم فقط أولئك الساسة العالميون الذين إما أن يكونوا من أصل يهودى أو يكونوا من الذين يعملون لخدمة المصالح اليهودية، ولقد قدمت عروضا كثيرة للحد من التسلح والسيطرة عليه،وهى عروض لن تستطيع الأجيال القادمة إخفاءها أو تجاهلها، لكى تحملنى مسئولية نشوب هذه الحرب".. ثم يؤكد هتلر فى هذا العهد السياسى أنه ليس مسئولا عن نشوب الحرب ولكن المسئول عنها هم "اليهود الدوليون والذين يؤيدونهم" ويؤكد هتلر أنه قدم قبل إعلان الحرب بثلاثة أيام اقتراحات إلى الحكومة البريطانية تتضمن حلا معقولا للمشكلة الإلمانية البولندية، ولكن هذه الاقتراحات تم رفضها، ولم تتعرض الاقتراحات للرفض فى نظر هتلر "إلا لأن الزمرة الحاكمة فى إنجلترا أرادت الحرب، مدفوعة بأسباب بعضها تجارى، وبعضها متأثر بالدعايات التى روجت لها اليهودية العالمية".

وهكذا بعد أن أقام هتلر حفل الزواج إرضاء لعشيقته التى أرادت أن تموت معه كزوجة له، لا مجرد عشيقة،وبعد أن كتب عهده السياسى الذى تنصل فيه من أنه كان سببا للحرب العالمية الثانية ومانتج عنها من دمار شامل وضحايا بالملايين، لم يعد أمامه سوى تنفيذ قراره بالانتحار، وكان التقرير العسكرى هو أن الجيش الروسى سوف يتمكن من الوصول إلى مقر هتلر بعد حوالى ثلاثين ساعة، أى فى مساء يوم الإثنين ٣٠ أبريل سنة ١٩٤٥ أو على الأكثر فى صباح يوم الثلاثاء أول مايو، ولذلك قرر هتلر أن يقوم بتنفيذ

الانتحار مع عروسه بعد ظهر الإثنين ٣٠ أبريل، لأنه لايريد أن يقع فى يد الروس بعد أن قتل منهم - على يد جيشه الإلمانى - عشرين مليونا من الضحايا.. ولذلك فإن الروس إذا امسكوا بهتلر حيا فسوف يكون انتقامهم منه قاسيا وغير محدود.

وتتوالى الأحداث ابتداء من الساعة الثانية والنصف من صباح يوم الإثنين ٣٠ أبريل حيث خرج هتلر من جناحه الخاص، ووجد عشرين شخصا من مساعديه وخدمة محتشدين فى الممر المؤدى إلى غرف الطعام، وكان معظمهم من السيدات اللاتى يعملن معه، وراح هتلر - كما يقول المؤرخ شيرر- "يمر بالجميع مصافحا إياهم فردا فردا وهامسا بعض عبارات لم تكن مسموعة، وكانت هناك دموع فى عينيه،وقد تذكرت السيدات المشاركات فى هذا المشهد فيما بعد أن عينى هتلر كانتا تتطلعان بعيدا كأنهما تحاولان اختراق جدار الملجأ" .. ثم عاد هتلر إلى جناحه بعد أن صافح الجميع، وفى تلك الساعة المتأخرة من الليل حدث شئ لافت للانتباه وشديد الغرابة، "فالتوتر الذى كان قد ارتفع حتى وصل إلى حد لا يطاق فى الملجأ، قد انهار الآن، وذهب عدد من الموجودين إلى قاعة مجاورة لجناح هتلر أداروا اسطوانات موسيقية وأخذوا فى الرقص، ويبدو أن صخب هذا الحفل الغريب قد أشتد إلى حد دفع هتلر إلى إرسال كلمة من جناحه يطلب فيها الهدوء من الراقصين، فقد يصل الروس فى غضون بضع ساعات ويقتلونهم جميعا، مع أن غالبيتهم كانت تفكر الآن فى طريق للنجاة، أما فى هذه اللحظة، وللفترة القصيرة الباقية، فقد انتهت سيطرة هتلر الصارمة على حياتهم، وأصبح من حقهم أن يبحثوا عن المتعة حيث وجدوها وبأى طريقة تكون.ويبدو أن إحساسهم بأنهم قد تحرروا من قبضة هتلر وأن لحظة الانفراج والحرية باتت قريبة كما يتصورون فقد قضوا طيلة الليلة يرقصون".

وهنا يمكننا أن نسمى هذه الرقصات التى استمرت طيلة الليل

باسم "رقصات الموت" فصحيح أن هؤلاء الذين يرقصون كانوا مجموعة من الموظفين والموظفات فى "بلاط" هتلر، أى أنهم لم يكونوا معرضين للمحاسبة والمساءلة والعقاب، إلا أن الخطر كان يحيط بهم من كل جانب، وكان من الممكن أن يقوم الروس باقتحام الملجأ فى أى لحظة، وفى مثل هذا الاقتحام فلن تكون هناك فرصة للتفرقة بين برئ ومتهم، وسوف يتعرضون جميعا للقتل. فالرقص فى هذه الحالة كان تنفيسا عن التوتر الشديد، وكان هروبا من قبضة الهم الثقيل المسيطرة على الجميع، وفى مثل هذه اللحظات الخطيرة فى حياة الناس يمكن أن تحدث هذه الظاهرة الغريبة، وهى ظاهرة الاندماج فى حالة من الحركة العنيفة، والبحث عن اختطاف المتعة الأخيرة فى الحياة، وقد وجدت هذه المجموعة فى ملجأ هلتر تعبيرها الوحيد عن خوفها وشعورها بالخطر فى الرقص المستمر حتى الصباح.

وفى الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الاثنين ٣٠ أبريل، تناول هتلر غداءه مع سكرتيرته وطباخته النباتية، وكانت هذه آخر وجبة طعام لهتلر، وانتهى هتلر من طعامه فى الثانية والنصف ظهرا، ورفضت عروسه "إيفا براون" أن تتناول أى طعام.

وعاد هتلر وإيفا براون إلى جناحهما.. "ولم تمض لحظات حتى سمع المقيمون فى الملجأ طلقة مسدس. وانتظروا سماع طلقة أخرى ولكن الصمت ظل مخيما على جناح هتلر. ومضت فترة قبل أن يدخل مساعدو هتلر إلى جناحه، وعندما دخلوا وجدوا جثة هتلر على الأريكة والدماء تنزف منها وكانت إلى جانبه " ايفا براون"، ووجدوا مسدسين على أرض الغرفة، ولكن العروس لم تستخدم مسدسها وإنما تجرعت السم".

" كانت الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر الإثنين، الثلاثين من أبريل سنة ١٩٤٥، أى بعد عشرة أيام من عيد ميلاد هتلر السادس والخمسين، وبعد اثنى عشر عاما وثلاثة أشهر تنقص يوما واحدا،

منذ أصبح هتلر مستشارا لألمانيا وأصبح الحاكم المطلق فيها، ثم توالت الأحداث القليلة الباقية على الشكل التالى - كما يصفها المؤرخ "شيرر- " تم تشييع جثمان هتلر وإيفا، ولم ينطق أحد من المشيعين بحرف، وكان الصوت الوحيد صادرا من انفجار القذائف الروسية فى حديقة دار "المستشارية" وعلى الجدران المحطمة التى تحيط بها، وقام أحد سكرتيرى هتلر، واسمه "هاينز لينج"، وهو من قادة الحرس النازى، مع أحد الجنود بنقل جثمان هتلر بعد أن لفاه ببطانية عسكرية رمادية، أخفيا فيها وجه هتلر المهشم، وعرف الحاضرون جثة هتلر من السروال الأسود، والحذاء اللذين أطلا من أطراف البطانية، واللذين تعود هتلر على ارتدائهما دائما مع " سترة" الميدان الرمادية. وكان موت إيفا براون أكثر صفاء ونظافة، فلم تكن هناك دماء، وقد روى أحد السائقين الحاضرين فيما بعد : أن السيدة هتلر كانت ترتدى ثوبا قاتم اللون، وليس فى جسمها أى إصابات" .وتم نقل الجثتين إلى الحديقة، واغتنم الحاضرون فرصة هدوء فى نيران المدفعية الروسية فوضعوا الجثتين فى حفرة أحدثتها القذائف ثم صبوا " البنزين" عليهما وأشعلوا النيران، وانسحب المشيعون إلى ملجأ باب الطوارئ، وعندما ارتفعت ألسنة اللهب من الجثتين،وقفوا جميعا وقفة استعداد عسكرى، وارتفعت أيديهمْ اليمنى بالتحية النازية: "هاى هتلر" ولم يظل أمد الاحتفال بالوداع الأخير،إذ أن القذائف الروسية بدأت فى دك الحديقة من جديد، واضطر الأحياء الباقون إلى التراجع إلى أمن الملجأ ووقايته، تاركين للنيران المشتعلة من "البنزين" إتمام المهمة، وهى إزالة آخر الآثار الدنيوية لهتلر وعروسه، ولم يتم العثور بعد ذلك على أى عظام، وكان هذا سببا فى الشائعات التى انتشرت بعد الحرب عن بقاء هتلر حيا يرزق. لكن الاستجوابات الفردية التى قام بها الضباط الإنجليز والأمريكيون مع مختلف شهود العيان لا تترك مجالا للشك فى الموضوع، وقد قدم أحد الشهود تفسيرا

معقولا لعدم العثور على العظام المحروقة عندما قال للمحققين: لقد محيت الآثار بسبب استمرار نار المدفعية الروسية فى ضرب الملجأ بلا انقطاع.

وهكذا انتهت قصة هتلر المأساوية، وكانت اللحظة الأخيرة فيها مليئة بالإثارة. فقد أقام حفلة زواجه من إيفا براون قبل انتحاره بأربع وعشرين ساعة، وأقام المرافقون له حفلة راقصة استمرت حتى الصباح فى عنف وتوتر وجنون، وكان ذلك فى ليلة انتحاره، وتناول هتلر طعام الغذاء قبل انتحاره بساعة واحدة، وتمكن المرافقون له من تشييع جنازته ودفنه وإحراق جثمانه وجثمان زوجته بصورة كاملة بحيث لم يبق لهما أثر على الإطلاق، تلك هى قصة يوم الانتحار العالمى، والذى حلت ذكراه الستين يوم الثلاثين من أبريل ٢٠٠٥، وبعد هذا الانتحار ارتفعت رايات السلام على كل عواصم العالم، ماعدا اليابان التى استمرت تحارب حوالى ثلاثة أشهر أخرى وحتى الخامس من أغسطس من عام ١٩٤٥، حينما سقطت القنبلة الذرية فوق هيروشيما، فاستسلمت اليابان وألقت السلاح، وكان حساب هذه الحرب العالمية الثانية التى أشعلها وقادها هتلر هو خراب الكثير من مدن العالم، ومقتل خمسين مليونا من البشر وكان هتلر يظن أنه يستطيع أن ينتصر بعد أنهار الدماء التى سالت بسببه، وكان يظن أنه سوف يكون سيد العالم المطاع الذى لا ترد له كلمة، ولكن المأساة وصلت إليه فى مقره الأخير وأنهت حياته وحياة زوجته وحياة الكثيرين من أصدقائه ومساعديه نهاية فاجعة، وهذا هو الدرس التاريخى الأعظم.. فالذين يصنعون المآسى فى حياة البشر لايمكنهم،مهما تكن قوتهم أن يفلتوا من العقاب الأليم، حتى لو كان هذا العقاب فى شكل انتحار يساعد على خلاص أصحابه من الهوان على يد الأعداء.

الفصل

9

ساعدونى ...

أريد أن أقتل أبنائى!

■ **موت الأبناء فى وقت مـبكر يجعل أعمار الآباء والأمـهات قصيرة!**

■ **هل هناك أم طبيعية تفكر فى قتل أبنائها؟!**

■ **زوجة جوبلز تقتل أطفالها بنفس السم الذى قتل كلاب هتلر!**

هل يصدق أحد أن أما عاقلة تقرر أن تقتل أبناءها الستة والذين لا يتجاوز عمر أكبرهم عامه الثانى عشر؟ .. وهل يصدق أحد أن مقتل هؤلاء الأطفال قد تم أمام عينى الأم وبموافقتها الكاملة، وأنها كانت فى كامل قواها العقلية عند تنفيذ هذه الجريمة ؟ لو أننى سمعت هذه القصة من أحد لقلت أنها قصة غير قابلة للتصديق، فمن الصعب - إن لم يكن من المستحيل - أن توجد أم عاقلة تفعل شيئا من ذلك، فلابد أن تكون هذه الأم قد أصابها نوع من الجنون وتوقف عقلها عن العمل بصورة نهائية.

ذلك لأن علاقة الآباء بالأبناء، وخاصة فى فترة طفولة هؤلاء الأبناء، هى أمر لا يمكن أن تصفه الكلمات، فهى علاقة تحكمها قوة خفية بالغة الحساسية والصدق، واذكر عندما توفى والدى سنة ١٩٧٥ -وكان فى الثالثة والستين- أن جاءنى للعزاء طبيب صديق، وأخذنا نتبادل الحديث حول لغز الحياة ولغز الموت، وكنت أشعر بالصدمة لأن والدى مات فجأة ودون مقدمات مرضية خطيرة، وقد شعر بالتعب ذات ليلة فنقلناه إلى المستشفى وتصورنا أننا استطعنا إنقاذه من آلامه، وأن عناية الله أحاطت به وبنا، ولكن لم تمض سوى ساعات قليلة حتى كان قد توفى إلى رحمة الله، ولفظ أنفاسه وأنا واخوتى حوله، وحدث ذلك كله فى لحظات قليلة لا تتجاوز ثوانى معدودات. وقد أخذ الطبيب الصديق يعزينى، وكنت أثق به

وبعلمه، وإذا به يقول لى : أنا أعلم كل شئ عن حالة والدك، لأننى كنت أعالجه منذ سنوات، ووالدك لم يكن لديه مرض حاد، وقد كان رجلا مستقيما، وكان يتبع النظام الغذائى المحدد له طبياً فى دقة شديدة. ولكن والدك كان يعانى - فى سنواته الأخيرة - حزنا خفيا فى نفسه، وهذا الحزن القوى الصامت هو سبب التعجيل بموته، وسبب هذا الحزن موت ابنه، وشقيقك "وحيد" .. قبل وفاة والدك بعدة سنوات، فقد أصبح الحزن كامنا فى قلب والدك حتى هدم جسمه من الداخل، وقضى على كل رغبة له فى الحياة، ولو لم يكن والدك من الممتلئين بالإيمان الدينى العميق لمات بعد وفاة ابنه بأيام أو أسابيع. ثم استطرد الطبيب الصديق: إن علاقة الآباء بالأبناء أكبر من العقل وأكبر من العاطفة. وأنا أتحدث معك من خلال تجاربى كطبيب يهتم بالجانب النفسى، ويرى فى هذا الجانب قوة شديدة التأثير فى مرض الإنسان وصحته، وقد لاحظت دائما أن موت الأبناء فى وقت مبكر من أعمارهم يجعل أعمار الآباء والأمهات قصيرة. فهذا الموت المبكر لابن من الأبناء يسرق سنوات من عمر أبيه وأمه، وذلك دون مرض ظاهر، والآباء والأمهات الذين ينجون بأنفسهم من الأثر المدمر لموت أبنائهم هم الذين يملكون قدراً كافيا من الإيمان الدينى العميق، فمثل هذا الإيمان هو الدواء الشافى للآباء فى أية محنة من هذا النوع، وهذا الإيمان الدينى هو الذى يعطى الآباء إحساسا بأن أبناءهم لم يغيبوا إلى الأبد، وأنهم يملكون نوعا خاصا نورانيا من الوجود يكاد الآباء يرونه رؤية العين، وبهذا الإيمان وحده تهدأ نفوس الآباء والأمهات الذين يفقدون أبنا من أبنائهم، أما الذين لا يملكون هذا الإيمان الدينى الصافى، فإنهم يتعرضون لأزمات صحية ليس لها سبب عضوى، وهى أزمات قد تؤدى إلى القضاء على أصحابها. ومن نعمة الله على الناس تلك الراحة التى يبعثها الإيمان فى النفوس، فتهدأ الأجسام وتستقر فى مواجهة الحياة والأيام، وقد عاش والدك سنواته الأخيرة بقوة هذا

الإيمان فى نفسه، ولكن الحزن الكامن فى داخله تغلب عليه فى النهاية. إلى هذا الحد الثابت بالتجارب الدقيقة يرى العلماء طبيعة العلاقة بين الآباء والأبناء. وهذه العلاقة تكون بهذا القدر من القوة فى حالة الأسرة الطبيعية التى ليس فيها شذوذ أو انحرافات، إذ أن الشذوذ والانحرافات تمثل الاستثناء ولا تمثل القاعدة، وفى دائرة الاستثناء يمكن أن يوجد أب قاس، أو أم غير مبالية ولامهتمة بأبنائها، وهذا النوع من الآباء والأمهات هم خارج القاعدة الأساسية للعلاقات الإنسانية الطبيعية، أما العلاقات الطبيعية بين الآباء والأبناء فهى دائما علاقات قوية إلى أبعد الحدود، وتحكمها عوامل تشبه القوة الخفية المسيطرة التى لايراها أحد، ولكنها مع خفائها تصنع وحدها كل العوامل الحاكمة للعلاقة بين الآباء والأبناء.

ومن هنا يبدو غريبا جداً أن تكون هناك أم طبيعية تفكر فى قتل أبنائها ثم يتم تنفيذ هذا القتل بإرادتها وأمام عينيها، ويزيد الأمر غرابة وشذوذا ويصل إلى حد الرعب أن هذه الأم لم تقتل أبنا واحد أو اثنين أو ثلاثة، بل قتلت ستة أبناء لها فى لحظات قليلة، وعندما اقتربت لحظة الموت أو القتل قالت هذه الأم لإحدى صديقاتها: ياعزيزتى عندما تحل تلك اللحظة عليك أن تساعدينى، إذا ضعفت فى موضوع الأطفال... إن ما اخشاه هو أن " أضعف فى اللحظة الأخيرة". وعندما جاءت اللحظة الأخيرة لم تضعف هذه الأم ونفذت ماعزمت عليه من قتل أطفالها الستة جميعاً.

تلك الأم هى " السيدة جوبلز" زوجة الزعيم الألمانى الشهير "جوزيف جوبلز" " ١٨٩٧ - ١٩٤٥ "ومن الطريف أن هذه السيدة تحمل اسما شخصيا قريبا من الأسماء العربية فاسمها "ماجدا" واشتهرت باسم زوجها وأصبحت معروفة باسم " السيدة جوبلز" و "جوبلز" هو صديق هتلر الوفى، وتلميذه وتابعه الأمين، وهو وزير إعلام النظام النازى، وكان من أقرب الرجال إلى هتلر وأكثرهم

التصاقا به وإخلاصا له، و "جوبلز" له شهرة عالمية فى مجال الدعاية والإعلام، وهو صاحب مدرسة فى هذا المجال يهتم بها الدارسون والباحثون، فقد كان بارعا أشد البراعة فى تجميل زعامة هتلر وتقريب صورته إلى الجماهير، وكان بارعا أشد البراعة فى إخفاء الحقائق المؤلمة وتقديمها فى صورة براقة تخفى الحقيقة وتعطيها ألوانا من الزينة الخادعة، بحيث يظن الناس أن مايقدمه إليهم "جوبلز" هو الصواب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه أومن خلفه، وقد لعب " جوبلز" دوره الإعلامى الجبار بصورة تدل على ذكاء كبير، ومهارة غير عادية، وولاء غير محدود لزعيمه هتلر وللنظام النازى الذى أسسه هتلر وكان يقف على قمته، وعلى الرغم من أن الباحثين فى "إعلام جوبلز" يعتبرون هذا الإعلام نموذجا حيا وصارخا للإعلام القائم على الأكاذيب والادعاءات، فإن هؤلاء الباحثين- وكلهم من أعداء جوبلز وأعداء هتلر والنازية- لم ينكروا على جوبلز ذكاءه ومهارته وقدرته الإعلامية الفذة والعجيبة وخاصة فى تلك الفترة التى لم يكن التليفزيون فيها قد انتشر كما هو الحال بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد كان جوبلز يعتمد على الإذاعة والصحافة والسينما فى توجيه دعايته الجبارة لصالح هتلر وألمانيا النازية.

وليس من هدفنا هنا أن نقدم دراسة سياسية وإعلامية عن التفكير النازى، والأساليب التى اعتمد عليها" جوبلز" فى دعايته القوية التى سيطرت على عقول الإلمان من سنة ١٩٣٣ وحتى اول مايو سنة ١٩٤٥، ولكننا نريد التوقف أمام لحظة النهاية فى حياة جوبلز، فهذه اللحظة هى التى شهدت مأساة مقتل أبناء جوبلز الستة تحت إشراف زوجته الجميلة الرشيقة الذكية والتى هى فى ذات الوقت أم هؤلاء الأطفال الستة والذى يعنينا هنا هو "المأساة الإنسانية" وليست الخلفيات السياسية لهذه المأساة.

كان الجيش السوفييتى قد دخل مدينة برلين عاصمة ألمانيا

النازية فى أواخـــر أبريل سنة ١٩٤٥، وعندمـــا أصـــبح الجنود السوفييت على بعد أمتار قليلة من الملجأ الكبيـر الحصين الذى كان يقيم فيــه هتلر وتأكد هتلر من أن الهـزيمة النهائيـة قد حلت به وبنظامه النازى وانه أصبح عرضة لأن يمسك به الجنود السوفييت بعد ساعات قليلة اتخذ قـراره بالانتـحـار مع زوجتـه "ايفـا براون" وانتــحــر هتلر بالفـعل مع زوجـتــه فى ٣٠ أبريل سنة ١٩٤٥، وكـان انتحاره بإطلاق رصاصه من مسدسه على فمه، إما انتحار زوجته فكان بالسم وتم إحراق جثة هتلر وزوجته حسب وصيته لمساعديه الذين كانوا يقيمون معه فى نفس الملجأ، وهى القصة التى روينا تفاصيلها فى الفصل السابق.

كان جوبلز وزوجته "ماجدا" وأطفالهما الستة يقيمون مع هتلر فى ملجئه الضخم الفاخر فى "برلين"، وعندما قـرر هتلر الانتحار مع زوجته وأبلغ قراره للمحيطين به فى ملجئه تحت الأرض وعلى رأس هؤلاء جميعاً جوبلز وزوجته قام جوبلز بكتابة رسالة أثبت فيها أنه قـرر الانتــحـار مع زوجـتـه وقـتل أطفـاله السـتـة، وقـد وصلت هذه الرسـالـة كـاملة إلـى أيدى الذين اقـتـحـموا الملجـأ بعـد ذلك بأيام وسجل نصها المؤرخ الأمريكى الكبيـر "وليم شيـرير" فى كتابه الرائع "تاريخ ألمانيا الهتلرية" والذى صدرت ترجمته العربيـة فى أربعة أجزاء تزيد على ألفى صفحة وقام بهذه الترجمة الممتازة الدقيقة الأديب العـربى الفلسطينى الراحل خيـرى حمـاد. وهذا هو نص رسالة جوبلز، والتى كتبها جوبلز قبل انتحار هتلر بيوم وقبل انتحار جـوبلز نفسـه بيـومين وفى هذه الرسـالة التى وجهـهـا إلى الشـعب الألمانى يقول "جوبلز":

" لقد أمرنى الفوهرر " أى هتلر" بمغادرة برلين لألعب دورا كعضو بارز فى الحكومة الجديدة التى اختارها وإنى لأول مرة أجد نفسى مضطرا لعصيان أوامر الفوهرر عصيانا تاما. وتشترك معى زوجتى كما يشترك أطفالى فى هذا العصيان، وبالإضافة إلى الحقيقة

الواقعة وهى أن مشاعر الإنسانية والولاء الشخصى تمنعنا من التخلى عن الفوهرر فى هذه الساعة من المحنة الشديدة فإننى أرى أننى سأظهر فيما تبقى من حياتى فى صورة الخائن الذى لاشرف له، والوغد الرخيص فافقد احترامى لنفسى كما أفقد احترام إخوانى المواطنين وفى هذا الكابوس من الخيانات الذى يلف الفوهرر فى هذه الأيام الحرجة للغاية من أيام الحرب يجب أن يكون هناك واحد على الأقل يبقى إلى جانبه حتى الموت، دون شرط أو قيد وإنى لاعتقد أننى بذلك أؤدى أعظم خدمة لمستقبل الشعب الألمانى وسوف تكون الأمثلة والرموز فى الأيام الشاقة المقبلة أكثر أهمية من الأشخاص، ولهذا السبب وحده فإنى مع زوجتى وبالنيابة عن أطفالى وهم أصغر سنا من أن يستطيعوا التعبير عن أنفسهم وثقة منى بأنهم لو كانوا أكبر سنا من ذلك لوافقوا دون تحفظ على قرارى أعلن عن تصميمى الذى لن يتغير على ألا أترك برلين "عاصمة الرايخ" حتى لو سقطت وأن أظل إلى جانب الفوهرر لأنهى حياتى التى لا أرى أية قيمةلها، إذا لم استطع أن أقضيها فى خدمة الفوهرر وإلى جانبه" .

ويعلق المؤرخ الأمريكى " وليم شيرر" على القرار الذى اتخذه "جوبلز" والذى يعنى انتحاره هو وزوجته مع قتل أطفالهما الستة فيقول:

إن جوبلز لم يكن راغبا فى العيش فى ألمانيا التى فارقها زعيمه الجليل هتلر. فلقد ربط بين نجمه ونجم هتلر، إذ يعود إلى هتلر وحده الفضل فى صعود جوبلز المثير فى الحياة ولقد كان جوبلز هو نبى الحركة النازية وداعيتها الأول، وإليه وحده يرجع الفضل فى إيجاد أسطورتها، ولتخليد هذه الأسطورة يجب ألا يكون الزعيم وحده هو الذى يموت ميتة التضحية، بل يجب أن يرافقه فيها أيضاً أكثر اتباعه إخلاصا والوحيد من رجال " الحرس القديم" الذى لم يخن هتلر أو يتخلى عنه وعليه أيضاً أن يضرب مثلا فى

الفداء يعيش ماعاشت الأجيال والعصور ولاريب أن هذه الأفكار هى التى سيطرت على "جوبلز" عندما مضى إلى غرفته الصغيرة فى الملجأ ليكتب رسالته السابقة توديعا منه للجيل الحاضر والأجيال القادمة".

وفى مساء يوم أول مايو سنة ١٩٤٥، كان هتلر قد انتحر فى اليوم السابق مع زوجته إيفا براون وتم إحراق جثمانهما إحراقا كاملا بحيث لم يبق لهما أثر - قرر "جوبلز" وزوجته أن ينفذا قرارهما بالانتحار وكان لابد أن يسبق ذلك تنفيذ قرارهما بقتل أطفالهما الستة وهم بالترتيب هيلا "١٢سنة" - هيلدا " ١١ سنة" - هيلموت "٩ سنوات" هولد "٧ سنوات" - هيرا "٥ سنوات" - هايد "٣ سنوات" ومن السهل أن نلاحظ هنا أن أسماء الأطفال جميعا تبدأ بحرف "الهاء" تيمنا باسم "هتلر" وفى هذه الملاحظة البسيطة يبدو مدى تعلق "جوبلز" وزوجته بزعيمهما "هتلر" ولاشك أنهما كانا يتصوران فى أيام العز والنفوذ والسلطة أن "هتلر" لا يمكن أن يتعرض للهزيمة وأن أيام مجد العصر النازى سوف تدوم إلى الأبد ولكن هاهى الدائرة تدور على "هتلر" وهاهو "جوبلز" وزوجته وأطفالهما يجدون أنفسهم جميعا فى ملجأ هتلر الأخير، ويتعرض هذا الملجأ الحصين لضربات المدافع المستمرة من الجيش السوفييتى الزاحف الذى دخل برلين وأصبح على بعد أمتار قليلة من هذا الملجأ، وكان هناك جيش صغير من "الصبيان" الألمان لايزالون يحملون السلاح ويدافعون عن برلين وكان هؤلاء "الصبيان" الصغار الذين لم يتجاوزوا سن السادسة عشرة هم الذين يدافعون عن هتلر والذين معه فى ملجئه وكان الدفاع يائسا وهزيلا وكان الصبيان الذين يحملون السلاح يسقطون كالعصافير أمام الجيش السوفييتى الجبار الزاحف على برلين بخطى ثابتة وأسلحة قوية وكثيفة، وكاد ملجأ هتلر ينهدم على من فيه فانتحر هتلر وزوجته وفر من استطاع أن يفر من العاملين فى الملجأ، وأصبح جوبلز وزوجته

وأطفالهما أمام اللحظة الحاسمة فإما أن يقعوا فى أيدى الجيش السوفييتى أو يتخلصوا من حياتهم ويلحقوا بزعيمهم هتلر، ويلقوا نفس مصيره.

كانت المهمة الصعبة أمام الأم هى كيف يتم قتل أطفالها قبل انتحارها مع زوجها وتلك هى اللحظة التى قالت فيها لإحدى صديقاتها من العاملات فى ملجأ هتلر: ساعدينى إذا أصابنى ضعف عند قتل الأطفال حتى لا أتعرض للضعف فى اللحظة الأخيرة.

ويقول المؤرخ " وليم شيرر" فى وصف هذه اللحظة الدقيقة : "إن السيدة جوبلز الشقراء الجميلة كانت سيدة قوية العزيمة والإرادة وكانت ترى أن من السهل عليها أن تموت مع زوجها ولكن فكرة قتل أطفالها الستة الذين كانوا يلعبون ويمرحون فرحين فى الملجأ "الهتلرى" الضخم الجميل فى هذه الأيام الأخيرة دون أن تكون لديهم أية فكرة عما يخبئه القدر لهم.. هذه الفكرة أفقدت الأم السيدة جوبلز " أعصابها" !!"

وكان لابد من تنفيذ هذا القرار ولابد أن تشرف الأم بنفسها على قتل أطفالها وجاءت الأم بالأطفال وأوقفتهم عن اللعب. وقام أحد الأطباء الموجودين بالملجأ بإعطائهم "إبراً" سامة هى نفس الإبر التى قام باعطائها لكلاب هتلر قبل ذلك بيوم واحد إذ أن هتلر كانت لديه كلاب عزيزة عليه جداً وقد حرص هتلر على تسميم هذه الكلاب قبل انتحاره بقليل حرصا من هتلر على ألا تعيش كلابه المدللة فى ألمانيا المهزومة المحتلة وقد كانت هذه الكلاب تعيش فى ألمانيا النازية أفضل مما يعيش جميع البشر فى أى مكان من العالم. ومات الأطفال الستة مسمومين بنفس السم الذى قتل كلاب هتلر وتم ذلك أمام عين الأم والأب!

وبعد ذلك أصبح من السهل أن تموت هذه الأم " السيدة جوبلز" وزوجها الدكتور "جوبلز" وكما يروى المؤرخ وليم شيرر: كانت الساعة

قد قاربت الثامنة من مساء الأول من مايو سنة ١٩٤٥ وخرج الدكتور جوبلز وزوجته من غرفتهما فودعا كل من لقياه فى الممر ثم اتجها إلى الحديقة القائمة فوق الملجأ وهناك تولى جندى من الحرس النازى - بطلب منهما - إطلاق النار على مؤخرة الرأس وصبت على الجثتين أربع صفائح من "البنزين" ثم اشتعلت فيهما النار مع أطفالهما الستة !!.

وكان أقسى ما فيها هو قتل الأطفال الستة بالسم أمام الأم والأب وبعدها هانت الحياة وأصبح موت الأم والأب بالنسبة لهما أمرا يسيرا وضروريا ولا رجوع عنه فقد تعذبا بموت الأطفال عذابا غير محدود وأصبح موتهما شيئا تافها ولعلهما كانا قد ماتا موتا فعليا أليما وهما يشاهدان أطفالهما الستة يموتون "بالإبر المسمومة" دون أن يعرف هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين كانوا يلعبون ويمرحون منذ لحظات ماذا يحدث لهم ولماذا حدث هذا كله.

الفصل

١٥

شاعرة

عبقرية وزوج نبيل

- **هل يقبل الرجل أن يكون فى خدمة المرأة التى يحبها؟**
- **تطرف نسائى يدعو لسيادة المرأة على الرجل!**
- **زوج وممرض وطباخ ومدير أعمال!**

هل يقبل رجل من الرجال أن يكون فى خدمة المرأة التى يحبها؟ إن تاريخ المجتمع الإنسانى لا يعرف سوى الصورة العكسية، أى أن المرأة هى التى تقف دائما وراء الرجل، وهى التى ترعاه وتتولى شئونه وتقوم بخدمته وتيسير أموره، ومن هنا ظهرت الكثير من الأقوال التى هى نوع من الأمثال، تردد كلها هذا المعنى وتؤكده، مثل القول بأن " وراء كل رجل عظيم امرأة" ومثل الحكمة الفرنسية الشهيرة التى تقول "... فتش عن المرأة"، ومعنى هذه الحكمة أن المرأة لها دور قوى وإن لم يكن ظاهرا فى كل مشكلة من المشاكل التى تواجهنا فى الحياة، ولذلك فعلينا عندما تظهر مثل هذه المشكلة أن نبحث بدقة عن اليد الخفية للمرأة فى هذه المشكلة. وسوف نجد أن المرأة هى سبب المشكلة، أو هكذا يرى الفرنسيون، ويبدو أن رأيهم فى الدور الخفى والقوى للمرأة فى كل أمور الحياة ومشاكلها قد أخذت به الإنسانية كلها واعتبرته رأيا صحيحا بالغاً غاية الدقة والصواب فالكثيرون يؤمنون بأن المرأة هى دائما وراء كل المشاكل والأزمات.

ولاشك أن التاريخ المعروف للعلاقة بين الرجل والمرأة، ووقوف المرأة دائما وراء الرجل وفى ظله، كان من الأسباب القوية لظهور ما يمكن أن نسميه باسم "التطرف النسائى"، وهذا التطرف تمثله حركة فكرية عجيبة ظهرت فى القرن العشرين. وهذه الحركة لا تكتفى بالدعوة إلى "المساواة بين المرأة والرجل" ولكنها تتقدم خطوة، بل قفزة كبيرة

إلى الأمام، فتدعو إلى سيادة المرأة على الرجال. فالمرأة هى أصل الحياة الإنسانية، ولذلك يجب أن تكون هى القائدة للرجال فى كل شئ وليس العكس، وهذه المدرسة الفكرية لها فى الغرب الآن انصار من النساء، ولها زعيمات ومفكرات ومطبوعات وصحف ومجلات، وكلها تتفق على فكرة واحدة هى أن المرأة هى سيدة الحياة وليس الرجل، وأن المرأة هى الأصل، أما الرجل فهو تابع وخادم وأداة. وقد وصلت إحدى صاحبات هذه الدعوة إلى حد الجنون، فأخذت تقول إن المرأة يمكن أن تستغنى عن الرجل استغناء كاملا، وكانت شديدة الإيمان بهذه الدعوة، كما كانت تحرض النساء على الاقتناع بها وترسم خططا خيالية لتحقيقها، وهذه المرأة هى الأمريكية "فاليرى سولاناس"، وقد انتهت هذه المرأة بدخول مستشفى للأمراض النفسية، ولكن بعض كتاباتها تعتبر الآن من الكتابات المهمة والأساسية عند دعاة "الفيمنست" وأبسط ترجمة لهذه الكلمة هى "الدعوة لسيادة المرأة" فى المجتمع الإنسانى على جميع الرجال.

وهذه الدعوات كلها تدخل ضمن الدعوات المتطرفة، لأنها لا تراعى التوازن الذى ينبغى أن يسود فى الحياة بين جميع عناصرها من الرجال والنساء، وهذه الدعوة بالطبع لا تقل فى خطئها عن الدعوة المناقضة لها، وهى الدعوة إلى سيادة الرجل المطلقة فى البيت والمجتمع، بحيث لا يبقى للمرأة دور سوى أن تكون تابعة وخادمة مطيعة، تسمع كلام الرجل وتعيش على هواه وتلتزم بالقواعد التى يضعها دون أن تناقش أو تعترض، ودون أن تطلب أبسط الحقوق، أى مجرد الفهم والتفسير.

وهكذا فإن التطرف ضد المرأة يبدو شيئاً ترفضه الحياة وتنكره، وكذلك سوف يكون مصير التطرف النسائى الجديد ضد الرجال، فهو أيضا تطرف ترفضه الحياة وتنكره. والصواب هو التوازن، وإقامة العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس العدالة والضمير والمحبة والرحمة، وينبغى أن تكون هذه المشاعر جميعا متبادلة بين

الرجال والنساء على السواء.

على أن الحياة الواقعية تستطيع أن تقدم فى كثير من الأحيان نماذج إنسانية لاتهتم بالتفكير النظرى ولا تعبأ به، وهذه النماذج الإنسانية تتصرف فى حياتها حسب مشاعرها الخاصة الصادقة، ومن هذه النماذج نموذج رائع هو "يوجين" زوج الفنانة والشاعرة الأمريكية " إدنا ميلاى" "١٨٩٢-١٩٥٠"، وقد اشتهرت "ميلاى" فى العشرينيات والثلاثينيات، وأصبحت من أهم الأسماء فى الأدب الأمريكى الحديث، ومن أعمالها الناجحة مسرحية اسمها " المصباح والجرس" ولها ديوان معروف فى الشعر الأمريكى المعاصر هو "خمر من هذه الأعناب". وكانت شخصية هذه الشاعرة تعتبر من الشخصيات "الشاذة" إذا نظرنا إليها كما ننظر إلى الإنسان العادى. ولكن هذا الشذوذ كان يفسره ويبرره أنها فنانة،وأنها كانت تركز كل نشاطها وحيويتها على "فنها"، وقد رسمت لها الكاتبة الأمريكية "دوروثى طومسون" صورة حية فى كتابها "شجاعة السعادة" الذى ترجمته إلى العربية السيدة " تماضر توفيق". ومن خلال هذه الصورة نرى الشاعرة "إدنا ميلاى" تحب أن تعمل طيلة الليل وتنام النهار كله، وكانت تحب العزلة الكاملة، ولا تحب أن تلتقى بأحد، وكانت أيضا لا تحب أن تكتب خطابات لأحد، ولا تحب أن ترد على أى خطابات، لأنها كانت ترى فى ذلك كله مضيعة للوقت، فهى تريد أن تستخدم وقتها كله، ومشاعرها وذكاءها، وكل ما تملك من طاقة فى سبيل شئ واحد هو أن تكتب شعرا جميلا، يرضيها قبل أن يرضى الآخرين، فقد كانت تحس قبل غيرها بقيمة ما تكتبه، فإن كان ضعيفا مزقته أو ألقت به إلى النيران فى غير تردد، أما إذا كان جميلا ومعبرا عن نفسها بالصورة التى تحبها، فإنها تنشره، وتقدمه إلى الناس. وقصائدها كانت هى الرابط الوحيد بينها وبين العالم، أما العلاقات الاجتماعية فكانت ترفضها تماما، وكانت تغلق باب بيتها على نفسها ولا ترى أحدا وكانت تتعرض لأزمات تنتابها من حين إلى آخر، ولكنها

كانت تعالج نفسها وتخرج من هذه الأزمات كما تقول عنها "دوروثى طومسون" "وهى أتم ماتكون صحة وعافية، وتساعدها على ذلك حيويتها المتدفقة، وكانت فى هذه الحالات تخرج إلى حديقة بيتها وتعمل فى هذه الحديقة وهى ترتدى بنطلونا قصيرا وشعرها الأحمر الذى لم يقترب منه الشيب أبدا يطير فى الرياح، وتبدو وكأنها فى عز الشباب لم يؤثر عليها الزمن بمتاعبه ومصاعبه، رغم أن عمرها كان فوق الخمسين".

هذه الشخصية المنعزلة التى تعطى كل وقتها وطاقتها لشعرها ولا تفكر فى شىء آخر، بل ولا تعرف فى الحياة شيئا سوى الشعر كيف استطاعت أن تستمر فى الحياة، ومن الذى ساعدها على أن تعطى كل نفسها بهذه القوة لقصائدها الشعرية؟. إنه زوجها وحبيبها "يوجين" واسمه الكامل "يوجين جان بواسيفان". وتصفه الكاتبة "دوروثى طومسون" فتقول : "كان "يوجين" رجلا مدهشا، وكان زواجهما فى حد ذاته نوعا من العلاقة المدهشة، فقد كرس هذا الرجل ربع قرن كاملاً من أفضل سنوات حياته لزوجته الشاعرة، يخدمها ويقف على راحتها ويقوم بدور الزوج والممرض والطاهى ومدير الأعمال، وفوق كل ذلك فإنه كان يقوم بدور الصديق لهذه العبقرية الشاذة، والتى كانت تبدو يوما مثل طفلة مندفعة وكأنها "كليوباترا" عندما قابلها قيصر لأول مرة فى مصر، وكانت تبدو فى اليوم الثانى كساحرة تظهر على وجهها معالم الرعب وتثور لأتفه الأسباب ولا يستطيع أحد أن يعرف ماذا سوف تكون حركتها التالية؟!. ثم تقول "دوروثى طومسون" المعروف أن كثيرا من النساء قمن بتكريس حياتهن الشخصية وأوقاتهن لأزواجهن العباقرة، وكثيرا مانقرأ عن أمثالهن عند سرد حياة أحد هؤلاء، ويعطيهن المؤرخون حقهن من الاحترام والتقدير. ولكن العكس كان أمرا نادرا، لأن زوج الشاعرة يثير فى خيالنا صورة عن رجل خانع خجول، لا يتمتع بكثير من صفات الرجولة، فهو يخدم امرأة مشهورة "هى التى ترتدى

البنطلون" كما يقول المثل الأمريكى. أى أن الشاعرة هنا هى التى تقوم بدور الرجل صاحب الكلمة، أما الرجل فيكون هو التابع الخانع. ولكن هذا لم يكن هو " الحال" مع "يوجين" زوج الشاعرة " إدنا ميلاى"، ولم تكن علاقة الاثنين تقوم على مثل هذه الأسس لأن "يوجين" كان رجلا بمعنى الكلمة، مثقفا، صاحب كبرياء، شديد الاحترام لنفسه. كان المنزل الذى أقاما فيه يقع على مرتفع يطل على واد جميل، وله حديقة تزخر بالطيور والنحل والأعشاب والأزهار التى كانت تحبها الشاعرة .. هذا المنزل لم يشهد مرة واحدة خادما أو خادمة. ولكن هذا لا يعنى أن الشاعرة وزوجها كانا يعيشان فى حالة "بوهيمية"، بل على العكس، كان المنزل منظما بفضل الزوج "يوجين" الذى كان طاهيا ممتازاً، ومحبا لفن الطهى أكثر من أية امرأة.

وتواصل "دوروثى طومسون" وصفها لهذه العلاقة العجيبة الرائعة بين الشاعرة "ميلاى" وزوجها "يوجين" فتقول:

"كيف يمكن أن نصف علاقة كهذه؟ إن هذه الحالة كانت تشبه بلاطا ملكيا تشرف عليه ملكة من غير عرش، وترأس مجلسا ملكيا أعضاؤه : الحب والخيال والشعر، ويضم أصدق خلصائها الذى عينته رئيسا لتشريفاتها، ووزيراً لماليتها، ومسليا لها. وبهذا رفعت مقامه وجعلته فى مصاف النبلاء والملكات، حتى ملكات الروح، يجب ألا تشغلهن تفاصيل الحياة اليومية العادية، ولذلك كان "يوجين" زوج الشاعرة "ميلاى" فى أخريات أيام الشاعرة بمثابة شخص يحمل عصا سحرية، وفى بعض السنوات الأخيرة خمد الصوت الملائكى وضاعت شهرة الشاعرة التى اكتسحت أعوام ١٩٢٠-١٩٣٠، وكانت الزوجة الشاعرة "ميلاى" لم تلمس فى حياتها ورقة مالية، ولم تكتب شيكا لبنك، ولم تدفع "فاتورة" واحدة لمحل من المحلات، ولا تعلم ماهو دخلها ولا مابقى فى المنزل من نقود، لأن بطلها - الذى هو زوجها- كان دائما بجانبها، وهذا الفارس كان هو الذى يتولى تصريف مثل هذه الأمور. واضطر الزوجان إلى قطع الرحلات التى كانا

يقـومـان بهـا للخـارج والإقـلال من حـضـور حـفـلات الأوبرا، والسيـمفونيـات، والأكل فى المطاعم الفـاخـرة، ورغم هذا فقـد كـانت الشـاعـرة "إدنا ميـلاى" تنام على سـرير نظيف ملاءاته دائـما تتغـير، ولايتم تقديم شئ لها بعد الأكل إلا "الفراولة بالكريمة" وهى ماكانت تحبـه، ولا تسـتمـع إلا لموسيـقى بيـتهـوفن، وبجـانبـهـا رجلها المفضل، وضحكاتهما ترن فى أرجاء المنزل السعيد".

ثم تقـول " دوروثى طومسـون": وقد يبدو هذا كله خيـاليـا فى القرن العشرين، ولكن هكذا كـانت الحـال، لأنهـمـا لم يكونا يعيشـان فى هذا القرن الجامد القاسى. فى أى قرن إذن كان يعيش "يوجين" مع زوجته الشـاعرة العبـقـرية "إدنا ميـلاى"؟. إن من مـواهب الشـعـراء أن يجـمعوا الزمن فى واحد، فكلما رأوا جمالا كان هذا زمنهم .."

وتتسـاءل الكاتبة المبدعـة "دوروثى طومسون": كيف استطاع "يوجين" أن يتحمل هذه المسئوليات الصعبـة مع زوجته الشـاعرة العبـقرية "إدنا ميـلاى" دون أن يشكو أو يتـذمـر؟ وتجيب عن ذلك بقـولهـا :"لابد أنه كان هناك ما يعوضـه كثيـرا عن الإعيـاء والحـزن والاهتمام الذى كان يحمله فوق أكتافه، لأنه عاش طوال حياته سعيـدا مرحا غير متذمر، وكانت زوجتـه الشـاعرة العبـقرية "إدنا ميلاى" شخصية عجيبة، لا من حيث إنها تعتبر منٍ أحسن شعراء أمريكا فى عصرها فحسب، ولكنها كانت محبوبة جداً لكل من عرفها، وكانت قـادرة على الحديث الرائع، تطرق كل الموضـوعـات : من مـوسـيـقى إلى فلسـفـة إلى فن، وحـتى السياسة كانت تتكلم فيها بذكاء وفهم، وقد كتبت إحدى قصائدها عن دمار الأرض قبل أن يذكر أحد شيئا عن القنبلة الذرية، كما كتبت قصيدة ترثى فيها البشرية جمعاء قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية واسمتها "مـرثية الجنس البشـرى" قالت فيها : إن الجنس البشرى لن يقـضى عليـه فيـضـان أو حـريق أو زلزال أو بركـان ثائر، بل سـتكون نهايته على أيدى نفسه وكثيرا ماكان يحدث أن تسئ إلى بعض الناس، ولكن الكل كانوا يسـامحونها لأنهم كانوا يعلمون مدى حبها للبشر،

وحبها للحب ذاته. ورغم أنها لم تكن جميلة إلا أنها كانت أكثر من ذلك ... كانت تستطيع أن تخلق جوا من الجمال، ولم تكن تخلقه بالطريقة التى تخلقه بها ممثلة، بل كانت تخلق هذا الجمال من شعورها الداخلى .. فإذا كانت هى تشعر بالجمال فإنها تصبح جميلة، وإذا كانت تحب، فإن وجهها يشرق بالحسن. ولم يحدث أن كتبت امرأة قبلها عن الحب بمثل الجرأة التى كتبت هى بها، وكان هذا بالطبع سبب رواج قصائدها. وقد نشرت قصيدة عنوانها "الشفاه التى قبلتها شفتاى".

وكانت مثار حديث الناس جميعا، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لشهرتها، بل السبب أنها كتبت عن الحب بصراحة وأمانة وإخلاص، دون اللجوء إلى الابتذال فى التعبير، أو الإسفاف فى الأفكار، فكانت تخاطب كل امرأة تحطم قلبها على صخرة الحب. وبعض ما كتبته "إدنا ميلاى" عن القلوب المحطمة من الشعر السهل البسيط ولعل أجمله القصيدة التى تقول فيها: الزمن لا يجلب الراحة معه.

والواقع أن "إدنا ميلاى" كانت امرأة بكل معنى الكلمة فى قصائدها المختلفة، ولم تحاول مرة واحدة أن تكتب تحت اسم مستعار. كانت دائما ترى الأشياء بعقلية امرأة وغريزة امرأة حتى خط يدها كان خط امرأة، وكانت الأشياء التى لاحظتها أشياء لا يمكن أن يلاحظها رجل مثل : وعاء الحلوى، وإبريق الشاى أو المكنسة، كما كانت شديدة الملاحظة لتصرفات الرجال، وهى التصرفات التى لايلحظها الرجال أنفسهم. ورغم أن قصائدها فى الحب اثارت كثيرا من النقد فى "صالونات" أمريكا، إلا أننا نستطيع أن نقول إن "إدنا ميلاى" لم تكتب فى قصائدها كلمة واحدة يمكن أن تشمئز منها النفس، أو معنى يفهم منه عدم الأكتراث أو التساهل، ولعل أحسن مجموعة شعرية لها هى ماجمعته من قصائدها تحت عنوان "اللقاء الخطير" وهى مجموعة من شعر الحب يمكن أن يقال أنه لامثيل لها بين شعراء العالم، وفيها تشير إلى الحب الذى يندلع فى الصدر كمدينة تحترق وهو حب مثل

حب الملكات اللاتى يتنازلن عن عروشهن بسبب حبهن، ولا يندمن أو يتأسفن أبدا على ذلك.

وتصف الكاتبة "دوروثى طومسون" موهبة الشاعرة "إدنا ميلاى" فتقول : "كانت لديها حساسية مرهفة كالحيوانات، فكانت أذنها تسمع كالغزالة، وأنفها يشم كالكلب، كما منحتها الطبيعة عقلا لماحا بعيدا عن الشهوات... عقلا يلمس جوانب القلوب ليصل إلى الحقيقة، فكانت كالآلة اللاسلكية، تتقبل الرسائل التى لا يتقبلها الغير فى الماضى أو الحاضر أو فى المستقبل وكان لها قلب يتحطم مع كل قلب يتحطم وتسيل دماؤه، فتجعل "إدنا ميلاى" من هذه الدماء ورودا".

كيف انتهت هذه القصة العجيبة من قصص الحب والنبوغ، لقد مات الزوج "يوجين" فجأة فى صيف سنة ١٩٤٩. مات الرجل الذى جعل من نفسه بإرادته الكاملة عونا ليس له مثيل لزوجته الشاعرة العبقرية فكان هو الذى يتولى كل أمورها، ويطبخ وينظم أمور البيت ويكنسه ويجعله نظيفا فى كل شئ وكان هو الذى يدير الأمور المالية بصورة كاملة كل ذلك لأنه كان يحب زوجته الشاعرة وكان مؤمنا بموهبتها وعبقريتها ولم يكن بحاجة إلى أحد ليقنعه بضرورة خدمة هذه الزوجة العبقرية، وضرورة توفير الوقت والراحة لها كما تريد حتى لا تنصرف إلى عمل آخر غير كتابة الشعر. كان الحب وحده هو سيد الموقف، وكان هو المايسترو الذى يقوم بإدارة كل صغيرة وكبيرة فى حياة حبيبته وزوجته وشاعرته الموهوبة، وبعد موت "يوجين" عادت الشاعرة العبقرية " إدنا ميلاى" إلى منزلها بعد أن خلا من حبيبها الذى كان يؤمن بعبقريتها ويسعى بكل جهده لأن يجعل منها سعيدة وكان يقف فى وجه أى متاعب أو مشاغل من أى نوع، وعندما عادت الشاعرة إلى منزلها الخالى من زوجها وحبيبها شعرت بفراغ كبير. فلم يكن لديها خادم ولا خادمة، ولم يكن لديها تليفون ولم تكن ترى سوى "البستانى" الذى كان يعتنى بحديقتها، كما كان يعتنى بحدائق

الجيران، أى أن هذا البستانى لم يكن يعيش معها بل كان يمر عليها لساعات قليلة بين يوم وآخر وبعد شهور من وفاة زوجها وفى سنة ١٩٥٠ ماتت الشاعرة النابغة فى منزلها وكانت فى الثامنة والخمسين من عمرها وقد بقيت ميتة ثمانى ساعات وجثتها ملقاة عند السلم بعد أن أصيبت بنوبة قلبية مباغتة ويبدو أنها ماتت وهى فى طريقها إلى غرفة نومها فى الساعة الثالثة صباحا وكانت " إدنا ميلاى" تحب الحياة وتكره الموت وقد كتبت مرة تقول: إنها تفضل ألف مرة أن تعيش مقعدة فى كرسى لا تغادره على أن تموت. وقالت إنها سوف تصارع الموت ولن تدعه يغلبها ولكن الموت كان أسرع منها كما أنه كان أكثر عطفا مما تصورت.. وقد عاشت "إدنا ميلاى" رقيقة لا تحب القسوة وعبرت عن ذلك فى إحدى قصائدها التى تقول فيها :

أيها القاسى القلب
لا تقرأ أغنيتى
لأنها لم تكتب لك
ولم يفكر عقلى أو قلبى فى أن أكتب يوما شيئا من أجلك!!

تلك هى الصورة البديعة الحية التى ترسمها الكاتبة الأمريكية "دوروثى طومسون" لصديقتها الشاعرة النابغة "إدنا ميلاى" وأهم مافى هذه الصورة هو دور الزوج "يوجين" فى حياة زوجته الشاعرة فقد كان هذا الرجل محبا لزوجته مؤمنا بموهبتها، ولم يكن بحاجة إلى من يرسم له طريقة الحياة مع هذه الزوجة النابغة. ولم يكن بحاجة إطلاقا إلى الدعوات الحديثة المتطرفة التى تنادى بسيادة المرأة على الرجل، فقد كان الشعور الذى يقوده هو شعور الحب الصادق ولذلك رضى أن يكون طباخا وكناسا ومدير بيت حتى يضمن الحياة الهادئة السعيدة لزوجته التى يحبها ويؤمن بنبوغها وعبقريتها ورضى أن يعفيها من أى مجهود تقوم به من أجل أن تتفرغ لاشعارها الجميلة التى كان هذا الزوج الرائع يحبها مثله فى ذلك مثل ملايين الأمريكان الذين عشقوا شعر زوجته "إدنا ميلاى" وعندما مات هذا

الزوج لم تستطع الشاعرة العبقرية أن تواصل الحياة أكثر من شهور قليلة وما أصدق تلك الكلمات التى جاءت فى حديث الكاتبة "دوروثى طومسون" عن صديقتها "إدنا ميلاى" لقد حبست نفسها لتكتب مادام فى استطاعتها ذلك ثم لتموت ولابد أن تموت لأنها لا تستطيع أن تعيش دون زوجها "يوجين" وأهم من ذلك فإنها لاتستطيع الحياة دون أن تكتب الشعر. إن جميع الفنانين هكذا قد يستطيعون الحياة بعد أية مصيبة مثل : الفقر والفشل فى الحب والأسى والقلب الجريح لأنهم يعبرون عن كل هذا بالشعر أو بالرسم أو بغيرهما كلهم إذا ماشعروا أن موهبتهم قد تركتهم عندئذ يموتون.

ولكن موهبة الشاعرة الأمريكية النابغة لم تتركها إلا بعد أن مات زوجها وحبيبها "يوجين" هذا الرجل النادر الذى أثبت أنه بالإمكان أن يصبح الرجل "خادما" بالمعنى الكامل للمرأة ليس بدافع الخوف أو المصلحة أو الضعف. ولكن بدافع الحب الجميل الصادق وليست الدعوات الحديثة المتطرفة إلى سيادة "المرأة" على " الرجل" إلا نوعا من العبث وكان الأولى بهذه الدعوات أن تكون دعوات إلى "الحب" فالحب وحده هو الذى يجعل الرجل راضيا عندما يرفع حبيبته إلى السماء، وبالحب وحده يستطيع الرجل أن يقدم كل شئ لحبيبته فى "رجولة" ودون أن يشعر لحظة واحدة بأن ما يقدمه لحبيبته مهما كان غاليا فيه شئ يمس كبرياءه أو يؤذيه فى مشاعره أو يجعل منه إنسانا من الدرجة الثانية أمام المرأة التى يحبها. فالحب هو "المفتاح السحرى" للعلاقة التى يمكن أن تكون رائعة بين المرأة والرجل، والمرأة ليست بحاجة إلى قوة أو "كرباج" يفرض لها مكانتها أو سطوتها أو سيادتها على الرجال. بل هى فى حاجة إلى "الحب" الذى يمكن أن يرفع من شأنها ويضعها فى أعلى مكان من الحياة وإذا وجدت المرأة الحب الحقيقى فإنها تكون قد حصلت على كل شئ وحققت كل أهدافها وأدت أعظم رسالة لها فى الحياة.

الفصل

11

قتلوها في أمريكا!

- الثراء حلم وهمي ليس له نتيجة إلا الإحباط!
- العلاج بالإشعاع بدلاً من العلاج بالأسبرين!
- سميرة موسى كانت أول مصرية تحصل على الدكتوراه في القنبلة الذرية.. وكانت في ذلك أشجع من كل الرجال!

لا أظن أنه مرت علينا - فى تاريخ مصر الحديث - فترة كنا بحاجة فيها إلى نماذج وأمثلة عليا نستمد منها القوة والإلهام والقدرة على مواجهة الحياة، مثل الفترة التى نعيش فيها الآن. فالشائع فى حياتنا اليوم هو مبدأ أساسى واحد اسمه "النجاح". أى أننا جميعا أو معظمنا على الأقل نفكر فى الوصول إلى هذا "النجاح"، ولكن كيف ننجح؟ وماهو النجاح الذى نطلبه بالتحديد ؟ هل هذا النجاح هو الوصول إلى أكبر قدر من المال يحقق لنا الرفاهية والرخاء ويتيح لنا إمكانية الحياة فى بهجة وسعادة؟ وكيف نحصل على هذا المال؟ ومن أين ؟ .. إننا شعب موارده محدودة وتعداد سكانه يفوق إمكاناته بكثير جداً. فمصر بإمكاناتها الراهنة كان يمكن أن تعيش فى رخاء معقول للجميع لوكان سكانها عشرين مليونا أو خمسة وعشرين. أما الآن فنحن نزيد عن السبعين مليونا. والقاهرة وحدها فيها مايقرب من خمسة عشر مليونا من البشر، وهى مدينة لا تحتمل أكثر من خمسة ملايين على الأكثر، إذا كنا نريد حقا لأهلها أن يعيشوا فى سعادة واستقرار.

فالمعادلة إذن صعبة جداً، ونحن الآن فى مصر نبذل جهودا جبارة فى الصحراء والجبال والشواطئ والبحار وفوق الأرض وتحت الأرض، وذلك من أجل أن ننجح فى سباق التقدم والحضارة، وأن نتمكن من مواجهة شلال المشاكل الذى يتدفق علينا من كل جانب.

وهذا هو السبب فى أننا أصبحنا "بلاد الشكوى"، فكل من تقابله أو تجلس إليه يشكو لك، ونحن أنفسنا نشكو للآخرين. ذلك لأننا نحلم بتحقيق أشياء كثيرة فى حياتنا، ولكن مانحققه يكون دائما أقل مما نحلم به، فنحن جميعا نشعر بالتعب، وقد تبدو ظاهرة التعب فى حياتنا ظاهرة سلبية محزنة، ولكننى أراها على العكس ظاهرة طيبة ومفيدة، فالذى يشعر بالتعب هو الذى يعمل ويجتهد وربما يبذل فى معركة الحياة من الجهد أكثر من طاقته، فالتعب هو نتيجة العمل والمقاومة للظروف الصعبة، ومن هنا يكون التعب بشارة خير للجميع، لأن المجهود المبذول فى الحياة مهما كان كبيرا ومهماٍ كانت نتائجه محدودة فهو أفضل كثيرا من أن يكون الإنسان خاملاً كسولا، فالخمول والكسل يحققان الراحة لفترة من الوقت، ولكنهما فى آخر الأمر يدمران حياة الإنسان. إذ تبقى أحوال الإنسان فيٍ ظل الخمول والكسل كما هى عليه، بل إنها تزداد بمرور الأيام سوءاً على سوء.

فالتعب إذن هو السبب الأساسى للضيق الذى نحس به، رغم أنه دليل على الحيوية والاجتهاد والرغبة القوية فى الوصول إلى حلول للمشاكل الصعبة التى تواجهنا. وعلينا أن نبحث عن سبب آخر لضيقنا وشكوانا وليس من الصعب أن نضع يدنا على هذا السبب، والمهم أن نفكر بإخلاص وأمانة وألا نخدع أنفسنا. فالسبب الحقيقى لما نعانيه هو أن أجيالنا الجديدة من الشبان والفتيات لاتعرف ماذا تريد من الحياة بالتحديد. والأهداف العامة فيها قدر كبير من الغموض، أما الأهداف الخاصة فكلها مستمدة من واقع الحياة الذى نعيش فيه، فنحن جميعا نريد أن نكون أغنياء أو على الأقل قادرين، وبذلك نتمكن من الوصول إلى الحياة السعيدة التى نحلم بها، ونحقق المتعة التى تبدو لنا وكأنها المعنى الوحيد للحياة وهذه كلها أهداف مشروعة ومقبولة، ولكننا ننسى أنها أهداف لا يمكن أن تتحقق بدون وسائل، وننسى أيضا أن شعبا بحجم شعبنا

الكبير وحجم موارده المحدودة التى لا تشتمل على أنهار من البترول ولا جبال من الذهب ولا صناعات ضخمة تفتح لنا أسواق العالم وتأتى لنا بالثروة الطائلة مثلما هو الحال مع اليابانيين والألمان وغيرهم... هذا الوضع لا يمكن أن يتيح لنا أن نصبح جميعا من أهل الغنى والثراء.

ونحن لن نستطيع أن نغير طريقة فهمنا لأهداف حياتنا إلا إذا وجدنا أمامنا نماذج وأمثلة عليا تلهمنا وتفتح أمامنا الأبواب فالمتعة والسعادة لا تتحققان عن طريق المال وحده، لأن هناك مصادر كثيرة للمتعة والسعادة فى هذه الحياة غير المال، فنسبة الأغنياء فى العالم كله محدودة، حتى فى البلاد التى تعيش فى تقدم كبير، وتملك موارد ضخمة مثل أوروبا الغربية وأمريكا وليس كل الأوروبيين الغربيين أغنياء، وليس كل الأمريكان أغنياء. فالأغنياء استثناء فى كل المجتمعات المتقدمة. فما بالك بالمجتمعات الفقيرة أصلا مثل مجتمع مصر؟ إن الحلم بالثراء حلم وهمى، وليس له نتيجة إلا الإحساس بالإحباط الدائم، وما يقود إليه هذا الإحباط من اكتئاب وشعور بالمرارة، وهو ما نعانى منه كثيرا فى هذه المرحلة من حياتنا. ولست أشك فى أن بنات مصر يعانين من القلق والتوتر بنسبة أعلى مما تجده عند الشباب، لأن الشباب من ناحية لديهم فرصة للحركة أكبر وأسرع، ولأن البنت من ناحية أخرى تحمل همين فى وقت واحد: الأول هو همها الخاص والثانى هو هم الشاب الذى تحب أن ترتبط به، ولذلك فإن معاناة البنات يمكن أن تكون أكبر وأكثر إثارة للتوتر والقلق والخوف من المستقبل.

والوضع كله - على أى حال- يدعو للبحث عن معنى جديد وجميل وممكن للحياة، ويدعو إلى التفكير فى المتعة والسعادة والرضا عن النفس فى أشياء أخرى غير الحصول على المال فى أول الطريق وبداية المشوار.

وهذه قصة فتاة مصرية عجيبة، تحتفل بها مصر فى شهر

مارس، فى ذكرى ميلادها، وهو ٣ مارس سنة ١٩١٧، وهى قصة تفتح أمام الفتاة المصرية التى تشعر بالقلق والتوتر أبوابا كثيرة للأمل والتفاؤل والإحساس الجديد بنعمة الحياة. وعندما نعود إلى هذه القصة، فليس المطلوب منا أن نكررها، فربما كان تكرارها كما وقعت من أصعب الأمور، ثم إن التكرار والتقليد لايفيدان، وإنما الذى يفيد هو التفكير والتأمل والإحساس بالمعانى الجميلة التى تمتلئ بها القصة الواقعية، وهى معان تحتاج إليها كل فتاة، بل كل إنسان، يريد أن يجد منبعا للسعادة والنشوة والأفراح الكثيرة، دون أن يخدع نفسه ويسكر بذلك الحلم الوحيد وهو أن يغمض عينه ويفتحها فيجد نفسه من الأغنياء.

القصة هى قصة "سميرة موسى" بنت الفلاح المصرى البسيط "موسى على"، والذى كان يملك بعض أفدنة قليلة فى بلدة "سنبو" مركز"زفتى" فى محافظة الغربية. وتفاصيل حياة "سميرة موسى" أصبحت معروفة لدينا بفضل الجهد الذى بذله الكاتب والفنان الراحل صالح مرسى، فقد ماتت سميرة موسى فجأة فى حادث سيارة فى أمريكا فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٥٢، وفى سنة ١٩٥٧ أى بعد خمس سنوات فقط من مقتل سميرة موسى، انتبه صالح مرسى بإحساسه الفنى والإنسانى والوطنى إلى قصتها، وتحمس للبحث عن تفاصيل هذه القصة، فالتقى بوالدها وأخواتها وزملائها وأساتذتها، وقرأ رسائلها إلى أهلها، وتصفح " النوتة السوداء" التى كانت تكتب فيها خواطرها ومذكراتها أثناء بعثتها إلى أمريكا والتى انتهت بمقتلها. وعلى أساس كتابات صالح مرسى الجميلة الدقيقة عن سميرة اعتمد فى تلخيص قصتها، بالإضافة إلى ما قرأته عنها فى الصحف المصرية المختلفة قبل سفرها إلى أمريكا وبعد مقتلها هناك.

ولن أبدأ القصة من بدايتها، ولكننى أحب أن أبدأها من اللحظة التى كان فيها توهج وفرحة غامرة فى مصر كلها، وفى عائلة

سميرة موسى، وفى قلب سميرة نفسها، وهى اللحظة التى عادت فيها سميرة من انجلترا بعد أن نالت الدكتوراه وأصبحت مدرسة فى كلية العلوم بجامعة القاهرة، فقد نشرت مجلة "الإثنين" التى ظلت تصدر حتى أوائل الستينات، تحقيقا صحفيا قصيرا سنة ١٩٤٧ تحت عنوان " فى مصر عالمة ذرة" قالت فيه :" فى مصر آنسة استطاعت أن تحصل على شهادة الدكتوراه فى العلوم الذرية، فكانت بذلك أول عالمة ذرة مصرية ...". ثم قالت المجلة فى تحقيقها القصير:"كلما تذكر الناس قنبلة (هيروشيما) التى انفجرت فوق المدينة اليابانية فى أغسطس سنة ١٩٤٥ اقشعرت أبدانهم وامتلأت قلوبهم بالمخاوف، فإن كانت قنبلة واحدة "قديمة" قد أحدثت هذه النتيجة المروعة، فما بالك بقنبلة أخرى حديثة دخلت عليها التحسينات والابتكارات؟!". ثم قالت المجلة بعد ذلك مباشرة"... وهنا ينبعث صوت رقيق حازم يشيع الطمأنينة فى النفوس، أى نفوس المصريين، هو صوت الدكتور سميرة موسى، فهى تهدئ من روع الخائفين قائلة : اطمئنوا ففى مصر لجنة للوقاية من أخطار القنابل الذرية، وقد وصلت هذه اللجنة إلى قرارات نهائية فيما يجب اتخاذه من احتياطات وتدابير، فناموا ملء جفونكم".

ثم تحدثت مجلة "الاثنين" فى تحقيقها القصير عن الدكتورة سميرة بعد لقاء أجرته معها فتقول : "وتضع الدكتورة سميرة على شفتيها ابتسامتها الهادئة، وترجع بذاكرتها إلى أيام الدراسة بانجلترا، لقد كانت موفقة منذ البداية إلى النهاية، وعندما كانت تدخل المعمل كانت ترتدى ملابس خاصة واقية من الإشعاع وتحيط صدرها بمادة مانعة من توغل هذا الاشعاع عند استعمال مادة "اليورانيوم" فى التجارب، فإن أقل غلطة فى هذه التجارب كفيلة بأن تودى بحياة الباحث فى لحظة". ثم تنهى المجلة تحقيقها بقولها : " .. إننا نقدم الدكتورة سميرة إلى اعداء قضية المرأة، فهى

أول مصرية حصلت على الدكتوراه فى القنبلة الذرية، فأثبتت أن المرأة المصرية أكثر جرأة من الرجل فى ارتياد المجال الذرى".

كان هذا التحقيق الصحفى سنة ١٩٤٧. حيث كانت الدكتورة سميرة موسى تعمل كأول مدرسة فى كلية العلوم، فكيف وصلت الدكتورة سميرة إلى هذه المكانة، وكيف استطاعت فى ذلك الوقت المبكر من تطور المرأة المصرية أن تقتحم هذا المجال الجديد وهو مجال العلوم الذرية الذى كان لايزال صعبا حتى على الرجال؟.

نعود هنا إلى بداية القصة، فقد ولدت سميرة كما قلنا - فى بداية المقال - فى ٣ مارس سنة ١٩١٧ فى قرية "سنبو الكبرى" مركز "زفتى"، وكانت سميرة هى البنت الرابعة لوالدها الفلاح "موسى على" الذى كان يتمنى أن تكون سميرة ولدا بعد ثلاث بنات ولكنه لإيمانه وتدينه حمد الله على المولودة الجديدة، وكبرت سميرة وأصبحت طفلة نشيطة، ويصفها صالح مرسى فى هذه المرحلة بقوله: "راحت سميرة تمرح فى أزقة القرية وحواريها، غير أنها تميزت بذلك الصمت الغريب الذى لازمها منذ وعت ونطقت وعرفت معنى للحياة".

وحول هذه الصفات التى تميزت بها سميرة فى طفولتها يقول والدها موسى على : "مش عار .. هى كانت كده ... لا تتكلم كتير ولا حد يسمع لها حس".

ودخلت سميرة المدرسة الأولية فى قريتها وتعلمت القراءة والكتابة، وفى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ توفى الزعيم الوطنى الكبير سعد زغلول، وفى ذلك اليوم اجتمع عدد من رجال القرية حول والد سميرة الشيخ "موسى على"، وجلسوا فوق المصطبة وفى أيديهم الجريدة التى حملت نبأ وفاة الزعيم ولم يكن بين الجالسين جميعاً- بمن فيهم والد سميرة - من يعرف القراءة والكتابة، ولم يكن فى مصر فى ذلك العصر إذاعة ولا تليفزيون. لم يكن هناك مصدر للمعلومات سوى الجريدة، فنادى الشيخ موسى على ابنته

التى أصبحت فى العاشرة، وطلب منها أن تقرأ لهم ما كتبته الجريدة عن وفاة الزعيم سعد زغلول. وقرأت سميرة للحاضرين الخبر كما كتبته الجريدة.

وفى صباح اليوم التالى، وفى المدرسة الأولية، طلب المدرس من سميرة أن تمسك بالجريدة وتقرأ على زملائها خبر وفاة الزعيم الذى قرأته بالأمس على والدها وأصدقائه، وفوجئ المدرس بأن سميرة تقول له: لست بحاجة إلى الجريدة فقد حفظت كل ما قرأته بالأمس عن ظهر قلب، وبالفعل قرأت سميرة ماكتبته الجريدة كاملا على زميلاتها من الذاكرة. وكان طبيعيا أن يلفت ذلك نظر المدرس الذى أصيب بالدهشة والذهول. وعلى الفور ذهب المدرس إلى والد سميرة، واقنعه بضرورة الانتقال إلى القاهرة مع ابنته، لأن ابنته "نابغة" ويجب أن تتاح لها فرصة إكمال التعليم، وليس فى القرية سوى التعليم الأولى.

وهنا يجب أن نلتفت إلى معنى جميل، فوالد سميرة الفلاح البسيط الذى يملك أفدنة قليلة جعلت من أسرته إحدى الأسر الميسورة فى القرية الفقيرة، هذا الفلاح لم يتردد فى قبول نصيحة المدرس وانتقل باسرته إلى القاهرة، واتخذ سكنا متواضعا فى حى الحسين، وأدخل ابنته سميرة إلى مدرسة "قصر الشوق" الابتدائية للبنات. وموقف الوالد هنا يمثل ظاهرة مهمة، هى أن المصريين يملكون بالفطرة استعدادا كبيرا لتقبل التعليم، ويملكون طموحا طبيعيا للحصول عليه، والذى لم يحصل على التعليم لنفسه فإنه يحلم بأن يوفره لأولاده، وقد استوعب الفلاح البسيط "موسى على" معنى نبوغ ابنته، وأراد أن يمنحها الفرصة التى تحتاج إليها. ولنتذكر أن ذلك قد حدث سنة ١٩٢٧، عندما كان من الصعب أن توافق أسرة ريفية، حتى لو كان فيها متعلمون، على أن تواصل فتاة من الفلاحات تعليمها مثلها مثل الأولاد، أى أن قرار الوالد الفلاح كان قرارا جريئا ومخالفا للتقاليد السائدة، ولا تفسير لذلك كله إلا

فى " الاستعداد الحضارى" الطبيعى عند المصريين للتعليم والتقدم، وهو ما نعبر عنه أحيانا بترديد القول الغامض وهو : "إن المصريين لهم فى الحضارة عمر يمتد إلى سبعة آلاف سنة".

جاءت سميرة إلى القاهرة ودخلت المدرسة الابتدائية وفى امتحان الشهادة الابتدائية كانت الأولى على القطر المصرى كله، ثم دخلت المدرسة الثانوية، وكانت الثانوية فى تلك الفترة خمسة أعوام، وفى العام الرابع منها، كان الطالب ينال شهادة أسمها "الثقافة العامة" وقد نالت سميرة شهادة " الثقافة" وكانت الأولى على القطر المصرى أيضا.

كانت سميرة قد دخلت مدرسة ثانوية أهلية للبنات هى مدرسة "بنات الأشراف"، التى أنشأتها وأدارتها إحدى رائدات التعليم النسائى فى مصر، وهى السيدة نبوية موسى " ١٨٩٠-١٩٥١" صاحبة كتاب "المرأة والعمل" وأول فتاة نالت "البكالوريا" فى مصر سنة ١٩٠٧، وكانت أول ناظرة، وأول مفتشة فى مصر، وقد اصطدمت بوزارة المعارف لأنها اعترضت على مناهج تعليم البنات بشدة، وفصلتها الوزارة من عملها فأنشأت مدرسة " بنات الأشراف" الأهلية وأدارتها، وهذه هى المدرسة التى دخلتها "سميرة موسى " ونالت منها شهادة "الثقافة" القديمة. وفى هذه المرحلة الدراسية، أى فى الرابعة الثانوية، قامت "سميرة موسى"، وهى لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها، بتأليف كتاب أسمته باسم "الجبر الحديث" وقالت لوالدها: "إن وزارة المعارف تصرف للتلاميذ كتبا صعبة أما الكتاب الذى قمت بتأليفه فهو يجعل "الجبر" سهلا على التلاميذ". واستجاب والدها لرغبتها فى طبع الكتاب وطبع من الكتاب ثلاثمائة نسخة وقال الأب فى بساطة " مارضيتش أزعلها"!

وعندما انتقلت سميرة إلى "البكالوريا" أو الثانوية العامة أثارت أزمة فى مدرسة "بنات الأشراف": كانت المدرسة أهلية، وكانت مديرتها نبوية موسى، كما أشرنا، وقد أرادت الطالبة "سميرة" أن

تنتقل من هذه المدرسة إلى مدرسة "حكومية" أو "أميرية" كما كان يقال فى ذلك الوقت، أما السبب فهو أن مدرسة "بنات الأشراف" ليس فيها معمل.

كانت سميرة موسى مفتونة بعلوم الرياضة والطبيعة. وكان لابد أن يكون فى مدرستها "معمل " لكى ترضى فضولها العلمى. وعندما قررت ترك مدرسة "بنات الأشراف" إلى مدرسة حكومية لهذا السبب، قامت مديرة المدرسة على الفور بإنشاء معمل فى مدرستها، حتى لا تفقد المدرسة أنبغ تلميذاتها، والتى تحتفظ لمدرستها بالمكانة الأولى بين مدارس القطر المصرى كله، فالتلميذة سميرة موسى هى الأولى دائما على طلبة القطر، وهذا يرفع شأن المدرسة، ولذلك حرصت المديرة على أن تنشئ المعمل لطالبتها النابغة.

وتمضى حياة سميرة موسى بعد ذلك فى صور متلاحقة يقول لها أبوها بعد أن نالت البكالوريا ما معناه: "كفاية كده تعليم" فأنت بنت، والبنت مصيرها إلى البيت والزوج. وهذا هو ما يسعدها ويسعدنا" ولعل الأب كان يقول هذا الكلام لابنته النابغة إشفاقا عليها من مشقة الحياة العلمية، فقد كان يريد لها السعادة، ويريد أن يطمئن عليها. ولعله كان يقول ذلك كله من "وراء قلبه" لأنه كان يخشى أن تكون ابنته الحبيبة قد تعبت.

ولكن شعلة النبوغ فى "سميرة موسى"، الفلاحة، ابنة الفلاح لم ترض بما عرضه عليها أبوها، فهى تريد أن تواصل التعليم فى الجامعة.

ولنقرأ هذه اللوحة الجميلة من حياة سميرة موسى كما يكتبها الأديب الفنان صالح مرسى.

" أعلن عم موسى ألا تعليم بعد البكالوريا. وأن البيت هو مصير كل فتاة .. وفى هدوء قالت سميرة : إما الجامعة .. أو الانتحار. وامتد الصراع بطول أسابيع وشهور، لكن سميرة بعنادها وإصرارها

انتصرت. وقد قال لى الدكتور محمد مرسى سنة ١٩٥٧، وكان أيامها عميدا لكلية العلوم بجامعة القاهرة: إن سميرة جاءت إلى الجامعة متأخرة بضعة أسابيع، وفى هذه الأسابيع كان الطلبة قد قطعوا شوطا لا بأس به، وفى أول محاضرة رأيتها فيها سألتها عما سوف تفعله فى المواد التى فاتتها، فأجابت بهدوء لفت نظرى: سأحاول .. سأحاول".

وحاولت سميرة، ونجحت وكانت الأولى فى السنوات الأربع التى قضتها فى الجامعة، وتخرجت سنة ١٩٣٩. وكان عميد كلية العلوم فى وقتها هو الدكتور على مصطفى مشرفة، وكان أول عميد مصرى لهذه الكلية.

كان من حق سميرة موسى بعد أن تخرجت فى قسم الطبيعة بمرتبة الشرف الأولى الخاصة- كما كان يقال فى تلك الأيام - أن تصبح "معيدة" فى الكلية، ولكن أستاذها الإنجليزى "إيرز" اعترض على ذلك وطالبها بأن تعمل مدرسة فى وزارة المعارف ولايمكن أن نأخذ اعتراض الأستاذ الأنجليزى على أنه موقف يقوم على "حسن النية" والذى أتصوره أن هذا الأستاذ لم يكن راضيا عن تفوق سميرة موسى فى علم الطبيعة. إذ أن هذا النبوغ سوف يفتح بابا للمصريين ليتقنوا علوما مثل علوم " الذرة". فهل الإنجليز الذين كانوا يحتلون بلادنا فى ذلك الوقت يسمحون لنا بأن نكون نابغين فى العلوم الذرية؟. إن هذا الأمر يزعجهم كثيرا، ولايزال أمرا مزعجا لهم وللغربيين عموما حتى الآن.

الذى وقف إلى جانب "سميرة موسى" وأيد حقها فى أن تكون معيدة بكلية العلوم قسم الطبيعة، هو أستاذها المصرى النابغة الدكتورة على مصطفى مشرفة. وانتهى الصراع كالعادة بانتصار سميرة موسى، لأنها كانت تملك الحق فى هذا الانتصار، وكانت تملك القدرة على الإصرار، ولا تهرب من المطالبة بحقها المشروع.

وتم تعيين سميرة موسى معيدة فى كلية العلوم، رغم معارضة

أستاذها الإنجليزى "إيرز".

وأخذت سميرة تتقدم. فسافرت فى بعثة إلى انجلترا سنة ١٩٤٦، وكان مقررا لها أن تقضى ثلاث سنوات هناك لتنال الدكتوراه، ولكنها تمكنت من أن تنال شهادتها فى سنتين فقط وقال عنها استاذها فى انجلترا "فيلنت" فى خطاب منه إلى الجامعة المصرية:

إن تجارب سميرة موسى قد تغير وجه الإنسانية لو أنها وجدت المعونة الكافية وهكذا اضطر الإنجليز فى آخر الأمر إلى الاعتراف بعبقرية سميرة موسى. وعادت سميرة إلى مصر بعد أن نالت الدكتوراه فى "خصائص امتصاص المواد لأشعة أكس" وقضت السنة الثالثة لها فى انجلترا للتدريب فى أحد المستشفيات المتخصصة للعلاج بالإشعاع، وبعد عودتها إلى مصر كانت تعمل مدرسة فى الجامعة، وتعمل إلى جانب ذلك دون مقابل فى مستشفى قصر العينى فى قسم معالجة مرضى السرطان بالإشعاع الذى كان يرأسه فى ذلك الوقت الدكتور مصطفى رجب. وقد اعترض بعض الأساتذة الجامعيين على عمل سميرة بقصر العينى، واعتبروا أن عملها يشبه عمل "الممرضة"، وهو أمر لا يليق بأستاذة جامعية ولكن سميرة كانت ترد على ذلك قائلة : " إننى أريد أن اجعل العلاج بالإشعاع مثل العلاج بالأسبرين".

كانت تأخذ العلم على أنه معركة تستحق الكفاح المستمر. وكانت ترى أن كفاحها العلمى ينبغى أن ينفع الناس، وألا يقف موقف التعالى والغرور منهم وهذه النظرة الإنسانية إلى "العلم" هى أرقى ما يمكن أن يحمله فى ذهنه وقلبه عالم له رسالة فى الحياة.

وكان المفروض أن تمضى سميرة من تقدم إلى تقدم ولكن القدر كان متربصا بها فى مكان ما. فقد كانت تشكو دائما من عدم وجود " الأجهزة" و"المعامل الحديثة" فى مصر. وكانت تحلم بتعويض هذا النقص الخطير.

وفى سنة ١٩٥١ عرضت عليها مؤسسة "فولبرايت" بعثة إلى

أمريكا، وكانت البعثة الجديدة تتيح لها التعرف على معامل الطاقة الذرية الأمريكية، واستخدام الإشعاع فى المستشفيات والجامعات ومراكز البحث العملى. وسافرت سميرة إلى أمريكا طلبا لمزيد من المعرفة، وأملا فى أن تستطيع نقل المعرفة والحصول على بعض الأجهزة الحديثة لمعالم كلية العلوم ومستشفى قصر العينى ونجحت سميرة فى أمريكا نجاحا لانظير له.

الفصل

12

امرأة .. بألف !

■ ١٠٠ كتاب لمهاجمة تحرير المرأة.

■ طلعت حرب يهاجم قاسم أمين ثم يعترف بخطئه.

■ باحثة البادية زوجة ثانية !

منذ مائة عام تقريبا انطلق صوت قاسم أمين "١٨٦٥-١٩٠٨" يطالب بتعليم المرأة المصرية وتحريرها من الحجاب، وكان الحجاب الذى يدعو قاسم أمين إلى التحرر منه هو ما نسميه الآن باسم "النقاب"، وقد أصدر قاسم أمين كتابين عبر فيهما عن آرائه هما "تحرير المرأة و" المرأة الجديدة". ولكى ندرك كيف كانت هذا الآراء مثيرة لغضب العقول " الرجعية" فى وقتها يكفى أن نعرف أنه صدر فى الرد على آراء قاسم أمين مائة كتاب تهاجمه وتعترض عليه وتتهمه بالعمل على تدمير المجتمع وإفساده ونشر الانحلال وسوء الأخلاق فيه.

وكان من الطريف أن من بين الذين عارضوا قاسم أمين واتهموه بأسوأ الاتهامات، الاقتصادى العظيم طلعت حرب، حيث كتب طلعت حرب كتابا يهاجم فيه قاسم أمين ويعترض عليه، ولقد عاش طلعت حرب حتى سنة ١٩٤١، ولعل المرأة كانت قد بدأت تعمل فى بنك مصر فى ذلك الوقت، ولكن الثابت أن موظفات بنك مصر الذى أنشأه طلعت حرب يمثلن نسبة عالية الآن بين مجموع الموظفين. أى أن طلعت حرب رأى قبل وفاته فساد وجهة نظره فى قاسم أمين الذى دعا المرأة إلى التعليم والعمل، وعارضه طلعت حرب الذى كان يحلم بتأسيس "بنك مصر"، وبعد تأسيس

هذا البنك، كان البنك نفسه دليلاً ساطعا على صحة رأى قاسم أمين، لأن المرأة اليوم تقوم فى هذا البنك بدور كبير وأساسى ولا يستطيع أحد إنكاره أو تجاهله أو الاستغناء عنه.

أما أحوال المرأة المصرية عند ظهور كتابات قاسم أمين فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن فكانت أحوالا بالغة السوء، فلا هى مسموح لها بالتعليم ولا مسموح لها بالعمل، وكانت حبيسة بيتها وسجينة النقاب القاسى الذى كان يحرمها حتى من الرؤية الكاملة للطريق الذى تسير فيه، أو لأى شئ يتحرك أمامها، فلم يكن مسموحا لها بنزع هذا الحجاب إلا فى بيتها وبين أفراد أسرتها، وفى هذا المناخ الاجتماعى السيئ ظهرت امرأة شجاعة ومثقفة وأديبة ومفكرة وصاحبة قلب كبير، هذه المرأة هى "ملك حفنى ناصف" التى ساندت الأفكار الرئيسية لقاسم أمين" واستطاعت أن تكون أول نموذج حى لتطبيق هذه الأفكار فى واقع الحياة، واثبتت بالدليل العملى أن المرأة حين تتعلم تصبح مصدرا للخير فى أسرتها وفى حياتها الخاصة وفى المجتمع كله.

وقصة حياة ملك حفنى ناصف وكفاحها من أجل تحرير المرأة هى قصة غاية فى الروعة والجمال والإصالة، ولاتخلو هذه القصة من صفحات حزينة مؤسفة، سببها الأساسى أن "ملك حفنى ناصف" كانت رائدة تخوض ميدان الحياة العامة لأول مرة فى عصر لم يكن يسمح للمرأة بذلك، والرائد دائما يتعرض للمخاطر لأنه مكتشف وفاتح طريق.

والحقيقة أن قصة حياة " ملك حفنى ناصف" تعتبر مصدرا للالهام، لا بالنسبة للنساء فقط ولكن بالنسبة للرجال أيضا. ففيها من قوة الإرادة، والإصرار على الكفاح المستمر من أجل أهداف نبيلة، ما يجعلنا جميعا، رجالا ونساء، نتعلم من هذه المرأة

الرائعة، والتى تجعلنا نقول دون أى مبالغة أنها كانت امرأة بألف امرأة، بل وبألف رجل.

ولدت "ملك" فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٦، وكان ميلادها بالمصادفة فى يوم زواج الأمير حسين كامل الشقيق الأكبر للملك فؤاد، وابن الخديوى اسماعيل، وسلطان مصر من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٧. وكانت عروس السلطان حسين كامل هى الأميرة "ملك". ومن هنا اختار لها والدها اسم "ملك" الذى كان يتردد على كل لسان فى مصر فى يوم مولدها.

وكان والد "ملك" هو الأديب الشاعر "حفنى ناصف" وكان من أبرز أدباء عصره. وهو من تلاميذ جمال الدين الأفغانى، ومن أصدقاء الشيخ محمد عبده. والأفغانى ومحمد عبده معا هما " النار" التى اشتعلت فى مصر فى اواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن تطالب المصريين بأن ينهضوا ويتقدموا ويفتحوا أبواب عقولهم وبيوتهم ومجتمعهم للتطور وملاحقة العصر الحديث والخروج من "كهف" التخلف الذى كانت مصر تعيش فيه، مما جعلها فريسة سهلة للاحتلال البريطانى.

وكان حفنى ناصف صديقا لقاسم أمين، وهما معا من نفس المدرسة الفكرية والوطنية. ولذلك لم يتردد حفنى ناصف فى إدخال ابنته إلى المدارس الفرنسية التى كانت موجودة فى مصر فى أواخر القرن الماضى، والتى كانت تقبل تعليم البنات وعندما فتحت الحكومة المصرية أول مدرسة للبنات فى مصر وهى مدرسة "السنية" سارع "حفنى ناصف" إلى نقل ابنته ملك إلى المدرسة المصرية، فنالت منها الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠، وكانت "ملك" الأولى على أول "دفعة" من البنات تعلمت فى هذه المدرسة التى كان التعليم فيها يجرى باللغة الإنجليزية.

وفى نفس الدفعة التى تخرجت فيها " ملك حفنى ناصف" فى

أول شهادة : ابتدائية " عرفتها مصر، كانت هناك فتاة قبطية اسمها" فكتوريا عوض" وفتاة يهودية اسمها" اللجرة بلانتر" . وهما من الأقباط واليهود المصريين، مما يعطينا فكرة على أن مصر، حتى فى أسوأ الظروف، لم تكن تعرف أى نوع من التفرقة الطائفية بين المواطنين.

وبعد الشهادة الابتدائية نالت "ملك حفنى ناصف" شهادة "المعلمات" سنة ١٩٠٣، وقضت عامين بعد ذلك للتمرين على مهنة التدريس، وأصبحت مؤهلة للتدريس سنة ١٩٠٥، وقامت بالتدريس فى مدرسة "السنية" لمدة سنتين حتى تزوجت سنة ١٩٠٧.

وفى هذه الفترة بدأت تنشر مقالاتها وقصائدها فى الصحف المصرية، وكانت تحظى باحترام الجميع، مما شجع الكثير من العائلات المترددة فى تعليم بناتها على أن يرسلن البنات إلى مدرسة "السنية" التى تقوم فيها "ملك" بالتدريس.

ولم تكن " ملك" تكتفى بالتدريس والكتابة فى الصحف، بل كانت تنتهز كل فرصة لتذهب إلى بيوت الأصدقاء والأقرباء لتقنع الجميع بتعليم البنات، وكان لجهدها أثر كبير فى إقبال عدد كبير من البنات على التعليم، حتى أصبح يقال بين الناس جميعا إن مدرسة "السنية" هى مدرسة " ملك حفنى ناصف" . وكانت العائلات الكبيرة قبل ذلك إذا أرادت تعليم البنت أدخلتها مدرسة أجنبية، لا تتعلم فيها البنات أى شئ من لغتها أو تاريخ بلادها. ولكن بفضل " ملك" اتجهت البنات إلى التعليم فى مدرسة " السنية" . وكانت الثقة بشخصية " ملك" عالية جدا، حتى أنها عندما تركت التدريس بعد زواجها سنة ١٩٠٧، انسحبت من المدرسة ٧٥ تلميذة مرة واحدة. وكان آباء هؤلاء التلميذات يقولون : لا نطمئن على بناتنا بعد أن تركت ملك مدرسة "السنية".

وبعد الزواج يأتى فصل جديد فى حياة "ملك حفنى ناصف" وهو فصل حزين ومأساوى. فهذه المرأة القوية المثقفة الواعية النبيلة لم تفلت من الظروف الاجتماعية القاسية التى كانت تعيش فيها المرأة المصرية عند زواج "ملك" سنة ١٩٠٧. فقد تزوجت "ملك" على الطريقة التقليدية، دون أن تتعرف على زوجها بصورة دقيقة قبل الزواج وكانت الطريقة التقليدية هى الطريقة الوحيدة المتاحة للزواج فى ذلك الوقت. فقد خطبها من والدها أحد أثرياء الفيوم واسمه "عبد الستار الباسل"، واعتمد فى خطبته لها على صديق حميم لوالدها هو العالم الأزهرى الكبير الشيخ عبد الكريم سلمان، وقد تقدم الشيخ سلمان بشهادة رائعة فى حق الخطيب الذى تقدم، إلى "ملك" من حيث أخلاقه وثروته ومكانته الاجتماعية وثقافته الفرنسية العالية. وتقبل الأب شهادة صديقه، وتقبلت "ملك" نفسها رأى والدها الذى لم يكن يرغمها على شئ، وتم الزواج، واقيمت ليلة الفرح فى "فيلا" أنيقة كان يملكها الزوج فى شارع العباسية الذى كان فى ذلك الوقت حى الارستقراطية المصرية.

وتزوجت "ملك" من " عبد الستار الباسل" وذهبت للإقامة معه فى قصره الكبير بالفيوم، وكان هذا الزوج يملك ألفى فدان من أرض الفيوم.

وفى القصر الكبير بدأت ملك تكتشف المأساة التى وقعت فيها. فلم تكن الزوجة الأولى أو الوحيدة لهذا الزوج، كما قال عن نفسه، بل كانت له زوجة أخرى هى ابنة عمه. ولها منه بنت وحيدة. وهكذا وجدت ملك نفسها زوجة ثانية، وهى التى كانت تحارب تعدد الزوجات، وتدعو فى مقالاتها إلى الوقوف فى وجه هذه الظاهرة، وتحديدها فى أضيق نطاق، ولضرورة المرض، أوعدم الإنجاب أو ما إلى ذلك من الأسباب الأساسية. ولم تكن

"ملك" مضطرة لأن تقبل هذا الوضع وهى التى كان يسعى إلى الزواج منها الكثيرون من أفضل شباب مصر.

ولكن "ملك" بعد أن تزوجت قررت أن تكتم آلامها، وتحاول بقدر ما تستطيع أن تتحمل ما أصابها، ووجدت نفسها فى الفيوم وهى واحة تحيط بها الصحراء من كل جانب، ويعيش فيها وحولها كثير من البدو الذين لا يعرفون شيئا عن الحضارة والمدنية والتعليم، فنزلت "ملك" إلى مجتمع الفيوم، تحاول أن تنشر التعليم فيه بقدر الإمكان، وقامت بخدمات كبيرة لنساء منطقة الفيوم، واتخذت لنفسها اسما مستعارا هو الذى اشتهرت به بعد ذلك وهو "باحثة البادية"، فهى تعيش فى بادية أى صحراء، ولكنها لم تكن تخجل من ذلك، ومن هنا اختارت اسمها الجديد، وكانت تضعه على كل ما تكتبه من مقالات وقصائد تنشرها فى الصحف والمجلات. وقد قضت " ملك حفنى ناصف " أو " باحثة البادية" فى حياتها الزوجية احدى عشرة سنة من تاريخ زواجها سنة ١٩٠٧ وحتى وفاتها وهى فى الثانية والثلاثين، سنة ١٩١٨.

ولم تنجب " باحثة البادية " أبناء. وأقنعها زوجها أن السبب يكمن فيها، وأنها امرأة غير قادرة على الانجاب، وقد ظلت "ملك" راضية، ومقتنعة بنصيبها من الحياة الشخصية البائسة، حتى اتيح لها أن تسافر إلى تركيا فعرضت نفسها على الأطباء هناك، وتبين لها أنها خالية من أى سب يمنعها من الإنجاب. وبحثت "ملك" عن الحقيقة فاكتشفت أن زوجها قد أصيب بالمرض بعد أن أنجب ابنته الوحيدة من زوجته الأولى، وأن هذا المرض هو الذى يمنعه من الانجاب. ومع ذلك فقد استباح هذا الزوج لنفسه أن يوهم زوجته بأنها هى المسئولة، وأن الطبيعة حرمتها من القدرة على الإنجاب، بل لقد كان يرسل إليها من النساء من تهددها بأنه سوف يتزوج من جديد لينجب الأبناء، مادامت هى غير قادرة على

ذلك. ومن خلال هذه الأكذوبة مارس الزوج استبداده على "ملك" واشاع فى حياتها الاضطراب النفسى، وعندما اكتشفت "ملك" الحقيقة كانت صدمتها كبيرة وقاسية ولم تمض فترة طويلة بعد ذلك حتى أصيبت بالحمى الأسبانية" التى كانت تقتضى منها أن تلزم الفراش ولا تتحرك مطلقا، ولكنها سمعت وهى فى مرضها بأن شقيقها "مجد الدين حفنى ناصف" قد اعتقله الانجليز لنشاطه الوطنى فتركت فراش المرض وركبت القطار من الفيوم إلى القاهرة، ووصلت إلى بيت والدها الذى كان قد انتقل من العباسية إلى شبرا. وفى بيت والدها بقيت ثلاثة أيام فى شبه غيبوبة، وكانت تحت تأثير "الحمى" تبوح بأحزانها وهمومها وتفاصيل مأساتها مع زوجها وسوء معاملته لها وسلوكه المبتذل الذى لم يكن يراعى مشاعرها وكرامتها كزوجة راقية محترمة وبعد هذه الأيام الثلاثة ماتت "ملك حفنى ناصف" أو "باحثة البادية" فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩١٨، وكانت كما أشرنا فى الثانية والثلاثين. وقد اهتزت البلاد لموتها وكانت جنازتها من أكبر الجنازات التى عرفتها مصر حتى ذلك الحين، وهى أول جنازة تشارك فيها النساء ممن تعلمن على يديها، أو قرأن لها أو استمعن إلى محاضراتها فى الجامعة التى كانت لاتزال "جامعة أهلية" عند وفاتها وشارك الكثيرون بعد رحيلها فى الكتابة عنها والتعريف بفضلها والاشادة بها، فكتبت عنها الأديبة المعروفة "مى" كتابا كاملاً عنوانه "باحثة البادية" وكتب عنها الأجانب الذين تعرفوا عليها واتصلوا بها، وناقشوها فى قضايا المرأة المصرية، ومنهم الكاتبة الأمريكية "اليزابيث كوبر" التى عاشت فى مصر فترة، واستضافتها "ملك" فى قصرها بالفيوم واجرت معها حوارات تفصيلية واسعة، ثم ألفت الكاتبة الأمريكية كتابا عنوانه " المرأة المصرية" وكان إهداء هذا الكتاب فى صفحته الأولى " إلى

ملك الباسل" وهو اسم " ملك" منسوبة إلى زوجها على الطريقة الغربية.

هذه ملامح عامة من قصة " ملك حفنى ناصف" أو " باحثة البادية" وهى تكشف عما عانته هذه المرأة الشجاعة المستنيرة القوية من متاعب قاسية قضت على حياتها وهى فى عز شبابها، وكانت هذه المرأة التى كانت الرائدة الأولى فى الدعوة إلى تعليم المرأة وتحريرها من قيود التخلف والرجعية، من سوء حظها أن تقع فريسة للأوضاع السيئة التى كانت تحاربها، وأن تموت شهيدة لهذه الأوضاع.

ونستطيع بعد ذلك أن نتوقف فى إيجاز شديد أمام بعض ما أنجزته ملك "حفنى ناصف" أو "باحثة البادية" حتى ندرك أنها كانت بحق ورغم عمرها القصير امرأة بألف.

فعندما بدأت الدعوة لانشاء الجامعة المصرية وهى جامعة القاهرة الآن، ألفت "ملك" جمعية تدعو إلى التبرع، وكان المشروع كله قائما على التبرعات، وقد جمعت "ملك" مبلغا كبيرا فى ذلك الوقت وساهمت به فى إنشاء الجامعة.

أما ما قدمته إلى أهل الفيوم فهو كثير، فقد كانت تشرف على إرسال ابناء الفلاحين وبناتهم إلى مدارس الفيوم أو مدارس القاهرة أو إلى مكاتب القرى، وكما يقول شقيقها "مجد الدين حفنى ناصف" فإنها" كانت تهتم بصحة الأطفال وملبسهم وتغذيتهم ورفع مستواهم. وكانت تقوم بذلك وحدها ودون عون من أحد" .

وكانت تقوم بإلقاء المحاضرات فى جامعة القاهرة وكان اسمها عند انشائها سنة ١٩٠٨ "الجامعة الأهلية"

وعندما انعقد المؤتمر المصرى سنة ١٩١١ برئاسة " محمد رياض باشا" لدراسة مشاكل المجتمع المصرى، سارعت " ملك"

بالتقدم إلى المؤتمر بتوصيات حول وضع المرأة فى المجتمع، ولم يكن موضوع المرأة مطروحا على هذا المؤتمر. وقد أخذ المؤتمر بكثير من التوصيات التى قدمتها "ملك" وعندما نقرأ هذه التوصيات ندرك إلى أى حد كانت" ملك" رائدة حقيقية ومجاهدة من الطراز الأول فى سبيل قضيتها النبيلة. ومن هذه التوصيات: "إتاحة التعليم الابتدائى والثانوى للبنات، وجعل التعليم الأولى اجباريا لجميع الطبقات وتخصيص عدد من البنات لتعلم الطب ومهنة التدريس- جعل الطلاق وتعدد الزوجات بإذن من القاضى - التوسع فى تعليم الفتيات التمريض واطلاق تعليم الفتيات الطب بأكمله، وإباحة التعليم العالى فى الفروع الأخرى لمن تريد منهن، والإكثار من المستشفيات والمستوصفات لعلاج الفقيرات والفقراء وأطفالهم، وصرف الدواء مجانا أو بأجر زهيد- تخصيص بوليس للآداب لحماية النساء من مضايقة الشبان لهن.. الخ.

والتوصيات التى قدمتها "ملك" تمثل برنامجا كاملا للإصلاح الشامل وقد تحقق الكثير من هذه التوصيات منذ رحيل ملك سنة ١٩١٨ إلى الآن بقى أن نقرأ بعض ماكتبته "ملك" وهو مجموع فى كتاب كبير بعنوان آثار باحثة البادية وقد جمعه شقيقها "مجد الدين حفنى" ونشرته وزارة الثقافة سنة ١٩٦٢ بتقديم ممتاز للدكتورة سهير القلماوى. فمن كلمات "ملك" "كيف ورجالنا على هذا الاستبداد يأملون صلاح الأمة وتربية أبنائها على حب الاستقلال والدستور؟ .. والله لو أولانا رجالنا عناية واحتراما لكنا لهم كما يحبون، فما نحن إلا مرآة تنعكس عليها صورهم، ولنا قلوب تشعر كما يشعرون ..".

وتقول فى مقال آخر :

" لايغيظنى أكثر من أن يزعم الرجال أنهم يشفقون علينا أننا

لسنا محلا لشفقتهم، إنما نحن أهل لاحترامهم، فالاشفاق لا يتأتى إلا من سليم لعليل، أو من جليل لحقير، فأى الصنفين يعتبروننا؟ والله إننا لنرفض أن نكون أحد هذين الصنفين".

وتقول أيضا :

"إن بنات العصر الحالى لا يرضين الكسوة والطعام فقط كاحدى خادمات المنزل ولكنهن يقدرن السعادة الزوجية أكثر من ذى قبل ويعلمن أنه إذا لم يكن الحب أساس المعاشرة بين الزوجين فلا معنى للجمع بينهما".

وتقول "لو أمكن الانفراد للرجل لخصه الله بالوجود دون المرأة- فهما ضروريان كل منهما للآخر موجودان معا، تحت شمس واحدة، وأحكام واحدة، ليأتى كل بقسطه من واجبات متعادلة"!

وتقول عن نفسها فى رسالة لصديقتها مى:

"ليس لى بحمد الله ميت قريب أبكيه، ولا عزيز غائب ارتجيه، ولا أنا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا، ويستولى عليهم غرورها فاطمع فى أكثر مما أنا فيه وليس لى جار سيئ اشتكيه، ولكن لى قلبا يذوب عطفا واشفاقا على من يستحق الرحمة ومن لا يستحقها وهذا علة شقائى ومبعث آلامى".

لقد كانت ملك - حقا - امرأة .. بالف

الفصل

13

شاعرة عربية تكره الرجال!

■ صدمة الرجل الأول!

■ زوجة لسبعة رجال بدون يوم واحد سعادة!

■ أدب الاعتراف.. وشجاعته امتلكته هذه الشاعرة.

الاعترافات النسائية فى الأدب العربى قليلة جداً، ولولا ما كتبته الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان فى كتابها" حياة جبلية .. حياة صعبة" بجزءيه لكانت المكتبة العربية قد خلت تقريباً من أية اعترافات نسائية مهمة، وفدوى طوقان رغم القيمة الرفيعة لاعترافاتها ومذكراتها، وما تضمنته من حديث صريح عن نفسها وحياتها الشخصية وعلاقاتها بعائلتها وبيئتها... رغم ذلك كله فإنها تحفظت فيما يتصل بحياتها العاطفية ولم تذكر إلا إشارات طفيفة عنها، رغم أن شعر فدوى ملئ بالقصائد العاطفية البديعة، والتى تشير إلى أن قلب هذه الشاعرة العربية الكبيرة لم يكن قلباً متحجراً مغلقاً، بل كان قلباً رقيقا مرهفاً شديد الحساسية والتجارب مع تجارب الحياة. وقد عرفت شيئاً عن الجانب العاطفى فى حياة فدوى طوقان، لأننى كنت على صلة وثيقة بأستاذى الناقد الكبير الراحل أنور المعداوى "١٩٢٠-١٩٦٥"، وكان المعداوى يحب فدوى طوقان ويعتبرها المثل الأعلى للمرأة التى يهتز لها قلبه، وقد كتب إلى فدوى رسائل رائعة نشرتها فى كتابى الذى جعلت عنوانه "بين المعداوى وفدوى طوقان - صفحات مجهولة فى أدبنا العربى المعاصر". وذلك بعد أن حصلت على هذه الرسائل من فدوى طوقان، التى تفضلت بإعطائها لى عندما طلبتها منها عند لقائى معها فى بيروت فى مارس "آذار" ١٩٦٧، وهو اللقاء الوحيد بينها

وبينى، وقد تفضلت فدوى بإرسال رسائل المعداوى لى على عنوانى بالقاهرة، وكنت قد تصورت أنها نسيت طلبى لهذه الرسائل، وعندما قرأت هذه الرسائل وجدتها رسائل راقية أدبياً وإنسانيا، ولم أجد فيها ما يسيئ إلى المعداوى ولا إلى فدوى فنشرتها وعلقت عليها تعليقات موسعة. وقبل رحيل المعداوى كنت قد سمعت منه بعض تفاصيل علاقته العاطفية بفدوى، وهى نموذج للعلاقة الرومانسية فى أرقى صورها، ذلك أن فدوى والمعداوى لم يلتقيا أبداً إلا عن طريق الرسائل المتبادلة، ولم ير أحدهما الآخر على الإطلاق، ولكنهما تبادلا العواطف على الورق كما حدث بين "مى" و"جبران" اللذين لم يلتقيا وكان بينهما حب على الورق أيضاً، ويبدو أن فدوى طوقان قد طلبت من المعداوى رد رسائلها إليها فاستجاب لها وفعل ذلك، فقد كان المعداوى مثالياً وفيه رجولة وشهامة ومروءة. أما رسائل المعداوى فكان من حسن حظى وحسن حظ الأدب أن أعثر عليها وأقدمها بما فيها من جمال وصدق وعاطفة راقية إلى الناس.

لقد عرفت من أستاذى أنور المعداوى شيئاً عن حياة فدوى طوقان العاطفية، واستطعت عن طريق هذه المعلومات أن أفسر بعض قصائدها، وأن أعرف إلى من كانت توجه هذه القصائد، وأن أعرف أيضاً الظروف النفسية التى كتبت فيها هذه القصائد. وقد أشرت إلى ذلك كله فى كتابى عن "المعداوى وفدوى طوقان" . وطبعا أنا لا أعرف كل أسرار فدوى العاطفية، ولم أحاول أن أبحث عن هذا الجانب فى حياتها، إلا ما كان متصلاً منه بقصائدها العاطفية التى استطعت عن طريق المعداوى ورسائله أن أجد بعض "المفاتيح" الصحيحة لها. ولكن فدوى طوقان كان يمكن أن تفتح قلبها فى مذكراتها الممتازة للجانب العاطفى فى حياتها، غير أنها لم تفعل شيئا من ذلك إلا فى إشارات خاطفة. ولو أنها أفصحت عن قلبها أكثر من ذلك لتوقعنا أن نقرأ لها فصولا رائعة وصادقة فى هذا

المجال، وخاصة أن تجارب فدوى ليس فيها ما يعيبها بشىء، حتى فى مجتمعنا العربى المحافظ، لأن كلها كانت من نوع علاقتها بأنور المعداوى، أى خفقات قلب يتم تسجيلها فى قصائد أو رسائل. ولكن حتى هذه الدائرة العاطفية المحدودة لم تشأ فدوى طوقان أن تخترقها، وذلك كله لاسبب له إلا أن فدوى نشأت فى اسرة كبيرة محافظة، وأنها من مدينة فلسطينية محافظة أيضاً هى مدينة نابلس. ولاشك أن ذلك الذى اضطرت إليه فدوى طوقان فيه خسارة كبرى للأدب العربى، خاصة أن فدوى كانت صريحة جداً فى الحديث عن كل جوانب حياتها الأخرى باستثناء الجانب العاطفى، وقد أعطت صراحتها لمذكراتها أو اعترافاتها قيمة كبيرة، وكتبت فدوى ـ تلك المذكرات ـ بقلم الأديبة الموهوبة الصادقة التى تعرف كيف تخاطب القارئ وتترك فى نفسه أعمق التأثير.

وباستثناء فدوى لانجد أديبة عربية أخرى معاصرة كتبت عن حياتها وتجاربها بصفاء وصراحة على قدر ما نستطيع، إلا شاعرة مصرية معروفة هى الشاعرة " جليلة رضا" فى كتابها" صفحات من حياتى ". والشاعرة جليلة رضا لم تصل إلى مكانة فدوى طوقان أونازك الملائكة أو سلمى الخضراء فى الشعر العربى المعاصر، وذلك لأسباب كثيرة، منها ضعف احتكاك جليلة رضا بالحياة الأدبية، وضعف معرفتها وتأثرها بالتيارات الجديدة فى الشعر العربى والتى ملأت النصف الثانى من القرن العشرين، ولذلك بقى شعر جليلة رضا -على جماله وسهولته - هو شعر امرأة شرقية محافظة لاتكاد تعرف من حدود الدنيا غير بيتها وحياتها الشخصية. وقد تعودت على أن تسيطر على مشاعرها وتخضعها للقيود والتقاليد، مما جعل "العالم الشعرى" الذى تعيش فيه وتعبر عنه عالماً محدوداً من حيث التجربة وأساليب التعبير.

ولكن هذه الشاعرة فاجأت الحياة الأدبية منذ عدة سنوات بكتابها عن قصة حياتها، فتركت لنفسها العنان، وعبرت عن

مشاعرها بصراحة وأمانة وأسلوب فى غاية البساطة والجمال، فجاء كتابها قطعة من الصدق الإنسانى النادر. ومن العجيب أن هذا الكتاب الجميل المؤثر قد ضاع فى الزحام، ولم تلتفت إليه الحياة الأدبية، ولم تعطه ما يستحقه من اهتمام . وهذا الكتاب الذى كتبته جليلة رضا عن قصة حياتها يفوق فى أهميته وجماله ومتعته كل ما كتبته هذه الشاعرة من دواوين عديدة وصلت إلى ستة دواوين، وهى بهذا الكتاب وحده تستحق أن يذكرها الأدب العربى على رأس قائمة الصادقين والصادقات من الأدباء والأديبات.

ومنذ السطور الأولى فى هذا الكتاب الجميل تفاجئنا الشاعرة جليلة رضا بهذه السطور الواضحة فتقول :

" ترددت كثيراً فى كتابه " قصة حياتى" فرغم ما سأكتب وما سأسرد، لابد أن تظل أشياء كامنة فى النفس لا تريد الخروج ... لا تريد أن تقف أمام الشمس عارية سافرة. وأنا أحب الصدق، أحبه بكل ما أملك من مشاعر، لذلك لم استطع أن أحب أحداً من الرجال الذين صادفتهم فى حياتى" .

وقبل أن نفيق من هذه المفاجأة التى تبدأ بها " جليلة رضا" قصة حياتها والتى تقول لنا فيها إنها تكره الرجال الذين عرفتهم دون استثناء. فإنها تواصل فى يسر وبساطة تفسير هذه المفاجأة التى لا افتعال فيها ولا تصنع، وفى السطور التى تلى اعترافها بكراهية الرجال الذين عرفتهم جميعاً تقول:

"لم يستطع أحدهم- أى أحد الرجال الذين عرفتهم الشاعرة -أن يستولى على تفكيرى وإحساسى. كنت أحس بالنفور كلما اكتشفت فيمن أحسست له بالإعجاب أنه غير صادق فى بعض تصرفاته أو كلماته... فأنا لسوء حظى ذكية إلى حد ما، ولسوء حظى أيضاً، لا تظهر على سماتى معالم هذا الذكاء، لذلك أراد الكثيرون استغفالى، وتمردت فى قرارة نفسى على هذه الإهانة. وليس معنى ذلك أن الكذب من صفات الرجل وحده، فقد كان فى محيطى نساء

يفقن الرجال مكراً وخبثاً.. وقد عاشرتهن جميعاً كمتغابين بلهاء، حتى لا أثير حقدهن على .. ولكنى انسحبت من صحبتهن بهدوء ورفق. فالصدق عندى هو معنى وجود الإنسان، فإذا فقدناه ضاعت الإنسانية".

تلك هى الكلمات البسيطة الجميلة التى تفتح بها "جليلة رضا" حديثها فى كتابها عن قصة حياتها، وقد تمنيت وأنا أقرأ هذه الكلمات، وبقية صفحات الكتاب حتى نهايته، لو أن جليلة رضا كانت تكتب قصائدها بنفس هذه البساطة والتلقائية الجميلة التى كتبت بها قصة حياتها. ولو فعلت ذلك فى قصائدها لكانت الآن تحتل مكاناً فى الصف الأول بين شاعرات العرب المعاصرات، بل وبين الشعراء الرجال أيضاً. ولكنها كانت شديدة التحفظ فى قصائدها، لا تترك نفسها لتطير بحرية فى عالم الشعر الواسع، مما جعل بريق قصائدها أقل من ذلك البريق الخاطف للأنظار والمشاعر والذى ينطلق من خلال صفحات كتابها الجميل.

وتبدأ مشكلة جليلة رضا مع عالم الرجال منذ الطفولة. ولم تذكر جليلة رضا تاريخ ميلادها فى روايتها لقصة حياتها، ولكننى عثرت على هذا التاريخ فى بعض المراجع الأخرى ومنها " الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة "، وتاريخ ميلادها هو ديسمبر "كانون الأول" ١٩٢٠، فهى الآن قد تجاوزت التاسعة والسبعين. ومعنى ذلك أنها عاشت طفولتها فى العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن، حيث كان المجتمع فى مصر مجتمعا تسيطر عليه التقاليد المحافظة سيطرة قوية، وهذا هو مايفسر لنا بعض ما لقيته الشاعرة من معاناة منذ طفولتها الأولى حيث تقول :

"فتحت عينى فى طفولتى على بيت كبير.. كبير ... وقديم، فى حى الدرب الأحمر بالقاهرة، وفى إحدى حاراته وأزقته الضيقة الملتوية. كان عمرى أنذاك خمس سنوات. وجدت نفسى أعيش مع أختين شقيقتين وأخ شقيق. وكنت الأخيرة، أى كما يقول المثل " آخر

العنقود". ولكن العنقود على مايبدو لى، كان قد أينع وطاب، ولم تبق به غير حبة ثمر مرة الطعم، غير صالحة للمذاق". والشاعرة تعنى نفسها عندما تصف الحبة الأخيرة فى العنقود بالمرارة.

ثم تقول الشاعرة بعد ذلك :

" كان والدى هادئاً، وديعاً، طيباً... ولكنه كان محباً لابنه، وكثيراً ما رأيته يزحف على ركبتيه ويديه حتى يتسنى لأخى إبراهيم، أن يمتطيه ضاحكاً، رغم كبر سن أبى وبدانته المفرطة ".

ثم تتوالى "المشاهد" التى جعلت الشاعرة تحس بعدم أهميتها منذ بداية حياتها، وبالتفرقة القاسية داخل الأسرة بين "البنت" و"الولد"، ومن هذه المشاهد ما ترويه الشاعرة حيث تقول :

"مازلت أذكر أننى مرضت بالحمى التيفودية، وكنت أرقد فى سريرى الخاص الصغير، وأمامى أختى الكبرى جالسة تحيطنى بعنايتها وتهش عنى الذباب، فى حين أسمع من الحجرة المجاورة أصوات طبل وزمر وغناء بمناسبة "ختان" أخى" إبراهيم" . أشياء كثيرة جعلتنى أحس بتفاهتى فى ذلك البيت".

ورغم أن جو البيت الذى ولدت فيه الشاعرة كان طيبا وهادئاً فإن التفرقة التقليدية بين "الولد" و" البنت" والتى أحست بها الشاعرة منذ طفولتها قد انعكس على جو البيت أيضاً حيث تقول الشاعرة:

" لم يكن يعكر صفو بيتنا شئ فى تلك الأونة إلا تمرد أخى "إبراهيم" وعصيانه. كان مدللا كثير المشاغبة، محباً للتبذير، عنيف المعاملة، وكثيراً ماكان يهرب لاجئاً إلى أحد زملائه بالمدرسة، مختفياً عنده، تاركا فوق كل باب وجدار من البيت هذه الجملة المعهودة، مكتوبة بالطباشير، "سوف لا تروننى بعد هذا اليوم"! ويجرى أبى هنا وهناك لاهثاً قلقاً ليسأل عنه ثم يأتى به وقد تصالح معه".

ونترك هذه اللوحة التى ترسمها الشاعرة لطفولتها والتى خلقت فى داخلها بداية لعدم الثقة بالرجال، نتيجة للتفرقة الحادة فى

المعـاملة بين الولد والبنت. نتـرك هذه اللوحـة من أيام الطفـولة، لننتقل إلى لوحـة أخرى غـريبـة جداً من أيام الطفولة أيضاً تصور جانبا من حياة المجتمع فى مصـر فى أواخـر القـرن الماضى وأوائل هذا القرن، حيث تقول الشاعرة :

"حدث لنا شئ لم يكن فى الحسبان، فقد هبطت علينا ثروة من حيث لاندرى، فقد كنا نعيش على مرتب أبى البسيط وبعض الدخل الزهيـد من بيـوته فى حى الدرب الأحـمـر بالقـاهرة وبيـتـه بالإسكندرية. هبطت علينا هذه الثـروة وورثت أمى مـالاً ليس بالقليل. فقد ماتت السيدة "حنيفة هانم السلحدار"، وهنا لابد أن أحكى قصة أمى وعلاقتها بهذه السيدة. فأمى كانت شركسية الأصل وقد سمعت منها قصتها مراراً وتكراراً، فقد كانت أمى تسكن بيتا فى مدينة " أنقرة"، التركية، وكان لها شقيق واحد، وذات يوم كانا يلعبان فى حديقة بيتهما حين انقض عليها فرسان ملثمون، خطفوها فوق ظهر جواد أحدهم حيث جاءوا بها إلى القاهرة، وعمرها ثلاثة أعوام ليبيعوها إلى الأسر التركية القاطنة فى مصر منذ زمن، وكانت عائلات فاحشة الثراء، وكانت هذه العائلات بحاجة إلى "جوار" بيض، إما للتبنى أو للخدمة، وكانت السيدة "حنيفة السلحدار" هى زوجة "على باشا ثابت" الموظف الكبير فى الحكومة المصرية، وكانت عاقراً لا تنجب. وكانت هذه السيدة تملك ألفى فدان غير ثروة زوجها، وحين أوصت أن يأتوا لها بطفلة صغيرة كانت تريد أن تتخذ منها ابنة فى قصرها العظيم الموجود حالياً بحى شبرا، وقد أصبح فيما بعد مدرسة كبيرة. وعندما تسلمت السيدة " حنيفة" والدتى من التاجر، تسلمت معها فتاة شابة لتعمل فى القصر كوصيفة لها، ولم تكن هذه الفتاة مخطوفة، بل كان حضورها من تركيا برغبتها، وهى التى أخبرت أمى، بعد ذلك، بنبأ خطفها من حديقة بيتها فى "أنقرة ". وتربت أمى فى ذلك القصر معززة مكرمة، تقضى الشتاء فى القاهرة، والصيف

بالإسكندرية. وعاشت أمى سعيدة بجوار هذه السيدة التى جاءت لأمى بمدرسين، أحدهما ليعلمها الفرنسية، والثانى - وهو شيخ معمم - كان يدرس لها اللغة العربية، ومن أغرب ماحدث أن السيدة "حنيفة" أوصت هذين المدرسين أن يعلما أمى القراءة فقط، دون الكتابة ... فكنت أرى أمى تقرأ القرآن الكريم، أو الجرائد، دون أن تكتب، وعلمت بعد ذلك أنٍ السيدة "حنيفة" خشيت على أمى من الغواية حتى لا تراسل أحداً إذا هى تعلمت الكتابة !".

تلك هى صورة واقعية، وإن كانت تشبه قصص "ألف ليلة" ترسمها الشاعرة فى مذكراتها لبعض جوانب الحياة فى مصر فى عصر والدتها، أى فى أواخر القرن قبل الماضى وأوائل القرن العشرين. وقد انتهت القصة بأن ورثت الأم "المخطوفة" نصيباً من ميراث السيدة التركية الارستقراطية "حنيفة السلحدار"، مما عاد على أسرة الشاعرة ببعض الرفاهية والرخاء.

وتواصل الشاعرة بعد ذلك حديثها عن الرجال فى حياتها، ضمن تفاصيل أخرى، ولكننا سوف نتوقف أمام علاقتها بالرجال والتى أعلنت منذ البداية أنها تحمل لهم كراهية وأنها لم تشعر بالحب تجاه أحد ممن دخلوا حياتها. ولكنها مع ذلك تذكر أول رجلٍ عرفته، وكانت فى الثالثة عشرة، فقد أحبته، وكان كما تقول : "حباً قوياً عنيفاً أنهك قلبى الصغير، فعاش عمره عليلاً خائفاً متردداً منطويا مشلولاً".

وتفاصيل هذا الحب كثيرة، ولكن المهم فيه أنه انتهى إلى الفشل، فقد اكتشف أهل الشاعرة أنها تلتقى بحبيبها الأول هذا، وكانت الأسرة قد انتقلت إلى الإسكندرية لانتقال عمل الوالد إليها. وكان اكتشاف الأسرة لعلاقة الشاعرة بحبيبها الأول الذى كان يكبرها بأكثر من عشر سنوات نوعاً من الصدمة للعائلة، فقرر الوالد نقل ابنته إلى القاهرة وإلحاقها بمدرسة داخلية للراهبات، وطلب الإبقاء عليها داخل المدرسة دون إجازة على الإطلاق، حتى لا تخرج منها

ولا تلتقى بأحد.

وفى مدرسة الراهبات، ورغم القيود الشديدة، استطاعت الشاعرة أن تراسل حبيبها عن طريق إحدى زميلاتها، وكان يرد على رسائلها فى البداية، ولكن رسائله بدأت تفتر، ثم توقفت نهائياً.

وكانت هذه هى الخيانة الأولى التى عرفتها الشاعرة فى علاقتها بالرجال.

وهنا تلوح فى مذكرات الشاعرة صفحة مهمة تدل على أن التربية الخانقة لابد أن تؤدى إلى اضطراب قد ينتهى إلى نوع من الشذوذ العاطفى، وخاصة فى فترة المراهقة، وهذا ما تتحدث عنه الشاعرة فتقول "... كان فى مدرستى وباء كبير منتشر. كان هناك حب وتدله من نوع آخر. لأول مرة عانيته، وشاهدته، بل وعرفته، كان هذا الحب غراماً وصبابة وهلاكاً وأرقاً وناراً، كل طالبة فى المدرسة تحب وتعشق، سواء كانت فى القسم الداخلى أو الخارجى. كل طالبة تحب راهبة أو طالبة أكبر منها سناً... المهم أن تكون المعشوقة أكبر من العاشقة وأصابتنى العدوى، وكان نصيبى إحدى الراهبات القبطيات ذات الجمال الصارخ والصوت الرقيق المنغوم والبسمة الساحرة والهدوء المريح. كانت تعرف اللغة العربية بطبيعة الحال، ولكنها لم تكن تتكلم بها أمامنا إلا إذا زارتها أختها من الخارج، ثم تعود بعد ذلك إلى لغة المدرسة وهى الفرنسية، ومن الغريب أننا لم نكن نغار من بعضنا نحن الطالبات حين نحب واحدة بالذات. بالعكس، كنا نلتف حولها ونتمنى منها أن تمنحنا نظرة أو بسمة. كنا نتمنى منها كلمة ولو جوفاء، ونقضى أوقات فراغنا فى ابتكار الكلمات المشبوبة، والرسوم التى تعلن عن شعورنا الصادق، ثم نهدى تلك الوريقات إلى من نحب، فتأخذها منا فى حنان وصمت. أما الشىء الشائع فهو الحفر بالدبوس على ظهر الكف، حفر لاسم المحبوب، حيث تنبثق الدماء ثم تجف تاركة آثارها أمام

أعيننا فى أغوار لحمنا الآدمى، ورحت أحفر اسم حبيبتى على ظهر راحتى بحروف من دماء، ومن الغريب أن هذا الحب الشاذ كان أفلاطونيا طاهراً، لا يختلط به شعور الجنس، مثلى فى ذلك مثل بقية الزميلات، وجاء وقت كنت فيه العاشقة والمعشوقة، العاشقة للراهبة، والمعشوقة لتلميذة صغيرة أحبتنى بنفس الطريقة. ولم أكن قد أحسست بعد بشعور المعشوقة، فإذا به يفوق شعور العاشقة، إنه شئ يمتزج به الزهو بالخيلاء والثقة بالنفس.. بالفخر وبالكبرياء. فهناك من يتعذب لأجلى، وهناك من يترصد حركاتى، وهناك من ينتظر منى كلمة .. أية كلمة. ما أغرب الإنسان... فيه كل التناقضات".

وهكذا كانت التجارب العاطفية الأولى للشاعرة مضطربة، وبعضها كان ثمرة للضغط والاختناق والحصار المضروب حولها فى سن المراهقة. ومثل هذه الظروف التربوية القاسية تؤدى دائماً إلى الاضطرابات وقد تؤدى إلى الانحرافات.

ونمضى مع الشاعرة فى رحلتها العجيبة مع الحياة.

تنهى الشاعرة دراستها الثانوية بالفرنسية فى مدرسة الراهبات، وتبقى فى البيت. ولكنها لاتبقى طويلا إذ يختار لها أهلها زوجاً لا تعرفه، وكان بعض أفراد العائلة يعرفونه، وبعد أسبوع واحد من الخطوبة تم عقد القران. وهذا بعض ما تقوله الشاعرة عن زواجها الأول:

" رأيت زوجى لأول مرة بعد عقد القران. وكان زوجى فى بدء حياته العملية، وكان موظفاً بالسلك النيابى ثم القضائى. وكان زوجى يحمل حباً كبيراً لى، ولكن غيرته على كانت لا تحتمل مع عدم وجود ما يدعوه للغيرة. كنت أرى أن هذه الغيرة هى نتيجة عدم الثقة بى، وهى فى حد ذاتها إهانة لا تغتفر. لم يكن يمر علينا يوم دون جدل أو خلاف. كان عمله القضائى يأخذ كل وقته، فالنهار بالخارج والليل فى دراسة عمله. وكنا قد انتقلنا إلى الصعيد. وفى

كل إجازة نقضيها فى القاهرة أقيم أنا عند أهلى وهو عند أهله. وفى كل إجازة كنت أبدى رغبة فى عدم العودة معه، والانفصال عنه، فيرفض والدى وينهرنى فى عنف وقسوة فأعود مرغمة يائسة".

وتصف الشاعرة حياتها مع زوجها فى الصعيد وصفا جميلاً مؤثرا، هو أجمل من أية قصيدة جميلة فتقول :

"... وتمر الأيام وأنا فى أقاصى الصعيد، وأحلامى التى أجهلها لا تتحقق، وحياتى مجدبة كالصحراء، أرى نفسى مرهقة يائسة، يداى تقبضان على الهواء، وتمر الأيام وأنا أمشى فى طريق الزمن بقلب ظامئ مرتعش وبرغبة روح عنيدة فى محاولة طائشة لامتلاك المجهول. وتمر الأيام وبى رعشات محمومة للطيران، بى عاصف مدمر .. كأننى موجة ضاربة تتخبط مجنونة لتنحدر نحو البحر الكبير . ما أعظم الشباب وما أجله ... طالما يوجد فلا شئ مستحيل. ماهو الشباب عندى؟ إنه طنين مستمر للأمل والحلم، طنين سرب من النحل يلف ويدور. كان الشباب عندى هو بلوغ الأشياء غير السهلة.. هو الصراع الأبدى للوصول إلى المجهول. ما أقسى الزمن . كل هذا كان .. وأنا الآن اتحدى آلام الصحة، والجسد الجريح، والوهم السافر، والشعور بأنفاس الموت المتستر تلفح وجهى ! ما اقسى الزمن "!.

"أعوام عشرة عشتها مع زوجى الأول والد طفلى الصغيرين الحبيبين إلى نفسى، الطفلة الأولى بنت سميتها باسم صديقتى فى المدرسة الداخلية "ثريا" وأما الولد فأسميته "جلال". وأصيب ابنى بالحمى التيفودية ثم برئ منها، ثم عاودته الحمى، وخرج منها غير طبيعى، فقد تركت أثارها الرهيبة عليه أمسى متخلفاً عقلياً طيلة حياته".

هذا ماخرجت به الشاعرة من زواجها الأول فقد كان زواجاً بلا حب. وقد أصرت على الطلاق رغم كل محاولات زوجها لإقناعها

بالعودة إليه. وتحقق الطلاق بالفعل، وهنا تقول الشاعرة :

" ... استرددت حريتى... ملكتها بقبضة يدى، كنت نشوى بالحياة مبهورة. نشوى بجمالى وشبابى وحريتى. نشوى بأمومتى. فقد نام طفلاى تحت جناحى، أصحو وأنام وهما فى أحضانى، وأنا فى أحضان الكون، وفى حى شبرا وفى درب من دروبها المتفرعة استأجرت شقة متواضعة. وبدأت أتخشن وأسترجل حتى أقضى لوازم بيتى وأكون الرجل والمرأة. كان مبلغ نفقة الأولاد وما تعطيه أمى لى كل شهر كافيا يسمح لى بعيش متوسط. ومضى عام وابنى يكبر دون وعى فى طفولة شاذة وحركاته تنذر بالخوف عليه. وقد حاولت علاجه بلاجدوى. وبدأت أفيق على وهم كبير. لقد امتلكت حريتى فماذا أنا صانعة بها ؟ هل أخرج ؟ وأين أذهب ... وأنا لا أحب الخروج، ولا أستطيع أن أترك الأولاد بلا رقيب " .

" أيتها الحرية : دبرينى ... ماذا أنا صانعة بك؟ وكيف استغلك؟ أفى الحب، وقلبى لا يريد أن يخفق، بدأت أتبين الحقيقة. أنا لم أستفد شيئاً من انفصالى عن زوجى، ومع ذلك فلن أندم. فى حياتى لم أندم على شئ قررت بطيب خاطر أن أفعله ووجدته خطأ .. ولماذا الندم؟ مادمت، أنا وحدى الخاسرة... لقد أذيت نفسى ولم أجن على أحد. إن زوجى سيرتبط بزوجة أخرى تستطيع أن تسعده، بل لقد ارتبط فعلا، وعاش بقية عمره مستريحا، وإن ظل إلى آخر لحظة يلهج باسمى ويذكرنى فى حنين وحب" .

وأحست الشاعرة وهى فى هذه الحالة، بعد الطلاق، ببعض المتاعب الصحية، فنصحتها جارة لها بالذهاب إلى طبيب ماهر عيادته قريبة.

وكان هذا الطبيب هو إبراهيم ناجى، الشاعر الكبير المعروف ... وكان ذلك سنة ١٩٥٢ .

وكانت الشاعرة حتى ذلك الوقت تكتب شعراً وبعض الأغانى دون أن تهتم بشئ مما كتبته أو تفكر فى نشره، أو تتصور أن نشره

ممكن ... كان الشعر والأغانى بالنسبة لها تسلية تمارسها فى المناسبات أو فى بعض أوقات الفراغ.

وعندما ذهبت إلى عيادة الدكتور إبراهيم ناجى وجدته فى عيادته يقرأ أشعاره ويسمع أشعار بعض الشباب الذين يحيطون به. وقالت الشاعرة لناجى: أنا أكتب مثل هذا الكلام. وكان ناجى معروفا بإنسانيته العالية وميله إلى تشجيع الشباب بإخلاص وحماس. فطلب منها أن تعرض عليه بعض أشعارها. وبالفعل حملت إليه بعض ما كتبته فى زيارتها الثانية له. وبعد أن قرأه ناجى تصف الشاعرة انفعاله بما كتبت فتقول :

صاح ناجى هاتفا: "مرحى ... مرحى. هذا ناجى الصغير. هذا شعر .. شعر. ينقصه دراسة العروض والقراءة " وجذبنى بشدة إلى مكتبة عريضة تتوسط حجرة بالعيادة، وفتح مصراعيها قائلا : خذى ما تشائين من كتب الشعراء. فقلت حائرة : ولكنى لا أعرف الشعر ولا الشعراء. وأخذ ناجى يلتقط كتباً من هنا وهناك ويقدمها لى : حافظ إبراهيم، خليل مطران، الأغانى... وغيرها. قلت له:"وكتاب العروض؟". قال : "ابحثى عنه فى مكتبات شارع محمد على". وخرجت هذه المرة مشحونة بانفعالات مبهمة عنيفة. وسرعان ما عكفت على دراسة "العروض"، وبدأت أنظم الشعر، وأطلع الشاعر الكبير عليه وما من مرة أطلعت ناجى على قصيدة إلا كان رأيه يدفعنى إلى مزيد من الكتابة".

ولكن كيف كان ناجى من وجهة نظر الشاعرة؟ إنها تصفه فى أول لقاء لها معه فتقول:

"كان الرجل ضئيل الحجم، نحيلاً، بعيداً عن الوسامة، ذا مقلتين واسعتين حائرتين، فيهما حدة نظرات الصقر وبراءة عين الطفل، وهما تدوران مع الدائرة، كموج وسط دوامة".

ثم تقول عنه بعد أن ازدادت به معرفة :

"لأول مرة سمحت لرجل غريب أن يزورنى فى بيتى. كان بيتى فى

طريق عيادته، فكان يمر على بعد انتهاء عمله، كان يتحدث إلى مبتهجاً دون توقف، فى صوت متعجل متحمس، وبيدين صغيرتين عصبيتين دقيقتين تعيدان وتكملان ما تنطق به الشفتان. كنت معجبة به ... يقولون إن الإعجاب ليس الحب، ولكن قد يحدث أن يفضل المرء الإعجاب على الحب. كنت معجبة به، وهو يتكلم دون أن أنظر إلى وجهه، كان يسمعنى أشعاره المجنحة، وكان يكاد ينسى نفسه حين يلقيها. أية قوة فى شاعر عبقرى لا يحس وجود نفسه؟ أية ثقة يحملها فى الكلمات الهاربة من عقله وقلبه؟ .. ومن حين إلى حين يعتريه شبه صمت ... ماذا كان ينتظر... ؟ هل أصفق له وأنا الوحيدة المستمعة؟ هل أصفق وأنا معلقة بين سحر الأحلام الطائرة، وجلستى الساكنة الخجلى... ؟ حقا. إن بعض الشعراء يظل مراهقاً مهما كبر. فما من وقت لدى الشاعر لكى يغير نفسه".

"وجاء الصيف وسافرت أنا وأولادى إلى رأس البر، وكان "ناجى" رقيقا مجاملا فودعنى عند القطار، واحتفظ له بهذه اللفتة النبيلة. وراسلته من هناك، وأرسل هو لى خطابين سلمتهما فيما بعد إلى رابطة الأدب الحديث حيث بلغنى أن الرابطة ستطبع كتاباً عنه بعد وفاته. وحين عدت من المصيف كانت مفاجأة تنتظرنى، فقد أطلعنى ناجى على قصيدة "الرحيل"، وكنت أنا ملهمته.. وأنا لم أخرج مع ناجى غير مرتين بعد إلحاحه. الأولى إلى فندق سميراميس "القديم"، والأخرى إلى نقابة الصحفيين، وكان مطلع القصيدة:

هنا سميراميس هل تعلمين؟
وها هنا بالأمس طال السهر

هذا كل ما كان بينى وبين الشاعر الراحل ... من ناحيته، عناية أستاذ بتلميذته ... ومن ناحيتى حب أخوى صادق وإعجاب بشعره الرقيق. ومضى عام كامل على معرفتى بالشاعر، وذات صباح قرأت نبأ نعيه على صفحات الجرائد - العام ١٩٥٣".

تلك كانت قصة الشاعرة مع إبراهيم ناجى أحد أكبر الشعراء

الرومانسيين فى الشعر العربى الحديث... فهو الذى فتح أمامها أبواب الشعر، ولم تكن تفكر فى أن تكون شاعرة تقدم للناس ما تكتبه، أما هى فكانت مصدر إلهام قصيدة معروفة له هى قصيدة "الرحيل".

وتمضى الحياة بالشاعرة بعد رحيل ناجى، وتلتقى بعدد من الرجال، وتنشأ بينها وبينهم قصص سريعة لا تنتهى بالنجاح، وهى تروى هذه القصص مع الإشارة إلى أصحابها بالحرف الأول من أسمائهم.

ولا أظن أن هناك حرجاً الآن من الكشف عن أسمائهم الحقيقية، فقد مرت سنوات طويلة على وقوع هذه الأحداث فى حياة الشاعرة، مما يجعلها أقرب إلى الأحداث التاريخية، وربما كان الكشف عن هذه الأسماء الآن مضيئاً لبعض جوانب حياتنا الأدبية.

كانت قد وقعت فى حياة الشاعرة حادثة ترويها وتقول عنها: "كانت أمى قد توفيت وكنت قد ورثت عنها ما يجعلنى أبدو ثرية، وانتشر الخبر. لست أدرى كيف وتقدم لى الكثيرون من الشعراء والأدباء، منهم الطامع، ومنهم المحب، ومنهم المعجب".

وبدأت الشاعرة تظهر فى المجتمعات وتلقى أشعارها فى الندوات والمناسبات المختلفة. وحاول شاعر كان معروفاً فى الخمسينات أن يتقرب منها وقد رمزت له بحرف " ع"، وهذا الشاعر هو "عبدالله شمس الدين" مؤلف نشيد "الله أكبر" الشهير الذى لحنه الموسيقار محمود الشريف، وأصبح يتردد على كل لسان أثناء معركة العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦.

وكان الشاعر عبد الله شمس الدين يظهر للشاعرة حباً كبيراً، ولكن الشاعرة لم تبادله الحب أبداً، وكل ما كانت تحس به نحوه هو الإعجاب به والتقدير له، وفى لحظة من لحظات الضعف والرغبة فى الاحتماء بوجود رجل تستند إليه فى حياتها وافقت على الزواج منه بعد أن سمعت منه أنه مطلق ومنفصل عن زوجته الأولى منذ

فترة طويلة. وتقول الشاعرة :

" إنه كان يظهر لى من المشاعر أنبلها، الخوف علىَّ من وحدتى، الشفقة والحنان من أجل ظروفى العائلية، وأنا الآن اعترف والله يشهد أنى لم أفكر مطلقا فى الزواج به، بل أقولها فى ثقة بأن قلبى لم يخفق من أجله، بل أحببت حضوره وسط الجميع، فلم يدخل بيتى مطلقاً. وذات يوم جمعتنى الظروف مع الشاعر وكانت معنا صديقة مشتركة، فسألته الصديقة أمامى: ماذا تريد من الشاعرة؟ أجاب : الزواج طبعاً. لقد سئمت الوحدة. قلت: هل يسأم الزوج الوحدة وهو متزوج؟ أجاب فى دهشة : ومن قال لك إنى متزوج؟ إنى مطلق منذ عامين وأعيش وحيداً.. وأحسست براحة، لقد زال عن نفسى ماكنت أحس به من قلق الضمير. إذن هو غير مرتبط بزوجة. وعلى أن أفكر.. وفكرت.. فكرت كثيراً".

وتغلبت على الشاعرة فكرة الزواج، تصوراً منها أن ولدها "جلال" المتخلف عقلياً سوف يتعبها دون وجود رجل فى حياتها يساعدها على احتمال هذا العبء. ولكن هذا الزواج لم يدم سوى أسبوعين اثنين. فقد فوجئت بعد هذه الفترة القصيرة بسيدة فى مقتبل العمر تزورها وتقول لها إنها زوجة الشاعر وإن لها منه ولدين، وأنه تزوجها بعد قصة حب عنيفة، وأنها وحيدة لا أهل لها فى القاهرة. ثم قالت لها السيدة كما تروى الشاعرة: " إنها إذا تأكدت أننى أحبه فهى على استعداد أن تتركه لى من أجل عيونى... !" .

تقول الشاعرة: "... واستقر رأيى على الطلاق بعد أن عشت تجربة رهيبة لابد لها أن تنتهى ".

وانفصلت الشاعرة عن هذا الزوج الشاعر وتم طلاقها منه بعد أسبوعين فقط كما أشرت.

ثم تأتى تجربة عاطفية أخرى تقول عنها الشاعرة:

" تقرب منى الشاعر "م"، وكان شعره حريقاً يأكل ماحوله. كان عاصفة تحت جمجمة. أحببت شعره. أعجبت بصاحب هذا الشعر

اللهم. بيد أنه أحبنى أنا قبل شعرى. كان يصغرنى بكثير، وكنت من ناحيتى لا أفكر فى الارتباط يوما بزوج أصغر منى سناً. فذلك أمر يجعلنى لا أضمن حياتى معه فى المستقبل.

ورفضته ... لقد ضايقنى كثيراً، سامحه الله، بل نظم ديواناً كاملاً يهجونى فيه، غير أنى أعلم أنه كان مخلصاً صادقاً فى حبه...".

فمن هو الشاعر "م" الذى أحب الشاعرة ثم هجاها ورفضته هى لفارق السن؟

إنه الشاعر الكبير محمد الفيتورى، وكل قصائد الهجاء لإحدى النساء فى ديوانه الأولى "أغانى أفريقيا" موجهة إلى الشاعرة، وهى قصائد عنيفة قاسية مليئة بالغضب والمرارة.

وبعد ذلك خاضت الشاعرة تجربتين لم يتكللا بالنجاح أيضاً، وصاحبا هاتين التجربتين غير معروفين، ولكن الشاعرة تصف التجربتين وصفا مفصلاً على طريقتها الصريحة دون أن تذكر اسم الرجلين.

أما التجربة الأخيرة فكانت مع صحفى كبير كان مشهوراً قبل الثورة وكانت له جريدة أسبوعية اسمها " السوادى"، واسم الجريدة كان هو نفسه اسم الصحفى، فقد كان اسمه " محمد السوادى"، وكان صحفياً صاحب أسلوب جميل جذاب، وله بعض الأعمال المسرحية، وكان اسمه معروفاً على نطاق واسع فى الحياة الصحفية قبل ثورة ١٩٥٢، وفى السنوات الأولى للثورة دخل السجن متهماً بالاشتراك فى مؤامرة لقلب نظام الحكم، وبقى فى السجن عدة سنوات، وبعد أن خرج حاول أن يعود إلى الحياة العامة، وألف كتاباً فى مدح الزعيم الراحل جمال عبد الناصر تحت عنوان " عبد الناصر .. الزعيم الذى تآمرت عليه"، حاول فيه أن يكسب ثقة الثورة وعبد الناصر، ولكن محاولته لم تجد أية استجابة، فظل حتى آخر لحظة فى حياته منعزلاً بعيداً عن الحياة العامة، وقد تزوجت

منه الشاعرة ووجدت معه بعض الاستقرار والهدوء، لأنه كان أكبر منها وكان صاحب تجربة واسعة فى الحياة فكانت العلاقة قائمة على أساس عقلى خالص، ليس فيها للعاطفة المشتعلة مكان، وقد أحست نحو هذا الزوج الأخير الذى توفى سنة ١٩٧٨ بالإشفاق لأنه كان قد أضاع كل أمواله ولم تعد لديه فرصة للعمل أو للكسب من جديد، فكانت هى التى تنفق عليه، وقد تعرضت لأزمة نفسية بسبب هذه الظروف وكتبت عن ذلك تقول : " كنت استنكر أن يعيش الرجل على حساب زوجته، وكان هو يحاول إفهامى أن ذلك هو الشىء الطبيعى فى الزواج، هكذا كان يؤكد عن صدق واعتقاد. واختلفنا كثيرا فى ذلك الأمر. بيد أنى بدأت أحس أنى مسئولة عنه، وأنه من السخف حقا أن أفكر فى الانفصال من أجل ذلك. قلت لنفسى من يدرى، ربما أرسله الله ليبارك لى فى ولدى "جلال" وابنتى "ثريا" . ربما أرسلنى الله لأهيئ له العيش الكريم فى محنته تلك، بعد أن أنفق ما يملك على غيره. ولكنى والحق يقال أحسست فى قرارة نفسى بالخجل ... لست أدرى لماذا هذا الإحساس ظل ملازما لى أعواماً طويلة .. إحساسٍ مؤلم ورهيب، جعلنى لا أحس بكبريائى المعهودة، بل ملأنى شعوراً بضآلتى أمام نفسى... أيقول إنى اشتريته بمالى؟ ورحت أفكر ماذا يقول هذا الرجل عنى ياترى؟ هل أنا رخيصة إلى الحد الذى أنفق على رجل؟ لم يكن يهمنى المال. بل لم يهمنى طيلة حياتى. بل كانت تهمنى عاداتنا الشرقية، وما درجنا عليه. ورحت أبتعد عنه تلقائياً رغما عنى، جسدياً ومعنوياً، كنت أخشى لو تقربت منه أن يظن أننى اشتريته. وهكذا استمرت الحياة ... استمرت رتيبة عادية . ورحنا نتعامل كأخوين. لا شىء يربطنا غير العشرة. وأحسست أخيراً أنه قدرى، ولا يجوز أن أتحدى القدر، واندمجت فى مشاغلى المنزلية....".

وهكذا عرفت هذه الشاعرة سبعة رجال، ولم تكن سعيدة مع أحد منهم، ابتداءً من حبيبها الذى عرفته فى سن المراهقة، وحتى الزوج

الثالث والأخير وهو الصحفى "محمد السوادى" الذى عاشت معه عيشة "أخوية" لا "زوجية"، وكانت العلاقة بينهما تحكمها الشفقة وليس الحب.

ولذلك عندما كتبت الشاعرة جليلة رضا قصة حياتها بدأتها بقولها الصريح : "إنها لم تحب أحداً من الرجال الذين صادفتهم فى حياتها"، وجاءت مذكراتها من أفضل المذكرات والاعترافات النسائية فى أدبنا المعاصر، بسبب الصدق فى التجربة والمشاعر، ولأن صاحبة هذه المذكرات أديبة فنانة، فقد جاءت المذكرات ناعمة ودافئة وجميلة وقاسية أحياناً فى كل ما كشفته عن حياة امرأة موهوبة حساسة، حاولت أن تجعل لحياتها معنى، فكانت كأنها تجرى وراء سراب. ولكن مافى هذه المذكرات والاعترافات من تجارب صادقة يجعلها جديرة بأن يتعلم الإنسان منها الكثير وهو يستمتع بقراءتها. وأحب أن أنهى هذا المقال عن هذه المذكرات الجميلة بتلك الكلمات الصادقة الصريحة التى كتبتها الشاعرة عن نفسها حيث تقول :

".. لابد أن أعرض هنا عيباً كبيراً هو أكبر ما بى من عيوب.. إنه الانطواء. فأنا انطوائية أميل إلى العزلة ولكن رغما عنى. كم كنت أحب أن أكون أنيسة جليسة مختلطة بالناس. كم كنت أحب أن أحضر السهرات الأدبية المنزلية، وأن أناقش وأجادل وأبدى الآراء،واختلف وأتفق مثل بقية الأديبات والشاعرات. ولكن عبثاً .. لا أستطيع. بى شئ أسمه الخجل، ولكنه فى الحقيقة عدم الثقة بالنفس... لماذا ؟ لماذا أخجل من نفسى وليس بى شئ منفر. ولماذا لا أثق بنفسى وكل من حولى يقدرنى ويحترمنى. ربما كانت رواسب طفولتى. ربما كان تأثير زواجى المبكر من زوج عنيف رغم معاملته الطيبة. لست أدرى. غير أنى فى بعض السهرات التى حضرتها، رأيت أديبات تافهات يتحدثن بلباقة وطلاقة حتى طغى تأثيرهن على رجال علماء، فأحيين السهرة فى جدارة واقتدار، هذا فى حين

أكون أنا خجلى، مرتبكة، مضطربة.. أفكر أين أضع يدى، أفوق حجرى أم على خدى... بينما تدور فى عقلى آراء مبتكرة جميلة، أحاول أن أفرج عنها، وأحررها أمامهم جميعاً فلا أتمكن ....، ما أتفهنى ! دائما أحس أننى لا شئ أمام الناس، ولكن "سيدة نفسى وأنا وحدى، دائما أحس بالفراغ أمام الناس، وأشعر وحدى بامتلاء .. مع الناس أرى الغابة والصقور والقهر والعدم، ووحدى احتضن الجمال والخير والعدل والحق... وفوق ذلك كله الحقيقة العادية لمعانى الحياة. هذا هو قدرى ... وهذه طبيعتى".

تلك بعض كلمات الشاعرة جليلة رضا فى مذكراتها أو اعترافاتها الجميلة الصادقة، وعلى هذا المستوى جاءت كل صفحات المذكرات أو الاعترافات، ولذلك فهى تستحق أن تكون فى مقدمة أجمل وأصرح مذكرات نسائية فى الأدب العربى المعاصر بعد مذكرات فدوى طوقان.

أما شعر جليلة رضا، والشعر الذى قاله الشعراء، عشقاً لها أو كرهاً فيها، فلعله يكون موضوعاً لحديث آخر. إن شاء الله.

الفصل

14

بنت الباشا وابن السيدة زينب

- سبتمبر شهر الموت!
- لغز يوسف حلمى وقصيدة صلاح جاهين!
- خطة الثورة فى خطاب مسجل!

كثيراً ما نسمع عن شخصية عامة دون أن نكون على معرفة كاملة بهذه الشخصية وتاريخها الحقيقى وأثرها الإيجابى أو السلبى، فصاحب هذه الشخصية يتردد اسمه أمامنا، وقد نقرأ عنه فى بعض الكتابات هنا وهناك فنحفظ الاسم، ولكننا مع ذلك لا نملك معلومات عنه، فيبدو صاحب الاسم لغزا غامضاً يثير فينا ألوانا من التساؤل والدهشة. ومنذ أيام كنت أجلس مع مجموعة من أصدقاء الأدب والصحافة والحياة على رصيف مقهى شعبى فى حى المهندسين فى ليلة صيفية غاب عنها النسيم واشتدت الرطوبة فأغرقتنا بحبات العرق، التى كانت كأنها دموع تشكو إلى الله من هذا الطقس القاسى، وتطلب منه الرحمة وشيئا من الهواء المنعش !

وقد تذكرت وأنا فى هذه الجلسة فوق الرصيف قرب منتصف الليل، ماسمعته من طبيب كبير ذات يوم، حيث قال لى هذا الطبيب: على الجميع أن يحذروا من شهر سبتمبر، فشهر سبتمبر هو شهر الموت، ففى هذا الشهر ترتفع درجة الرطوبة فى الجو، والرطوبة معناها "قلة الأوكسوجين فى الهواء" وقلة الأوكسوجين تؤدى بالأجسام الضعيفة وحتى الأجسام القوية إلى أزمات صحية قاتلة، ولذلك تكثر نسبة الوفيات فى شهر سبتمبر. وقد أصبحت بعد أن سمعت هذا الحديث من الطبيب الكبير أخاف من شهر سبتمبر على نفسى وعلى كل من أحبهم فى هذه الدنيا.

ورغم شدة إيمانى بأن الأعمار اقدار، وأن الحياة والموت بيد الله، إلا أن كلام الطبيب قد أصبح يقلقنى، خاصة أننى من الناحية العملية أضيق بالرطوبة ضيقا غير محدود، وأشعر كلما اشتدت الرطوبة بأننى أختنق، ورغم أننى لا أجد عندى وقتا ولا ميلا للسهر خارج بيتى، إلا أننى فى شهر سبتمبر بالتحديد كثيرا ما أجدنى أغادر بيتى قبل منتصف الليل بقليل لأقضى عدة ساعات مع هواة السهر من أصدقائى الذين يغيظوننى بقدرتهم على التوفيق بين أعمالهم اليومية وبين سهراتهم الليلية، بينما أعيش أنا حياة تشبه حياة المحكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة! فأنا لا أكاد أغادر مكتبى فى بيتى إلا لأسباب قاهرة، وأعكف على عملى - ليلا ونهاراً - كما يعكف المحكوم عليه بالأشغال على تقطيع الحجارة، مما يجعلنى ألعن اليوم الذى أصبحت فيه مهنتى هى القراءة والكتابة، ولولا أننى أعيش على هذه المهنة وحدها منذ أن بدأت حياتى العملية قبل أن أصل إلى سن العشرين، وبالتحديد سنة ١٩٥٣.. لولا هذا لبحثت لنفسى عن مهنة أخرى غير هذه المهنة التى جعلتنى سجينا فى حجرة بين رفوف كثيفة من الكتب، وجعلتنى عاجزا عن أن تكون لى صلة بالحياة والناس، فأنا لا أكاد أرى أمامى غير الورق والقلم والكتب، وحتى أهل بيتى لا أكاد أراهم أو أجلس معهم إلا نادراً، مما يجعلنى فى أعماقى أشعر أن مهنتى هى حكم غير معلن بالأشغال الشاقة. ولا شك أن مما يعزينى ويخفف عنى أن كثيرا من زملاء مهنتى يعانون مما أعانيه.

على أن خوفى المستمر من شهر سبتمبر يخرجنى قليلا من السجن.. سجن المكتب، فأجد نفسى فى بعض الليالى أسعى إلى أصدقائى السهرانين، لعلى أجد معهم على أرصفتهم الجميلة بعض الهواء .. وحتى لو لم أجد هواء ولا نسيما عليلا أو غير عليل، فإن صحبتى هؤلاء الأصدقاء تنسينى لبعض الوقت خوفى من ليالى سبتمبر وما تحجبه من مخاطر على حياة الإنسان، والإنسان مهما

يكن شجاعا فهو جبان أمام الموت.

ما الذى قادنى إلى هذا الحديث حتى كدت أنسى بدايته؟ .. لاشىء. فهى خواطر تسيطر على النفس وتقلقها، وقد تجد النفوس بعض الراحة فى الإفضاء بما فى داخلها والفضفضة به، ففى ذلك بعض الشفاء من التوتر والمخاوف المختلفة.

وأعود إلى ليلتنا " السبتمبرية" - نسبة إلى سبتمبر - وما دار فيها من أحاديث حرة غير مرتبة.. فقد كنا نتحدث عن الشاعر الكبير فؤاد حداد، شاعر العامية العظيم، وعن سوء حظه فى الحياة والفن مقارنة بتلميذه النابغ صلاح جاهين، الذى نال فى حياته وبعد رحيله تقديراً واسع النطاق من الجمهور والنقاد على السواء، وقد كان ذلك يضايق صلاح جاهين نفسه، فقد كان صلاح جاهين إنسانا نبيلاً جداً، وكان أكثر الناس حبا فى هذه الدنيا لأستاذه فى الشعر فؤاد حداد. وكان بيننا ونحن نتحدث عن فؤاد حداد وصلاح جاهين صديقنا الكاتب الفنان الشاعر المذيع متعدد المواهب: يوسف معاطى. وكنا نعرف عن يوسف معاطى أنه يحفظ معظم أشعار صلاح جاهين عن ظهر قلب فطلبنا منه أن يقرأ لنا شيئا من محفوظاته " الجاهينية" - نسبة إلى صلاح جاهين - خاصة أن الاستماع إلى يوسف معاطى وهو يلقى قصائد صلاح جاهين فى حد ذاته متعة كبيرة، لأنه يلقى هذه القصائد بصوت هادئ حساس جداً، وكأنه يشرحها لنا وهو يلقيها علينا واختار يوسف معاطى قصيدة جميلة عنوانها :"كلام إلى يوسف حلمى" .. والقصيدة رائعة وإنسانية إلى أبعد الحدود، وبعد أن انتهى يوسف معاطى من قراءته قصيدة صلاح جاهين كاملة من ذاكرته الشعرية الحديدية، قال فى اسى : ولكننى لا أعرف شيئاً آخر عن يوسف حلمى سوى هذه القصيدة لصلاح جاهين. وأظهر المشاركون فى سهرة الرصيف إعجابهم الشديد بالقصيدة، ولكنهم أجمعوا على أنهم لا يعرفون أى شئ عن يوسف حلمى.

أما أنا فقد اكتفيت بأن أقول لهم بعض المعلومات المتفرقة عن يوسف حلمى. فأنا نفسى ظللت لسنوات طويلة أسمع عن يوسف حلمى دون أن أعرف عنه أى معلومات دقيقة وكل معلوماتى عنه كانت مستمدة من كلام صلاح جاهين عن هذه الشخصية الغامضة. وقد اسعدنى حظى بصداقة طويلة مع صلاح جاهين، استمرت منذ أن عرفنى عليه أستاذى الفنان الإنسان زكريا الحجاوى حوالى سنة ١٩٥٣ وحتى وفاة صلاح جاهين عرفت بعض المعلومات المتفرقة عن "يوسف حلمى" ولكن هذه المعلومات لم يكن فيها شفاء لفضولى الشديد الذى يدفعنى إلى معرفة المزيد عن يوسف حلمى، فقد كان يوسف حلمى لغزا من الألغاز بالنسبة لى، وهو حتى اليوم لا يزال لغزا من الألغاز بالنسبة لحياتنا الثقافية والفنية، وتاريخنا الوطنى والسياسى!

وعندما يتسلط على نفسى وعقلى فضول حول شخص أو قضية، فأظن أن هناك "عفريتا" "يركبنى" فأظل أبحث وأبحث حتى أصل إلى شئ يريحنى ويكشف الغموض، ويفك اللغز، ويقضى على الظلام ويفتح أمام عيونى نافذة للنور. وقد قادنى البحث إلى العثور على كتاب لأحد أساتذة الوطنية والفن والفكر الحر والرجولة والشجاعة هو المرحوم فتحى رضوان. وهذا الكتاب يحمل اسم "عصر ورجال" وهو من أروع الكتب التى عرفتها المكتبة العربية فى القرن العشرين. وعندما صدر هذا الكتاب حوالى سنة ١٩٦٨ كتبت عنه مقالين فى مجلة "المصور" وقال لى ناشر الكتاب المرحوم الأستاذ "صبحى جريس"- صاحب مكتبة "الأنجلو" - إن توزيع الكتاب كان راكدا لا يكاد يتحرك، وبعد أن كتبت عنه اختفى الكتاب من السوق تماما، وقمت خلال أسابيع بتقديم طبعة ثانية منه تتخاطفها الأيدى أيضاً. وعندما سمعت هذا الكلام من الناشر - وكان رجلاً فاضلا، بالغ اللطف والوفاء والأمانة - حمدت الله كثيرا، فقد كتبت عن الكتاب بما يستحقه من حماس وإعجاب

ومحبة، دون أن يمنعنى ذلك من الإشارة إلى بعض أخطائه الصغيرة تحت عنوان "الأخطاء الصغيرة فى المؤلفات الكبيرة"، ولم يراودنى شك فى أن نجاح كتاب "عصر ورجال" بعد كتابتى عنه يعود إلى قيمة الكتاب وروعته وجماله. وقد صدق الناس حماسى للكتاب، وعندما قرأوا الكتاب وجدوا أن هذا الحماس كان فى موضعه تماما. والكتاب فى حقيقته هو سيرة حياة فتحى رضوان نفسه من خلال الشخصيات العامة التى عرفها، من أدباء وسياسيين وشعراء ومفكرين، ويؤلمنى أن أقول إن هذا الكتاب لا وجود له فى المكتبات الآن، فقد مات مؤلفه ومات ناشره، وليس عندنا ما يكفى من الوفاء للراحلين، ولا الوفاء لأنفسنا وما نملك من ذكرياتٍ ثمينة.

وفى كتاب "عصر ورجال" وجدت فصلا كاملاً عن يوسف حلمى، يكشف كل ما يتصل بهذه الشخصية الكبيرة الغامضة من أسرار والفصل الذى كتبه فتحى رضوان عن يوسف حلمى فصل رائع ومثير جدا، ولو كنت من أهل السينما، لجعلت من هذا الفصل "فيلما" يهز الناس ويؤثر فيهم إلى أبعد الحدود!

ولن أستطيع تلخيص كل ما جاء فى الفصل الذى كتبه فتحى رضوان عن يوسف حلمى، ولكننى سوف أكتفى بلقطات مما جاء فى هذا الفصل البديع وهى كافية لتقديم فكرة عامة عن يوسف حلمى ومن يريد أن يتوسع فى المعرفة الدقيقة بيوسف حلمى فليعد إلى كتاب " عصر ورجال" .. إذا استطاع أن يعثر على نسخة من هذا الكتاب الفريد!

فى لقطة مؤثرة جداً يقول فتحى رضوان عن يوسف حلمى وزوجته "بنت الباشا" سامية راشد : " دخل يوسف حلمى المعتقل أكثر من مرة، وهاجر من بلاده، وغاب عنها طويلا، وعاد إليها، ولقى فى هذه الفترة عناء وتعبا شديدين، وتعرض لعشرات من المحن، ثم تلاقينا من جديد، فوجدت يوسف على العهد به، مرحا، لم يفقد الأمل فى مستقبل سعيد، ولكن كان كل ذلك فى الظاهر،

أما فى الباطن، فقد دفع يوسف حلمى ثمن هذه الحيوية المتدفقة، وهذا الانفعال الشاب، وهذا القلق المتجدد، وهذا الطموح الذى لا يضبطه شئ من التدبر أو التدبير، فاصاب الوهن قلبه، وفاجأته أزمة قلبية، وهو عند أحد أصدقائه فى عزبة قريبة من القناطر الخيرية، وحملوه إلى منزله فى عربة إسعاف ووصل إلى بيته فى الزمالك، وهو على هذه الحال، فأطلت زوجته وزميلة حياته" سامية راشد" من النافذة فتصورت أن يوسف حلمى قد جاء إليها جثة هامدة، وأنها فقدته إلى الأبد، فأصابتها فى الحال نوبة من نوبات القلب، لم تمهلها طويلا، فماتت هذه الزوجة التى عرفناها خلال الشهور السبعة التى كنا فيها معتقلين مع يوسف حلمى، وقد عرفناها زميلة لنا جميعا، تحمل إلينا الأخبار والإشاعات، وتدخل زيارة الأخت لأخيها وهو خلف القضبان، فكانت فى حياتها ومماتها مثلا رائعا للزوجة المخلصة التى يحملها الحب، لاعلى الوقوف مع زوجها فحسب، بل والإيمان بمبادئه، وإن لم تكن - بحكم تكوينها كفتاة ارستقراطية، أبوها أحد الباشوات - قد تهيأت من قبل فى كثير أو قليل لهذه المبادئ، ولا لذلك الإيمان. وأخفى أصدقاء يوسف حلمى عنه هذا النبأ، فلم يشترك فى تشييع جنازتها، وهى التى لم تتركه لحظة فلما تحسنت حالته وعرف النبأ كتب فى الصحف تأبينا لها فى سطور مؤثرة دامعة. وعلمت متأخراً بمصاب يوسف حلمى، فلما بلغنى النبأ أسرعت إليه فى منزل أحد أقربائه فى الزمالك، فرأيته فى السرير، لم يضعف المرض بريق عينيه، ولم تخل الكارثة بينه وبين أن يضحك كأن لم يحدث شئ، اما أنا فلم أتمالك نفسى من البكاء، فبكيت، وراح هو يخفف عنى ويواسينى!"

هذه لقطة من حياة يوسف حلمى كما كتبها فتحى رضوان. وليس هناك ما يمكن أن يقال فى التعليق على هذه اللقطة المؤثرة، فلننتقل إلى لقطة أخرى كتبها فتحى رضوان فى فصله الرائع عن يوسف حلمى حيث يقول :

"مــاذا أقــول لأظهــر أخـــلاق يوسـف حلمـى كـأوضـح مــا تكون، تحضرنى واقعة أتردد فى إثباتها لأنها تتصل بى، ولكنها أصبحت على مر الأيام، وبعد كل ما وقع، شيئاً لا قيمة له إلا فى الكشف عن أسلوب يوسف فى التفكير، وجرأته واندفاعاته فى تنفيذ أفكاره. كنت أقضى عطلة الصيف فى بورفؤاد، وجاءنى خطاب مسجل، تبينت على مظروفه خطا أشبه بخط يوسف حلمى، ولكننى تساءلت: فيم يكتب إلى يوسف ؟ وما يدعوه إلى أن يرسل ما يكتبه فى خطاب مسجل ؟ وفضضت الخطاب وقرأت، ويالهول ما قرأت - كما يقول يوسف وهبى - إن يوسف حلمى يدعونى فى خطابه أن أترك المصيف فورا، وأن أدع هذه الراحة غير اللائقة فى وقت بلغ فيه أمر الملك فاروق ما بلغ من الانحطاط والتدهور والتحدى لشعور الناس، ثم دعانى إلى أن أعود فى الحال إلى القاهرة لأقود حملة صريحة ومباشرة لخلع الملك فاروق، وأكد لى أن كل شئ مهيأ لذلك، وأنه سيكون أول من يتبعنى فى هذه الحملة "..

ثم يقول فتحى رضوان :

" لا أحسب أنه كان فى مصر، فى تلك الأيام شخص غير يوسف حلمى يستطيع أن يكتب خطابا فى هذا المعنى، وبهذا الأسلوب، ويرسله فى البريد".

هذه بعض المواقف والملامح فى شخصية يوسف حلمى. ويمكننا أن نلخص هذه الحياة بعد ذلك فى أن يوسف حلمى كان فنانا يكتب المسرح، وقد كتب مسرحية عنوانها " امرأة من السماء " بالاشتراك مع زميله وصديقه - الكاتب الكبير الآن - يوسف جوهر، ومن المصادفات الغريبة - كما يقول فتحى رضوان " أن يكون بطل هذه المسرحية محاميا مثل يوسف حلمى، وأن يصاب بالسرطان ويموت به كما مات يوسف أيضاً".

وكان يوسف حلمى صحفياً نشيطاً، يكتب فى أخبار اليوم وروزاليوسف وغيرها من الصحف والمجلات المعروفة. وأنشأ سنة

١٩٣٧ مجلة " الكاتب" وكان صاحبها ومحررها الرئيسى.. وكتب القصة القصيرة والنقد المسرحى، والمقالات السياسية القوية العنيفة، واشتغل بالمحاماة، ودخل الأحزاب المختلفة، وعرف السجون والمعتقلات..

وكان من أسرة ميسورة، وقد تربى فى حى السيدة زينب، وتزوج من ابنة باشا - وهى سامية راشد-، وعاش فى الزمالك حى الارستقراطية فى أيامه، ولكنه كان هو نفسه شعبيا ينفق ماله وصحته وجهده على القضايا الوطنية والاجتماعية. وكان من أهم انجازاته أنه كان أول من دعا فى الثلاثينيات إلى جمع تراث سيد درويش والاحتفال به والاهتمام بنشره وإذاعته، وكان فن سيد درويش موضع الاضطهاد الشديد فى مصر فى العصر الملكى، وقد توفى فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٦٣ عن واحد وستين عاما حيث إنه من مواليد عام ١٩١٢..

يقول فتحى رضوان فى آخر حديثه عن يوسف حلمى : " أراد يوسف حلمى أن يجمع فى نفسه كل شباب عهده، وقد استطاع أن يفعل ذلك، ولو اقتصر بناء جسمه على روح واحدة من الأرواح الكثيرة التى اجتمعت فيه، وتنافست على توجيهه، والاستئثار به - لكنا خليقين أن نظفر بكاتب عظيم، أو محام عظيم، أو قائد وطنى عظيم، أو اشتراكى عظيم.. ولكنه راح فى التاريخ يبذر هنا وهناك بذورا لمستقبل حافل بالاتجاهات والأعمال الباهرة".

وما نخرج به من هذا كله أن يوسف حلمى كان صاحب مواهب كبيرة متعددة، وأنه لم يركز على موهبة واحدة، فتوزعت حياته وتبعثرت آثاره، وضاع نبوغه فى اتجاهات عديدة، ولذلك نسمع به ونقرأ اسمه، ولا نكاد نعرف عنه شيئاً.

ولا أحب أن ينتهى هذا المقال دون أن أسجل نص قصيدة صلاح جاهين، والتى عنوانها "كلام إلى يوسف حلمى " ، وهى من روائع الشعر الإنسانى العربى المعاصر، كما أنها تعطينا صورة بديعة عن

شخصية يوسف حلمى الذى كان أستاذا كبيراً من أساتذة صلاح جاهين .. يقول صلاح جاهين:

- الاستاذ يوسف حلمى .. ؟!
أهلا عمى
لامش م البيت، أنا باتكلم م الشارع
حلوة، على رأيك، ماهو بيتنا الشارع
كنت فى سهرة وراجع
قلت أتكلم، واهو من حظى لقيتك مع إن - تصور؟-
وأنا بأنقل أرقام التليفون من نوتة لنوتة
جيت عندك قام شئ ملعون قال :
لأ، ما خلاص
ومشيت سطرين
والتالت قلت :
لا يمكن يوسف حلمى .. خلاص
ورجعت كتبت الاسم
ماخلصنيش
شوف الإخلاص!
كانت سهرة جميلة
أيوه الشلة إياها
تسلم وتعيش
كانت وحياة النبى عايزاك
غنينا ياسيدى حاجات
سيد درويش
معلهش .. ماهو أنت برضه
كنت هناك
إنت تمللى معانا، وحوالينا، وبيننا
موت مين ده يابو حجاج اللى يخدك منا .

يعنى كان خبا الشيخ سيد؟
ماهو زى الجن
ولا لحظة بيهمد ولا بيون
فى المسرح، فى المصنع، فى الغيط فى المدرسة فى السجن
ده وتر مشدود يابا
لمسوه من كام ألف سنة
ولساه بيزن
وكلام بيرن
زنة طويلة، طويلة
بتضحك وتئن
من قلب ربابة النيل
على قلبه .. على قلبك .. على قلبى على قلب الشمس الشموسة
اللى الليلة قعدت جنبى
- أيوه .. كان فينا الليلة
جماعة جداد
بنات وولاد
طبعا .. زى المعتاد
صاحيين، صاحيين
صاحيين، صاحيين
قلنا - ياسيدى-
" ماتفوقوا يا مصريين "
و" الحلوة دى قامت"
و"السياس"
قلنا " بلادى بلادى"
تعرف؟ .. حسيت إحساس
إن الشخص البلطجى ده
اللى اسمه الموت

عاجز، قدام الناس
قلنا "ياهادى ياهادى"
البت قالت : عرفت منين الغنوة دى؟
قدمتك ليها.. وسيبتك واقف وياها
سبتك واقف بتكلمها
وتعلمها، وترعاها
ماهو كله كلام
أنا باتكلم م الشارع
والشارع فيه جامع
والجامع مبنى بقاله
ميات الأعوام
إنما شبابيكه كلام
وبيبانه كلام
وعرايس إفريزه
كلام
وحيطانه..
والمعمارجى اللى بناه
واقف قدامى
وبيكلمنى
بيمد لى إيده، بيأخد كبريت منى
بيولع وبيضرب لى سلام
ياسلام!
موت مين يا يوسف حلمى
اللى يحوشك عنى؟
تصبح على خير!

الفصل

15

أول ثلاث ممثلات عربيات:

مسلمة ومسيحية ويهودية !

- **المشاغب والخديوى!**
- **رجال لتمثيل أدوار النساء!**
- **منيرة المهدية الوحيدة التى قامت بأدوار الرجال!**

ظهر المسرح العربى فى مصر على يد عدد من الرواد كان فى مقدمتهم يعقوب صنوع، واسمه بالكامل يعقوب بن روفائيل صنوع "١٨٣٩-١٩١٢"، وهو من أصل يهودى، وقد اعتنق الإسلام وظل على إسلامه حتى نهاية حياته، وهو شخصية عجيبة، وقد تلقى تعليمه فى مصر ثم فى إيطاليا، وكان يتقن العديد من اللغات الأوروبية واللغات الشرقية أيضاً، وكان متعدد المواهب، فكان صحفيا ومؤلفا ومخرجا وممثلاً ومدرسا للغات الأجنبية، وله ما يزيد على ثلاثين مسرحية مؤلفة، كلها باللهجة العامية المصرية، وكانت مسرحياته فى معظمها ذات نزعة ثورية واضحة، فكان يدافع عن الفقراء والطبقات الشعبية، وكان يهاجم العادات والتقاليد المتخلفة والتى تقف فى وجه التطور والنهضة فى مصر، وكان كثيراً ما يهاجم الخديوى إسماعيل ونظام حكمه الارستقراطى الاستبدادى، فأغلق الخديوى مسرحه، ومنعه من التمثيل، ولكن هذا "المشاغب" الذى لا يهدأ واصل تأليف المسرحيات المعادية للخديوى ونظام حكمه، فأصدر الخديوى قراراً بنفيه من مصر، وقد كان "النفى" من البلاد عقوبة معروفة فى تلك الأيام، وهى من أقسى العقوبات وأكثرها تعذيبا للإنسان، فهذه العقوبة تعنى أن يخرج المحكوم عليه من بلده وألا يعود إليه أبدا ما لم يصدر عفو عنه، حتى لو كانت عودته للزيارة القصيرة، وقد تعرض لهذه العقوبة الكثيرون من الأدباء

والشعراء والفنانين والسياسيين ورجال الدين فى القرن الماضى وأوائل هذا القرن ومنهم : الشيخ محمد عبده والشاعر الكبير أحمد شوقى، وعبد الله النديم، ومحمود سامى البارودى، وعلى الغاياتى، وبيرم التونسى. وقد عانى هؤلاء جميعاً عذابا أليماً فى المنفى، وكان من بين هؤلاء المنفيين هذا الرائد المؤسس للمسرح العربى فى مصر: يعقوب صنوع. وقد تم نفى هذا الفنان والصحفى الثائر إلى باريس، وفى باريس واصل نشاطه، فأصدر مجلة مشهورة هى " أبو نظارة" وهى مجلة سياسية ساخرة، لم يتوقف يعقوب صنوع فيها عن نقد الخديوى والاستبداد والاحتلال الأجنبى وقد اشتهرت مجلة " أبو نظارة" فى مصر والبلدان العربية المختلفة، ورغم أنها كانت تصدر فى باريس، إلا أنها استطاعت أن تتسلل إلى كل العواصم العربية المعروفة فى ذلك الوقت، وبخاصة القاهرة وبيروت ودمشق، وكان يعقوب صنوع يسمى بأسماء متعددة، منها "أبو نظارة" وهو الاسم الذى اختاره لمجلته، ومنها اسم "موليير مصر"، وفى هذا الاسم إشارة إلى الفنان الفرنسى الكبير الساخر موليير "١٦٢٢-١٦٧٣"، وكان يعقوب صنوع يحاول تقليد أسلوب موليير فى السخرية من الأوضاع والعيوب السياسية والاجتماعية المختلفة.

وفى الفترة التى كان فيها يعقوب صنوع يقدم مسرحياته الساخرة الثائرة فى مصر، وهى الفترة الممتدة من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢.. فى هذه الفترة، لم يكن يعقوب صنوع يجد أية فتاة مصرية يمكن أن تقوم بتمثيل الأدوار النسائية أمامه، فكان يضطر إلى اختيار بعض الممثلين الرجال لتمثيل الأدوار النسائية، وقد ظل المسرح العربى فى مصر يعانى من مشكلة الأدوار النسائية حتى أوائل هذا القرن، إذ أن المجتمع كله كان ينظر إلى فن التمثيل على أنه فن رخيص مبتذل. وكانت العائلات الكبيرة تعتبر اشتغال أبنائها بهذا الفن جريمة كبيرة، أما اشتغال المرأة بالتمثيل فقد كان من الأمور

المستحيلة، إذ أن ذلك لم يكن فى نظر التقاليد الاجتماعية يعنى شيئا سوى أن المرأة التى " تمثل" هى امرأة خارجة على الأخلاق مثلها فى ذلك مثل المرأة الداعرة، وذلك لأن فن المسرح كان جديداً على المجتمع العربى، ولم يكن فنا عريقا مثلما هو الحال فى أوروبا، إذ أن فن المسرح قد بدأ فى أوروبا منذ أيام الحضارة اليونانية التى ازدهرت قبل الميلاد بحوالى ثلاثمائة سنة، ومع ذلك فالمسرح اليونانى العظيم كان يعانى من مشكلة الأدوار النسائية أيضا، وكثيرا ما قام الرجال بأداء هذه الأدوار، وهو نفس ما حدث فى البلدان الأوروبية فى فترات مختلفة، حيث كان الإنجليز والفرنسيون، والإيطاليون والإسبان وغيرهم ممن عرفوا عصورا مسرحية مزدهرة كثيرا ما يضطرون إلى استخدام الممثلين الرجال فى الأدوار النسائية عندما يعجزون عن العثور على المرأة التى تصلح لفن التمثيل، وتقبل القيام بالأدوار النسائية. وهذا هو نفسه الحل الذى لجأ إليه الرائد المسرحى العربى المصرى الكبير يعقوب صنوع، وظل المسرح يعتمد على نفس التقليد فى إسناد الأدوار النسائية إلى الرجال لفترة طويلة فى بدايات القرن العشرين.

وأخيراً ظهرت ثلاث ممثلات عربيات وجدن الشجاعة الكاملة للظهور على المسرح وأداء الأدوار النسائية، وكانت هذه الممثلات الثلاث هن أول نساء يظهرن على المسرح العربى فى مصر، وتشاء المصادفات أن تكون هذه الممثلات الثلاث منتميات إلى الأديان السماوية الثلاثة، فإحداهن مسلمة وهى "منيرة المهدية"، والثانية مسيحية وإن كانت قد أسلمت بعد ذلك وهى "روز اليوسف" التى أصبح أسمها بعد إسلامها "فاطمة اليوسف"، وهى مهاجرة إلى مصر من لبنان، أما الثالثة فهى يهودية أسمها "ميليا ديان" . وهذا الاتفاق الغريب فى أن تكون الرائدات الثلاث لفن التمثيل النسائى فى مصر منتميات إلى الأديان السماوية الثلاثة هو من أعجب المصادفات غير المقصودة. ولكنه على أى حال يعطى صورة لواقع

مصر فى أوائل هذا القرن، وهو واقع يدل على أن التسامح الدينى فى مصر هو صفة حضارية أصيلة وقوية الجذور. وكل من يتوقف أمام هذه المصادفة غير المقصودة فى تاريخ التمثيل العربى فى مصر، يستطيع أن يرى فيها إشارة نبيلة ورائعة على طبيعة مصر المتسامحة البعيدة كل البعد عن التعصب الدينى. وربما كانت أجرأ هؤلاء الممثلات جميعاً هى الممثلة المسلمة منيرة المهدية، ذلك لأن فن المسرح لم يكن من السهل أن يلقى قبولا عند المسلمين، وكان الأمر أقل صعوبة عند المسيحيين واليهود. وقد كان رواد المسرح الكبار فى أوائل هذا القرن من المسيحيين وفى مقدمتهم جورج أبيض، وعزيز عيد، ونجيب الريحانى، وبالطبع كان هناك رواد آخرون من المسلمين، ولكن هؤلاء من المسيحيين كانوا فى المقدمة، قبل أن يدخل المسلمون بقوة إلى عالم المسرح.

ولقد كان الشاب الأرستقراطى الفنان محمد تيمور "١٨٩٢-١٩٢١"، شقيق الأديب الكبير المعروف محمود تيمور "١٨٩٤-١٩٧٣"، هو أحد الرواد المسرحيين المسلمين الأوائل، وكان والد محمد تيمور كاتبا وعالما وأديبا معروفا، ولكنه كان من كبار أفراد العائلات الأرستقراطية الثرية فى مصر، وهو أحمد تيمور باشا، وقد تعلم محمد تيمور فى باريس، وعاد إلى مصر فى أوائل الحرب العالمية الأولى، سنة ١٩١٤، وكان فى الواحد والعشرين من عمره، وقضى الأعوام الثمانية التالية وحتى وفاته المفاجئة وهو فى سن التاسعة والعشرين، وهو مشغول بكتابة القصة والشعر، ومشغول أكثر من ذلك كله بكتابة المسرحيات الحديثة التى كان لها تأثير كبير فى المسرح العربى فى مصر، ومن أشهر أعماله تلك المسرحية الغنائية المعروفة باسم "العشرة الطيبة" والتى لحنها سيد درويش وقدم فيها مجموعة من الألحان الخالدة، والتى لاتزال تتردد حتى اليوم. وهناك" شائعة" لا يوجد عليها دليل موثوق به، تقول إن السلطان أحمد فؤاد، الذى أصبح ملكا على مصر بعد ذلك، كان غاضبا على

محمد تيمور، وكان يعتبره ابنا " خائنا" للطبقة الارستقراطية ذات الأصول التركية، ومنها السلطان أحمد فؤاد نفسه، وذلك لأن محمد تيمور فى أعماله الأدبية والفنية، وبخاصة كتاباته المسرحية، كان صاحب ميول شعبية معارضة للاستبداد والطغيان، مما كان يعتبره السلطان أحمد فؤاد عداء موجها إليه، وتستمر الشائعة التى ليس عليها دليل يثبتها فتقول إن السلطان فؤاد قد تآمر على قتل الفنان محمد تيمور، وهذا هو تفسير موته فى سن مبكرة، قبل أن يتجاوز الثلاثين.وأنا لا أميل إلى الأخذ بهذه الرواية، وخاصة أن تاريخ محمد تيمور لا يكشف عن أى عنف فى شخصيته، فقد كان كما وصفه عارفوه ومعاصروه، وعلى رأسهم الفنان المسرحى الكبير زكى طليمات، عفيفا خجولا بعيدا عن التعصب لا يأخذ مطلقاً بأى أسلوب من أساليب التحدى والاستفزاز، كل ذلك بالإضافة إلى أنه عمل فى القصر الملكى المصرى سكرتيرا للسلطان حسين كامل شقيق الملك فؤاد، والسلطان حسين هو الذى حكم مصر من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٧، فمن المستبعد جداً أن يقوم الملك فؤاد بقتل موظف معروف فى القصر، هو أحد أفراد أسرة كبيرة مهمة قريبة أشد القرب من الأسرة المالكة فى مصر فى تلك الفترة. وأغلب الظن أن محمد تيمور مات بمرض من الأمراض المفاجئة التى تهاجم القلب، مثل انسداد "الشريان التاجى"، وهى من الأزمات التى يقول الأطباء إنها إذا أصابت الإنسان فى شبابه فإنها تكون أخطر بكثير مما لو أصابته وهو متقدم فى السن، فبعد تقدم السن يكون القلب قد استطاع أن يقوم بتوسيع شرايين عديدة تغذيه، فإن أصيب شريان رئيسى فإن الشرايين الأخرى تساعد على إنقاذ الإنسان، أما فى فترة الشباب فإن القلب يعتمد على الشرايين الرئيسية، فإن أصيبت هذه الشرايين فلا نجاة لأصحابها.

كان محمد تيمور إلى جانب ماكان يقوم به من تأليف للقصص والمسرحيات ناقدا مسرحيا من الطراز الأول، وهو فى هذا المجال

يستحق أن يكون الرائد الأول للنقد المسرحى فى الأدب العربى فى القرن العشرين.

وبعد وفاته سنة ١٩٢١ كما سبقت الإشارة، عكف أخوه الأديب الكبير محمود تيمور على جمع أعمال شقيقه الراحل ونشرها، وكان فى مقدمتها كتابه الكبير الهام "حياتنا التمثيلية"، والنسخة التى فى يدى من هذا الكتاب الممتع الجميل لا تحمل تاريخ الصدور وإن كانت المقالات نفسها تحمل تاريخ كتابتها وهو سنة ١٩١٨، وفى هذا الكتاب نجد فصولا لا يحدثنا فيها محمد تيمور بأسلوبه المشوق القوى والممتلئ بالحرارة والصدق والثقافة والذوق، عن الممثلات الرائدات الثلاث اللاتى كن أول ممثلات يظهرن على المسرح العربى فى مصر، بعد أن كان الرجال يقومون بأدوار النساء.

والممثلة الأولى هى " المسلمة" منيرة المهدية وقد توفيت هذه الممثلة سنة ١٩٦٥، وكانت عند وفاتها فوق الثمانين، ولم أعثر على تاريخ ميلادها، وقد بدأت منيرة المهدية التمثيل سنة ١٩١٥، وكان المسرح يقدمها على أنها "أول ممثلة مصرية" وكانت "منيرة" إلى جانب موهبتها التمثيلية صاحبة صوت جميل، فكانت أهم مطربة فى أوائل هذا القرن وقبل ظهور "أم كلثوم".

وكانت" منيرة" قبل "أم كلثوم" هى المطربة الأولى فى مصر، وعندما ظهرت أم كلثوم وأخذ نجمها يرتفع فى أوائل العشرينيات بدأ نجم منيرة يخبو قليلا قليلا، حتى حلت محلها أم كلثوم بصورة كاملة منذ الثلاثينيات وما بعدها. ومن الطريف أن منيرة المهدية كانت تمثل فى فرقة الموسيقار والمطرب والممثل الشهير " الشيخ سلامة حجازى" وكثيرا ما كان الشيخ سلامة يترك" أدواره الرجالية" لتمثلها منيرة المهدية. ولعلها تكون الممثلة الوحيدة التى قامت بأدوار الرجال فى تاريخ المسرح العربى فى مصر.

ومنيرة المهدية هى التى قدمت محمد عبد الوهاب فى مسرحية

"أنطونيو وكليوباطرا" وقد لحن فصلها الأول سيد درويش ولكنه توفى سنة ١٩٢٣ قبل أن يكمل تلحينها، فأكمل تلحينها عبد الوهاب، وقام بتمثيل دور أنطونيو أمام منيرة المهدية، والمسرحية كانت مسرحية غنائية ولم أعثر على اسم مؤلفها وكاتب أشعارها، وهى مسرحية مختلفة عن مسرحية "مصرع كليوباطرا" للشاعر الكبير أحمد شوقى، والتى ظهرت سنة ١٩٢٩، أى بعد أن قدمت منيرة المهدية ومحمد عبد الوهاب مسرحيتهما الغنائية عن "أنطونيو وكليوباطرا" بعدة سنوات.

وعن منيرة المهدية أول ممثلة مصرية مسلمة، يقول محمد تيمور فى كتابه البديع" حياتنا التمثيلية" "... منيرة المهدية !! اسم عذب جميل يطرق الآذان من عهد بعيد، عهد تعدد "القهوات" فى "الأزبكية" حيث كانت الناس تذهب لسماع "الطقاطيق" الجميلة، تنشدها المغنية الفاتنة، فتخرج من فمها أنغاما شجية، تتخللها تلك البحة الناعمة التى كانت تنزل على نار القلوب بردا وسلاما، وهناك كان يذهب "سراة " القوم و "حثالتهم" لينفقوا ساعات الليل عن طيب خاطر، حيث كانت تجلو " منيرة" صدأ القلوب. وتلك أيام قديمة ولكن ذكراها لم يزل جديدا فى طيات القلوب، ثم انقضى ذلك العهد فأصبح مرعى الأنس ومغنى الصحابة قفرا يابس الأعشاب بعد أن كان ملتف الأفنان يانع الأزهار. وظلت منيرة بعد ذلك تناضل زمنا ثم رأينا اسمها على إعلانات فرقة عزيز عيد المسرحية، فوقفنا نسائل النفس حقا ما نرى أم كذبا، وحلما ما نشاهد أم حقيقة ؟ وقفنا أمام تلك الكلمة المكتوبة بالثلث "دخول منيرة المهدية التمثيل العربى" وكان الأجدر بهم أن يكتبوا "دخول منيرة المهدية الغناء التمثيلى". وقفنا أمام ذلك وقفة المندهش الحائر ونحن نحدث أنفسنا قائلين: من الذى دفع بها للتمثيل؟ أميل فى نفسها لهذا الفن أم هى محاولة لفتح باب للكسب المادى؟ أم غرام بالفن استقر فى قلب زوجها "محمود بك جبر" أيام كان من

المعجبين بصوت الشيخ سلامة حجازى دفعه لأن يزج بزوجته "منيرة المهدية"، فى غمار التمثيل؟ وقفنا نحدث أنفسنا ونحن لا نعرف أى نوع من أنواع التمثيل سترفع منيرة لواءه وتمشى به إلى الأمام، ولكننا كنا على كل حال مغتبطين بدخول منيرة دار التمثيل والوقوف فى ساحته لشوقنا إلى وجه ممثلة مصرية تقف بجوار الممثلات السوريات بعد أن احتكرن خشبة المسرح وأصبح ملكا لهن يفعلن به ما يروق لهن.

مثلت منيرة مع عزيز عيد أياما معدودة ولكنها لم تقف معه على المسرح فى رواية واحدة، بل كانت تمثل بعض مشاهد روايات الشيخ سلامة حجازى، أو بالأحرى كانت تقف على المسرح لتغنى قصائد الشيخ، فنشط لها الجمهور، وأقبل عليها يسمع صوتها الجميل، وكان هذا الإقبال سببا فى انفصالها عن عزيز عيد وتأليفها فرقة تحمل اسمها وتطوف بها جميع بلاد مصر. وانحصر مجهود منيرة فى ذلك العهد فى تمثيل روايات الشيخ سلامة حجازى التى يسهل تمثيلها، وكانت تقوم بأدوار الشيخ، وهى أدوار "رجالية"، ولكن صوتها الضعيف الجميل كان يخونها فى كثير من هذه الألحان، لذلك وجدناها تغنى ألحان الشيخ ولكن من غير الطبقة التى كان الشيخ يفخر بالوصول إليها، ووجدنا الشيخ فى ذلك العهد يغنى قصائده على طريقة أخرى يهز بها القلوب، فتميل الأجسام طربا وحنانا، والشيخ فى كل وقت كان الأسد فى بأسه وامتناع حماه.

ثم يتحدث محمد تيمور بعد ذلك عن مرحلة النضج فى حياة منيرة المهدية، وهى المرحلة التى مثلت فيها رواية "كارمن" من تلحين كامل الخلعى، وهو فنان كبير مثقف وموهوب، وقامت بعد ذلك بتمثيل مسرحية "تاييس" من تلحين الخلعى أيضا، ولم يشر محمد تيمور إلى مسرحية "أنطونيو وكليوباطرا" التى قدمتها منيرة المهدية بألحان سيد درويش ومحمد عبد الوهاب، لأن هذه الرواية مثلتها منيرة المهدية بعد وفاة محمد تيمور بسنوات، ويشير محمد تيمور

فى دراسته عن منيرة المهدية إلى ما أنفقه زوجها "محمود بك جبر" على رواية "كارمن" من أموال فيقول: "استعدت فرقة منيرة المهدية لمسرحية "كارمن" استعدادا كبيرا، ولكن إقبال الجمهور كان أكبر من هذا الاستعداد، وليس فى ذلك مايحط من قيمة الملابس والمناظر التى صرف من أجلها محمود بك جبر ما فى جيبه من المال، ومحمود بك اعتاد ألا يبخل بما فى جيبه فى سبيل الفن الذى تقوم زوجته ـ منيرة المهدية ـ بإحيائه، وتلك حسنة من حسناته نشكره عليها شكرا جزيلا".

ثم يلخص محمد تيمور حديثة الطويل عن منيرة المهدية بقوله : "منيرة وهبها الله صوتا عذبا جميلا تتخلله بحة تهز أوتار القلوب، ولكنه ضعيف لا يقدر على أداء الطبقات العالية، كما أن ضعفه يظهر فى ختام النغمات، أما من الواجهة التلحينية فهى عاجزة عن التلحين ونحن لا نعيب عليها ذلك، فليس كل منشد بملحن، ولا كل ملحن بصاحب صوت جميل وإذا أردنا أن نكتب عن منيرة كممثلة، فليس فى استطاعتنا أن نحكم عليها كما نحكم على جورج أبيض وعبد الرحمن رشدى لأنها دونهما بمراحل، وهى لم تتلق التمثيل فى مدرسة، ولم تمكث عهدا طويلا فى مدرسة التجارب، فليس لنا إلا أن نقول إن الطبيعة وهبتها فى وجهها وجسمها ما يؤهلها لأن تكون من كبيرات الممثلات، فإذا اجتهدت وصلت وما من أحد ينكر على منيرة اجتهادها وخضوعها للنصائح والتعاليم".

هذه صورة حية لمنيرة المهدية أول ممثلة مصرية مسلمة تقف على خشبة المسرح، وما كتبه عنها محمد تيمور هو وصف وتعليق على خطواتها الأولى، وقد كتب محمد تيمور هذه الدراسة عنها سنة ١٩١٨، عندما كانت منيرة المهدية فى قمة تألقها ونجاحها الفنى، ومنيرة المهدية هى الممثلة الوحيدة فى ذلك الجيل الأول من ممثلات المسرح المصرى التى يوجد لها تسجيلات على أسطوانات قديمة، وذلك لأنها كانت مطربة صاحبة صوت جميل له عشاق ومعجبون،

وكان تسجيل الأغانى على أسطوانات أمرا معروفا فى مصر فى ذلك الوقت المبكر من القرن العشرين" .

وإذا تركنا منيرة المهدية، الممثلة المصرية المسلمة الأولى على المسرح المصرى، فسوف نجد أمامنا شخصية ثانية كانت تشارك منيرة فى أنها من جيل الرائدات لفن التمثيل النسائى فى مصر، بعد أن لم يكن للنساء وجود فى هذا المجال، حيث كانت الأدوار النسائية يقوم بها الرجال كما أشرنا فى البداية. هذه الممثلة الثانية هى " روز اليوسف" وهى مسيحية لبنانية وافدة إلى مصر، وقد استقرت فى مصر نهائيا، وأسلمت بعد ذلك واختارت لنفسها اسم "فاطمة اليوسف" وتزوجت من ممثل معروف فى جيلها هو محمد عبد القدوس وأنجبت منه ابنها إحسان عبد القدوس وهو الكاتب والأديب والصحفى الكبير المعروف، كما تزوجت بعد ذلك من الفنان المسرحى الكبير زكى طليمات وانجبت منه ابنة واحدة هى "ميمى طليمات" وهى الأخت الوحيدة غير الشقيقة لإحسان عبد القدوس، وفى منتصف العشرينيات توقفت روز اليوسف عن العمل بالتمثيل واتجهت للصحافة فأنشأت سنة ١٩٢٥ مجلتها المعروفة حتى الآن وهى "روز اليوسف"، وكانت فى البداية أسبوعية ثم تحولت إلى جريدة يومية، ثم عادت لتصبح مجلة أسبوعية مرة أخرى وهى المجلة المعروفة بنفس الاسم حتى اليوم.

وقصة نشأة روز اليوسف وميلادها فى لبنان غير واضحة، وكذلك قصة هجرتها إلى مصر فهى أيضاً من الأمور الغامضة التى لا توجد حولها معلومات كثيرة دقيقة. ولكن تاريخها منذ ظهورها كممثلة فى أوائل العشرينيات معروف. ويتحدث عنها محمد تيمور فى كتابه "حياتنا التمثيلية" بعد أن أصبحت ممثلة من ممثلات الدرجة الأولى سنة ١٩١٨، ويقول تيمور عنها :" ... قليل جداً عدد ممثلاتنا القادرات وأقل منهن عدد اللواتى يمثلن من أجل الفن، و"روز اليوسف" من بين الممثلات اللواتى جمعن بين القدرة والغرام

بالفن. فهى من ممثلات الدرجة الأولى بمصر، بيد أن شهرتها الكبيرة كانت فى طى الخفاء، ولبثت كذلك عهدا طويلا إلى أن وقع عليها نظر ممثلنا العبقرى عزيز عيد ورأى فيها تلك القوة الكامنة فى نفسها أو تلك القوة التى كاد أن يقضى تعسف المديرين "المخرجين" عليها فأخذ يناصرها وأعلى شأنها وجعلها تمثل الأدوار التى توافق طبيعتها، وهى تستطيع أن تقدم كل الأدوار ما عدا الأدوار التراجيدية أو " المأساوية"، لأنها لم تخلق لهذه الأدوار، ونظرة منا لجسمها الصغير وصوتها الناعم تثبت لنا صحة هذا القول.. " ثم يتوقف محمد تيمور عند " ميزات روز اليوسف" كما يراها فيقول": لروز اليوسف أربع ميزات كبيرات لا نغالى لو قلنا إننا لم نجدها فى غيرها من الممثلات، فأول مميزاتها حبها الكبير للفن وتفانيها فى خدمته فهى تعمل من أجل الفن ولاتخدم سواه. وثانى مميزاتها رشاقتها الكبيرة على المسرح، ولهذا يصح أن نقول عنها إنها أكبر الممثلات الشرقيات إتقانا للأدوار الأوروبية.وثالث مميزاتها فهمها للأدوار التى تمثلها، ولهذا لا تخرج أدوارها على طريقة واحدة ونظرة منا إلى دورها فى "بائعة الخبز" ثم دورها فى "خللى بالك من إميلى" ثم لدورها فى "القرية الحمراء " ثم لدورها فى "دخول الحمام" تثبت أنها قادرة على فهم أدوارها وإخراجها على المسرح كما يتطلب المؤلف والمخرج، لقد كانت "روز اليوسف" فى "بائعة الخبز" فتاة إفرنجية أضناها مرض السل، وكانت فى "خللى بالك من إميلى" تلك الفتاة الرشيقة اللعوب، وكانت فى "القرية الحمراء" تلك القروية المصرية الساذجة، وفى "دخول الحمام" فتاة من ساكنات القاهرة التى يصح أن نطلق عليهن لفظة "شلق"، وهنا يظهر للقارئ الكريم كيف تقلبت ممثلتنا القادرة فى هذه الأدوار وكيف وصلت لأن تظهر فى كل دور بما يناسبه. ورابع مميزاتها صوتها العذب الذى تتخلله تلك الرعشة الناعمة، وقد ظن بعض النقاد أنها من ذوات الصوت الضعيف، وأن الأجدر بهم أن

يقولوا إنها من ذوات الصوت الناعم الحنون. ونتمنى لو شاهدنا ممثلتنا القادرة تمثل دورا فيه عواطف فياضة حتى تتفق نغمة صوتها مع رقة عواطفها وتكون بذلك قد قدمت شيئاً جديداً".

أما عيوب" روز اليوسف" كما يراها محمد تيمور فتتلخص فيما يلى "... أول عيب يؤخذ على ممثلتنا القادرة هو تفانيها فى تمثيل الأدوار الإفرنجية تفانيا يحدو بها لأن تكره تمثيل الأدوار البلدية المصرية، وخير "لروزا" أن تمثل النوعين بعد أن ظهر لها وللجمهور أيضاً إتقانها للأدوار البلدية فى " القرية الحمراء" و"دخول الحمام". لماذا تأبى ممثلتنا تمثيل الأدوار المصرية مع أن روحها أكثر اتصالا بهذه الأدوار من الأدوار الإفرنجية، ونحن لا نرجو إلا أن تصلح " روزا" هذا العيب، وما إصلاحه بالشئ العسير، وثانى عيوبها أنها لا تصلح لتمثيل المآسى، وذلك لصغر جسمها وحنان صوتها الناعم، ولقد وقفت "روزا" على هذا العيب، ولهذا تراها تحجم عن تمثيل هذا النوع من الروايات المأساوية".

هذه بعض الملامح الفنية والشخصية التى يسجلها محمد تيمور حول شخصية "روز اليوسف" الممثلة التى نجحت فى بداية حياتها الفنية نجاحا كبيراً، وللأسف ليس لدينا من دليل على هذا النجاح سوى شهادات المعاصرين لها، لأنها لم تعمل بالسينما، ولم تكن مطربة، وقد توقفت عن التمثيل قبل ظهور السينما فى مصر سنة ١٩٢٧ بسنوات قليلة، واتجهت إلى الصحافة، وظلت تعمل بها حتى وفاتها فى أواخر الخمسينيات.

أما الممثلة الثالثة الرائدة لفن التمثيل النسائى فهى " اليهودية" "ميليا ديان"، وهى ثالثة الثلاث اللواتى يمثلن دور الريادة لفن التمثيل النسائى فى المسرح العربى فى مصر، واللواتى كن بالمصادفة العجيبة: مسلمة ومسيحية ويهودية. و"ميليا ديان" مثلها مثل "روز اليوسف" لاتوجد أية تسجيلات لها باقية بين أيدينا، فلم تكن مطربة، ولم تلحق بعصر السينما الذى بدأ حوالى سنة ١٩٢٧،

وازدهر فى الثلاثينيات، وكانت "ميليا ديان" قد توقفت عن التمثيل. والحياة الشخصية لهذه الممثلة اليهودية المصرية غير واضحة، ولا توجد مصادر تكشف عن تفاصيل هذه الحياة، ولذلك لم أستطع العصور على تاريخ ميلادها أو تاريخ وفاتها، وكل ما عثرت عليه فى بعض الصحف القديمة هو إشارة خفية إلى أنها كانت متزوجة من والد الفنان المعروف "ستيفان روستى" وهو من أصل إيطالى، وهى ليست أم ستيفان روستى بل هى زوجة ثانية لوالده. ولا يبقى أمامنا لمعرفة شئ واضح عن هذه الممثلة المصرية اليهودية سوى ما كتبه عنها محمد تيمور فى كتابه "حياتنا التمثيلية"، ودراسة محمد تيمور للممثلة "ميليا ديان" مكتوبة سنة ١٩١٨، ويبدو أن هذه الممثلة كانت فى قمة مجدها فى تلك الفترة يقول محمد تيمور: "إذا أمسكنا اليوم بالقلم وكتبنا عن السيدة ميليا ديان فنحن نكتب فى الحقيقة عن ثلاثة أمور: الأمر الأول أنها أكبر ممثلة تراجيدية، أى ممثلةٍ للأدوار المأساوية، وميليا ديان وهبها الله وجها إغريقيا جميلاً يمازج جماله الألم، وجبهة ناصعة تقرأ فيها آيات الجلال والحزن، وعينين واسعتين ينبعث منهما بريق الآلام وعزة النفس، وجسما ممتلئ الإهاب، وصوتا قادرا حنونا يخالطه الحنان والتلهف، ومشية هادئة ساكنة ترى فيها الكمال تحف به الحسرات، وما الجمال يمازجه الألم، والجلال يخالطه الحزن، والكمال تحف به الحسرات إلا رمز التراجيدى "المأساة" القديمة، فميليا هى المأساة، والمأساة هى ميليا ديان" الأمر الثانى" نكتب فيه عن الممثلة التى ألقى بها الزمن والظروف فى أحضان فرقة لم تحسن تعليمها، فمشت على آثارها عهدا طويلا جداً، وهى لا تمثل غير الروايات التلحينية "الغنائية" التى تقتل مواهب الممثل، اللهم إلا بعض روايات قليلة العدد مثل "هاملت" و "القضية المشهورة" و"اليتيمتين" و"ابن الشعب"، وفى هذا المسرحيات ظهرت مواهب ميليا ديان الكبيرة كالشمس فى رائعة النهار، بيد أنها فى كل رواية تمثلها هى " ميليا ديان"

عروس المسرح العربى وصاحبة الصوت القادر الحنون، والنظرات التى تلقى الهيبة فى القلوب والعواطف الفياضة التى لم نألفها فى ممثلة أخرى. الأمر الثالث: نكتب فيه عن الممثلة التى ألقت ذلك الثوب الرث، ثوب المذهب القديم، وارتدت رداء الفن الصحيح، ووقفت على المسرح تمثل أفضل الروايات الفنية، غير أننا نقول ورائدنا العدل والإنصاف أن الفرقة التى تمثل فيها السيدة "ميليا" لم تحسن إرشادها، ولم تهتد بعد لأن تقدم لها الأدوار التى توافق طبيعتها.

ثم يتوقف تيمور بعد ذلك عند مميزات "ميليا ديان" فيتحدث عنها فى إعجاب واضح، مما يدل على أنها كانت أفضل ممثلة مسرحية فى عصرها من وجهة نظر هذا الناقد والفنان العاشق للمسرح محمد تيمور. يقول تيمور: "ميليا ديان أكثر الممثلات صلاحية للمسرح المصرى، فقد وهبتها الطبيعة فى جسمها وصورتها ونظراتها ما لم تهبه لممثلة أخرى، فإذا خطرت على المسرح يتولى الجمهور السكون، وإذا تكلمت هزت أوتار القلوب. وإذا نظرت مضى لحظها إلى صميم القلب وأثار فيه الرأفة والحنان. فما أجملها فى المواقف المؤثرة، إذا صرخت تستغيث أو بكت تسترحم، وما أجملها أيضاً فى مواقف الكبرياء وعزة النفس، والصبر على الضيم، أو مواقف الحب والهيام".

تلك هى ميزات الممثلة المصرية اليهودية "ميليا ديان" كما يراها محمد تيمور، أما عيوبها، فيقول عنها :".. أما عيوب السيدة ميليا ديان فهى إلقاؤها إذ أنها مازالت تسير على آثار المذهب القديم، وحرام ألا تحسن الإلقاء تلك التى وهبها الله ذلك الصوت العذب. وثانى عيوبها إخراجها أغلب أدوارها على طريقة واحدة، وهذا لاعتيادها تمثيل أدوار الحب مدة طويلة، وجميع ممثلاتنا تقريبا نعيب عليهن ذلك، ونلفت أنظار المديرين "المخرجين" لإصلاح هذا العيب، وثالث عيوبها حياؤها وقد دفعها هذا الحياء كثيرا إلى أن

تخل بفروض الفن أحيانا، إذ لم ترض مثلا أن تقف على المسرح فى رواية البدوية حافية القدمين".

تلك هى صورة حية لذلك العصر البعيد منذ ما يقرب من ثمانين سنة، وخلاصة ما نخرج به من هذه الصورة الممتعة هى أن فن المسرح كان أداة قوية من أدوات النهضة العربية المصرية فى ذلك العصر، وكان تعبيرا عن روح التسامح والتنوع فى ذلك المجتمع، فالرائدات الثلاث للتمثيل النسائى كن مسلمة ومسيحية ويهودية، ولم يكن ذلك مقصودا ولا مفتعلا ولكنه كان نوعا من التعبير الطبيعى عن أن مصر الجديدة عندما فتحت ذراعيها للنهضة والحياة العصرية تركت وراءها كل ما يمكن أن تكون له صلة بالتعصب والتطرف والتفرقة بين الناس دون مبرر لذلك ماداموا مواطنين فى مجتمع واحد، ولاشك أن المسرح، هذا الفن الراقى الذى عرفناه منذ أواخر القرن الماضى، كان مدرسة قوية للتحرر الفكرى والوعى بمعنى التعدد والتنوع فى الرأى، وفتح الأبواب للكفاءات والمواهب بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى، قد تؤدى فى حالة الاستسلام لها إلى صراعات لا تنفع المجتمع، ولا تبنى حضارته ولا تفتح أمامه أبواب مستقبل مشرق قائم على المساواة الحقيقية بين الناس، وإتاحة الفرصة أمامهم ليقدموا أفضل مالديهم دون عقبات أو مصاعب.

الفصل

16

رسائل حب عصرية

■ نزار قبانى و٥٠ سنة حب!

■ للحب تأثير كبير حتى فى السياسة التى لا تعترف بالعواطف!

■ عندما قلت لك: أحــبك.. كنت أعرف أننى أختــرع أبجدية جديدة.. لمدينة لا تقرأ!!!

لا أعـرف فى الأدب العـربى، وربما فى الأدب العـالمى كله شـاعـرا فنانا جعل من الحب موضوعا له خلال خمسين سنة متصلة مثلما فعل "نزار قبانى"، بالموضوع الذى شغل نفسه به منذ أن بدأ الكتابة حوالى سنة ١٩٤٦ إلى الآن هو : الحب، فالحب عنده بداية الحياة وهو ستار النهاية فيها. والحب هو حديقة الورد التى لا يستغنى الإنسان عنها،وإذا تعرض للحرمان منها فإنه يكون قد خسر أجمل معانى الحياة وأكثرها عمقا وإنسانية.

والحـقـيـقـة أن الحـيـاة بدون حب تتـحـول إلى غـابة من الصـراع والوحشية، والإنسان الذى لا يعرف الحب لا يستطيع فى نفس الوقت أن يعـمل أى شئ بحـمـاس أو إخـلاص، ومن هنـا نسـتطيع أن نفـهم كلمات الفيلسوف اليونانى الأكبر "أفلاطون" عندما قال ما معناه: "اعطنى جيشا من العشاق وأنا استطيع أن أغزو به العالم كله".

ولاشك أن "أفلاطون" كان على صواب فلو أنه وجد هذا الجيش من العشاق لاستطاع أن يغزو العالم حقا وأن ينتصر، وأن يرفع راية العشاق فوق جميع المدن والأقاليم. فالعاشق لديه قضية يدافع عنها،وهو قادر على التضحية من أجلها حتى بنفسه، لأنه يريد الأمان لحبيبته، ويريد أن يمنع أى دمعة قد تنزل من عينيها إذا تعرضت لأزمة أو موقف صعب، ويريد لهذه الحبيبة أن تبتسم دائما فى رضا وسعادة، ومن هذه الأشياء الصغيرة البسيطة فى عالم

الحب تنهض الحياة وتتقدم، وتصبح عيدا من أعياد الإنسانية كلها.
ولنتصور مجتمعا خالياً من الحب، تقوم فيه العلاقة بين الرجل والمرأة على الإجبار والعنف والأساليب المادية الخالصة من كل معانى الجمال، مثل هذا المجتمع لابد أن يكون مجتمع "وحوش" لا مجتمع بشر لهم قلوب ومشاعر. ولنتصور أسرة خالية من الحب، فمثل هذه الأسرة تكون الحياة فيها "حربا أهلية" متصلة، حيث يحاول كل طرف أن ينتصر على الطرف الآخر ويلحق الهزيمة به، وما أكبر المحنة التى يمكن أن تعيش فيها مثل هذه الأسرة، فكل من فيها يتربص بالآخرين، ولا تتحقق فيها السعادة إلا بهزيمة طرف أمام الطرف الآخر. وإذا كانت هناك صورة قوية للحزن والتعاسة لاتدانيها صورة أخرى، فإن هذه الصورة لن تكون إلا صورة إنسان مهزوم، والهزيمة فى المشاعر أشد قسوة وعنفا من أى هزيمة فى المال أو فى الممتلكات أوفى أى جانب آخر من جوانب الحياة المادية.
الحب ينتصر حتى على الهزيمة نفسها، لأن الحب معناه "المشاركة" وهذه المشاركة الصادقة تستطيع أن تمشى على الأشواك، وتتحمل جميع المصاعب والمنغصات، فالقلب الإنسانى هنا يكون منبعا للعطاء بغير حدود، واللقمة الواحدة يمكن أن تكفى اثنين من المحبين، لأن كلا منهما يريد لصاحبه الخير ويجد سعادته الكاملة فى إرضاء حبيبه قبل إرضاء نفسه، والكوخ الصغير يصبح قصرا، عندما تضيئه مشاعر الحب الصادقة التى تعطى للأشياء البسيطة قيمتها ومعناها، فالحب فى حقيقته هو جمال الحياة، والحياة بغير حب هى حياة بغير جمال.
ويقدم لنا تاريخ الأدب الإنسانى نماذج من الحب الحقيقى كان لها تأثيرها فى كل مظاهر الحياة، حتى فى السياسة التى لاتعترف بالعواطف ولا تقيم لها أى وزن ولكنها تعترف فقط بالنتائج المادية والعملية لأى معركة أو أى حركة تجرى على مسرح الحياة .
فى مسرحية " روميو وجولييت" لشيكسبير، قام الحب بدور سياسى عملى كبير، فقد كان المحبان من قبيلتين متصارعتين

بينهما ثأر لايريد أن يهدأ، وعندما ضحى الحبيبان بنفسيهما، وتقبلا الموت مع الحب، على الحياة فى ظل الكراهية التى لا تنتهى بين القبيلتين المتصارعتين، انتبه زعماء هاتين القبيلتين، وأدركا ذلك الخطأ الوحشى القائم بينهما أساس الثأر والعداوة، وعاد السلام إلى العلاقة بينهما بعد أن ضحى الحبيبان بحياتهما، والتزمت القبيلتان بأن تحل المودة والرحمة والتعاون فيما بينهما بدلا من القتال والحرب والاندفاع إلى إسالة الدماء. لقد تلقت القبيلتان درس الحب من "روميو" و "جوليت" وتعلمتا من هذا الدرس وخرجتا من نطاق الوحشية إلى نطاق الإنسانية، بعد أن أدركتا أن الحب أقوى من كل عوامل التفرقة بين الناس.

ولنقرأ ما كتبه الكاتبان " شارل ومارى لام" فى موسوعتهما الشعبية المعروفة باسم " روائع شيكسبير" والتى قدمت تلخيصا ممتازا لكل أعمال هذا الفنان الكبير ففى نهاية ملخص مسرحية "روميو وجولييت" نقرأ هذا الوصف للموقف الذى انتهت إليه تلك المسرحية الجميلة بعد موت العاشقين الشابين :

"وقف أمير مدينة فيرونا التى وقعت فيها مأساة روميو وجولييت أمام جثمان العاشقين الشابين والتفت إلى عميد عشيرة "مونتاجيو" وعميد عشيرة "كابوليت" ووبخهما على عداوتهما الحمقاء وحقدهما الوحشى. وأشار بيده إلى نتائج ذلك الحقد، وكيف أن السماء قد عاقبتهما ذلك العقاب الصارم جزاء عادلا على غلظة أكبادهما، فحتى عاطفة الحب بين ولديهما قد تحولت بسبب بغضائهما الموروثة إلى دم وموت ودمار، وتكلم الشيخ "كابوليت" والد "جولييت" وهو يصافح الشيخ "مونتاجيو" والد "روميو" فقال : إننى ماكنت أتمنى لابنتى يدا خيراً من يد ابنك أيها النبيل مونتاجيو، فأعطنى يدك هذه عزاء عن فقدها، فقال الشيخ "مونتاجيو" والد "روميو" : بل وسأعطيك شيئاً أكثر من هذه اليد فى ابنتك الحسناء الوفية سأقيم لها فى مدينتنا "فيرونا" تمثالا من الذهب الخالص، كى يبقى اسمها مابقى اسم "فيرونا" لا يعلو على ذكرها

العاطر ذكر، ولا يكون هناك مثل يضرب للوفاء والأخلاص وصدق القلب والسريرة، كما يضرب للوفية الصادقة جولييت ويرد والد "جولييت" على هذه الكلمات الصادرة من عدوه السابق قائلا : وأنا ياسيدى سأقيم تمثالاً من مالى كهذا التمثال لأبنك روميو، ليبقى على الدهر عنواناً على الحب الذى قاوم الموت وعاش من بعده هازئا بسلطانه" وكان الوالدان الحزينان وفيين لما قالا وأخذا يتباريان فى تبادل المجاملات وآيات التلطف والمودة بعد فوات الأوان واستشهاد العاشقين الشابين فى سبيل الحب الصادق المخلص، ولكن روحى العاشقين الشهيدين كانتا هما الثمن الذى دفعه الحب ليقضى به على سلطان البغضاء والعداوة فى تلك القلوب الجاهلة نعم.. لقد عم السلام فى مدينة "فيرونا" الإيطالية بين القبيلتين المتصارعتين، بعد أن دفع العاشقان الشابان حياتهما ثمناً لهذا السلام الضرورى، حتى يطمئن الناس ويعرف المجتمع معنى الأمن والسعادة، وهكذا يكون الحب قوة تبنى الحياة، وتنتصر على عوامل الصراع والدمار والحروب التى لا تترك وراءها سوى الشرور الكبيرة وقصة " روميو و جولييت" ليست قصة خيالية، فلها أصل تاريخى مثل قصة "حسن ونعيمة" عندنا، وقد أصبحت قصة شعبية إيطالية مشهورة، وقد استفاد شيكسبير من هذه القصة نسج من خيوطها الحريرية مسرحيته الرائعة، وقصة روميو وجولييت تشبه فى إنسانيتها قصة "حسن ونعيمة" فى أدبنا الشعبى، ونعود بعد ذلك إلى نزار قبانى الشاعر الكبير الذى جعل من الحب " صناعة شعرية" له طيلة خمسين عاما متصلة، ولقد كان والد نزار صاحب مصنع صغير من مصانع الحلوى، وكان من الناجحين المشهورين فى عمله، وخرج نزار قبانى إلى الحياة، ليقدم إلينا نوعا من " الحلوى المعنوية والعاطفية" بدلا من الحلوى المادية التى كان يصنعها أبوه" ومن بين أعمال نزار الكثيرة يقدم إلينا كتابا نثريا فريدا فى نوعه هو " مائة رسالة حب " ولو كان الأمر فى يدى لجعلت هذا الكتاب الجميل فى يد كل شاب وفتاة، حتى يعرفوا أن الحب مثل الماء والهواء

ضرورة لكل إنسان، فالحب مصدر للفرح والبهجة والنشوة فى الحياة وهو مدرسة الفضائل الإنسانية الحقيقية، فالعشاق وحدهم هم الذين يحرصون على اكتساب هذه الفضائل ليكونوا دائما أمام عيون محبيهم فى أجمل صورة.

والنثر عند نزار قبانى هو ابن عم الشعر، أو هو شعر "مكرر" إذا صح التعبير، ونزار لا يعرف أبدا ذلك النثر التقريرى الخالى من الجمال، بل إن نثره فى حقيقته هو شعر متحرر من كل القيود، كأنه حسناء تطلق شعرها الطويل، وتعطيه حرية الطيران فى الفضاء وتتخلص من كل المساحيق ليبدو وجهها فى نضارته مثل أوراق الربيع، وتلبس فستانا بسيطا حتى يبدو جمالها الطبيعى ناطقا بلغته الأصلية، دون حاجة إلى ترجمة تقدم بها الفساتين حتى لو كانت مصنوعة من أجمل خيوط الحرير.

هذا هو نثر نزار قبانى أى أشعاره الخالية من أى تزويق أو مساحيق.

و "مائة رسالة من الحب" يقول عنها نزار قبانى إنها بعض الرسائل الحقيقية التى كان يرسلها إلى الحبيبات اللاتى مررن بحياته، ذلك لأن نزار لا يمكنه أن يعيش دون حب، حتى لو كان هذا الحب خياليا، وليس له أساس فى الواقع، لأن قلب نزار لا يستطيع أن يعيش فى إجازة عاطفية ولو لمدة يوم واحد.

يقول نزار عن رسائل حبه: " هذه الرسائل التى انشرها هى كل ما تبقي من غبار حبى، وغبار حبيباتى ولا أعتقد أننى بنشرها أخون أحداً أو أعتدى على عذرية أحد فأنا شاعر كان له - ككل الرجال - تراث من العشق لا يخجل منه، ومجموعة من الرسائل لم يجد الشجاعة الكافية لإلقائها فى النار، وأنا لا أنكر أننى فكرت فى النار، كحل أخير يحررنى من هذه التركة الثقيلة من الرسائل التى احتفظ بها، ويحرر جميع حبيباتى، غير أنى حين رجعت إلى محتويات هذه التركة وجدت أن بعض هذه الرسائل فيه شئ كثير من قماشة

الشعر.. وبعضها الآخر شعر حقيقى. عندئذ تراجعت عن عملية الحرق، والتقطت من بين أكداس الرسائل مائة رسالة، أو مقاطع من رسائل وجدت فيها إيقاعا شعرياً وإنسانياً، يتجاوز إطار الخصوصيات إلى إطار العموميات، رغم قناعتى بأن الخط الذى يرسمه الناس بين خصوصيات الفنان وعمومياته هو خط وهمى!

" ثم إنى أعتقد أن الكاتب لا يكون فى ذروة حريته إلا فى مراسلاته الخاصة، أى عندما يقف أمام المرأة ويتجرد من أقنعته وقيمه المسرحية التى يفرض المجتمع عليه أن يرتديها، فالرسائل هى الأرض المثالية التى يركض الكاتب عليها، كطفل حافى القدمين، ويمارس فيها طفولته بكل ما فيها من براءة وحرارة وصدق. إنها اللحظات الصافية التى يشعر فيها الكاتب أنه لا يتعرض للمراقبة ولا يخضع للإقامة الجبرية. ثم يقول نزار قبانى فى مقدمة رسائله أيضاً :

أنا بالرغم من الحرية التى كنت أمارسها كشاعر، كنت أحس فى كثير من الأحيان بأننى مقيد بأصول الشعر، وقواعده، واطاراته العامة، وأن هناك أشياء خلف ستائر النفس، تريد أن تعبر عن ذاتها خارج شكليات الشعر ومعادلاته الصارمة، وبتعبير آخر كانت هناك منطقة فى داخلى تريد أن تنفصل عن سلطة الشعر .. تريد أن تتجاوز الشعر.

والحق أن نزار فى رسائل حبه لم يتجاوز سلطة أحاديثه العذبة، والتى هى فن، وإن قيل عنها إنها نثر وليست شعراً، والفرق هنا هو مثل الفرق بين ألوان العصافير الجميلة، بعضها أخضر وبعضها أصفر، ولكنها جميعا عصافير مغردة.

وهذه العصافير المغردة فى رسائل نزار قبانى تغنى العشق الذى يحرك القلوب ويدفع بالدماء الحارة فى العروق، ويجعل الحياة أجمل من عيوننا كما لو كنا نراها بغير هذه العاطفة الدقيقة القوية .. عاطفة الحب .

وسوف نجد فى رسائل الحب الأولى عند نزار قبانى روحا "ثورية" وقد يبدو هذا أمراً عجيبا فالحب لا يعرف العنف ولا يميل إليه، ولكن بلادنا- فى الشرق - ظلت بسبب التخلف الذى فرض عليها طويلا تقاوم الحب وتعتبره خروجا على التقاليد السليمة، وتنظر إليه نظرتها إلى شئ غير لائق. لذلك فالحب فى مثل هذا المناخ مضطر إلى أن يتسلح بشئ من الثورية ضد أعدائه، حتى يستطيع أن ينتزع حقوقه الشعرية ويفرض على أعدائه أن يعترفوا به. ويقول نزار قبانى فى إحدى رسائله معبراً عن هذا المعنى.

" عندما قلت لك : أحبك، كنت أعرف أننى أقود انقلابا على شريعة القبيلة، وأقرع أجراس الفضيحة كنت أريد أن استلم السلطة لأجعل غابات العالم أكثر ورقا، وبحار العالم أكثر زرقة، وأطفال العالم أكثر براءة، كنت أريد أن أنهى عصر البربرية، وأقتل آخر الخلفاء!

" عندما قلت لك : أحبك، كنت أعرف أننى اخترع أبجدية جديدة، لمدينة لا تقرأ، وأنشد أشعارى فى قاعة فارغة، وأقدم النبيذ لمن لا يعرف نعمة السكر" .

وطبعا فإن النبيذ الذى يشير إليه نزار قبانى هنا ليس نبيذا مادياً، وإنما هو قوة عاطفية وروحية، و"السكر" ليس سكرا من الخمر، وإنما هو سكر من نشوة الحب، فهو سكر مباح ومقبول.

ونواصل قراءة رسالة نزار التى يعلن فيها ثورة الحب على أعدائه والمتربصين به فيقول :

"عندما قلت لك : أحبك، كنت أعرف أن المتوحشين سيتعقبوننى بالرماح المسمومة، وأن صورى ستلصق على كل الحيطان، وأن بصماتى ستوزع على كل المخافر، وأن جائزة كبرى ستعطى لمن يحمل لهم رأسى ليعلق على أبواب المدينة" .

"عندما كتبت اسمك على دفاتر الورد، كنت أعرف أن كل الأميين سيقفون ضدى، وكل الدراويش.. والطرابيش .. ضدى وكل

العاطلين بالوراثة عن ممارسة الحب .. ضدى!!".

" عندما قررت أن أقتل آخر الخلفاء، وأعلن قيام دولة الحب، تكونين أنت مليكتها، كنت أعرف أن العصافير وحدها ستعلن الثورة معى!!"

وفى رسالة أخرى يقول نزار : " لماذا أحبك أنت بالذات. وانتقيك أنت بالذات. واسمح لك أن تجلسى فوق اهدابى، تعنين، وتلعبين الورق.. ولا أعترض.. "

"لماذا أعطيك. من دون جميع النساء مفاتيح مدنى التى لم تفتح أبوابها لأى طاغية.ولم ترفع راياتها البيضاء لأية امرأة، وأطلب من جنودى، أن يستقبلوك بالأناشيد، والمناديل، وأكاليل الغار، وأبايعك أمام جميع المواطنين، وعلى أنغام الموسيقى أميرة مدى الحياة".

ويقول نزار فى رسالة ثالثة : "إننى أضع جميع ممتلكاتى أمامك، ولا أفكر فى حساب الربح والخسارة، ربما لم يكن عندى أرصدة فى البنوك، ولا آبار بترول أتغرغر بها وتستحم فيها عشيقاتى، ربما لم تكن عندى ثروة أغاخان، ولا جزيرة فى عرض البحر مثل أوناسيس.. فأنا لست سوى شاعر، كل ثروتى موجودة فى دفاترى، وفى عينيك الجميلتين.. "

ويقول نزار فى رسالة رابعة : " أنا لا أشكو من سكناك فىَّ، ومن تدخلك فى حركة يدى، وحركة جفنى، وحركة أفكارى، فحقول القمح لا تشكو من وفرة سنابلها. وأشجار السنين لا تضيق بعصافيرها. كل ما أطلبه منك ياسيدتى، أن لا تتحركى فى داخل قلبى كثيرا .. حتى لا أتوجع".

هذه بعض قطرات من ماء الورد الذى تمتلئ به كلمات نزار قبانى فى كتابه "مائة رسالة حب" والكتاب كله دعوة إلى سيادة الحب فى العالم، ورفع رايته الجميلة فى كل مكان، حتى يصبح العالم أرضا صالحة للحياة فى سلام وأمان، وليس ساحة للمعارك المتصلة التى يقتل فيها الإنسان أخاه الإنسان.

الفهـــرس

الصفحة